

مركز دلائل
DALA'IL CENTRE

لماذا نحن هنا ؟

تساؤلات الشباب حول الوجود والشر والعلم والتطور

إسماعيل عرفة

لماذا نحن هنا؟!

ح دار وقف دلائل للنشر، ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عرفة، إسماعيل أحمد أحمد عبد المنعم

لماذا نحن هنا؟!. / إسماعيل أحمد أحمد عبد المنعم عرفة. ـ

الرياض، ١٤٣٨هـ

٢٥٩ص، ١٧×٢٤سم

ردمك: ٥ـ٩ـ٩٠٨٨٢ـ٦٠٣ـ٩٧٨

١ـ العقيدة الإسلامية ٢ـ الإلحاد والملحدون أ. العنوان

ديوي ٢٤٠ رقم الإيداع ١٤٣٨/٣٩٣١

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ

مضمون الكتاب يعبر عن رأي مؤلفه

ولا يعبر بالضرورة عن رأي المركز



مركز دلائل
DALA'IL CENTRE

Dalailcentre@gmail.com

الرياض - المملكة العربية السعودية

ص ب: ٩٩٧٧٤ الرمز البريدي ١١٦٢٥

Dalailcentre@

+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠

طبعت في الدار العربية للطباعة والنشر

تصدير:

كثيرةٌ هي العقول التي أفرزتها البشرية لتقود توجهات ملايين الناس لسنوات وسنوات، وسواءً أكانت تلك القيادة في الخير أم الشر إلا أن العاقل يسعىٰ للنظر في أيٍ منها وعرضه علىٰ أوليات الفكر القويم والرأي السديد ليرىٰ مدىٰ اتساقها مع العقل والفطرة ومدىٰ خلوها من التناقض في ذاتها من عدمه.

ولذلك: كانت الحاجة الماسة لمثل هذه السلسة من (أطروحات فكرية)...

وفي هذا الكتاب نستعرض معـًا أشهر الأسئلة الوجودية في حياة البشر، حيث يتجول بنا الكاتب بين أجوبة تلك الأسئلة لنصل في النهاية إلىٰ السبب الحقيقي للوجود، متناولا في أطروحته الإجابة عن أسئلة الحكمة والقضاء والقدر ووجود الشر والابتلاء، وكذلك القول بتطور الكائنات الحية وتطور الإنسان (أو وجود بشر قبل آدم عليه السلام)، موضحًا أسباب تفرد الدين الإسلامي عن باقي الأديان، تاركا الحكم النهائي للقارئ الكريم الذي يبحث عن الحق.

مركز دلائل

***


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة



﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ (لقمان: ٢٠).

إهداء...

إلىٰ الروح النقيّة...

إلىٰ أخي... ومعلّمي...

إلىٰ الصامد المغامر في وجه السيل...

إلىٰ مهند إيهاب...

تقبّله الله في عليين...

آمين...

***

مُقدِّمةٌ...

الحمـدُ للهِ ربِّ العـالمين، والـصَّلاةُ والـسَّلامُ علـىٰ أشـرفِ المرسـلين، وبعدُ..

ففي سياق الانفتاح الشديد لوسائل التواصل الاجتماعي، صار التعرف علىٰ أفكار أي مجموعة من الأشخاص في العالـم عبر صفحات الإنترنت أمرًا غايـة في الـسهولة، فـدقائق قليلـة علـىٰ مواقـع التواصـل تحملـك مـن الأفكـار التاريخية الـشرقية **لكونفشيوس** في الـصين، و**بـوذا** في الهنـد، و**زرادشـت** عنـد الفرس، إلىٰ الطواطم والطقوس والعادات الأفريقية، إلىٰ المـذاهب الإنـسانية والوجوديـة والـديانات الوضـعية، إلـىٰ الإمبريقيـة والرواقيـة والسوفـسطائية اليونانية، إلىٰ **نيتشه** و**فرويد** و**هيجل** و**ماركس**، إلىٰ **ديكارت** و**هولباخ** و**هيدجر** و**هيوم** و**كانط**، إلىٰ العدد المهول من التجارب والأفكار البشرية، كل ذلك في دقائق معدودة.

وأصبح من لوازم الحياة اليومية أن يحتكَّ الشاب المعاصر بالعديـد مـن التساؤلات الوجودية والأمور المنافية لعقيدته جهارًا نهارًا، من أخبـار وأفـلام وقضايا اجتماعية، وربما سمع هذا الشاب أنَّ صـديقًا لـه صـار ملحـدًا، وربـما التقىٰ آخر فاكتشف أنَّه أصبح لا أدريًّا! وتكتمل المأساة عندما تُوجَّهُ الأسئلة

لصحابنا هذا، فلا يستطيع الإجابة عليها، فتساوره الشكوك تلو الشكوك، وكلنا يعلم أنَّه أصبح من الأمور العادية أن يتصفحَّ الشاب مواقع التواصل الاجتماعي، ثم يجد العديد من المنشورات التي تطعن في صميم عقيدته، منشورات من نوعية: (**الله ليس موجودًا!**)، و(**الأديان فكرة سخيفة! كن ذكيًّا..**)، و(**العلم يُجيب علىٰ كل الأسئلة، والدين للأغبياء!**).. وغير ذلك من الطعون والشتائم علىٰ الإسلام والأديان، ثم يستكمل الشاب تصفحه وكأنَّ شيئًا لم يكن!

والكارثة الحقيقية أنَّ هذه التساؤلات تتوالىٰ بشكل شبه يومي علىٰ الشاب دون أن تتوفر الإجابات عليها، **وبالتالي يُصبح الشابُّ مُحمَّلًا بكمٍّ** كبير جدًّا من التساؤلات المخزَّنة داخل عقله، والتي تنتظر لحظة الانفجار؛ لتتبيَّن مدىٰ خطورتها، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

* **ومع كل الأسف، فهناك ثلاثة عوامل تزيد الوضع سوءًا:**

الأول: المصائب المتوالية علىٰ الأمة الإسلامية جراء حكم الأنظمة الطاغوتية التي تعيث في الأرض فسادًا، ولا تدّخر جهدًا في استعباد الشعوب والأمم، وهذا الظلم الغاشم ينعكس بكل تأكيد، وبشكل مباشر، علىٰ مستويين: **المستوىٰ الأول:** إثارة الأسئلة الوجودية في نُفوس بعض المسلمين فيبدؤون في التساؤل: **لماذا هذه المعاناة؟ إذا كان الله موجودًا؛ فلماذا يترك هؤلاء الظالمين يستبيحون الدماء والأعراض؟ هل تخلَّىٰ الله عنَّا؟ هل هو موجود بالفعل؟ لماذا تركنا لهؤلاء الطواغيت؟ ولماذا، ولماذا، ولماذا؟!** ممَّا يُؤدِّي بالمرء إلىٰ الشكِّ والارتياب، ومنه - بكل أسف - إلىٰ الإلحاد.

والمستوىٰ الثاني: هو أنَّ هذه الأنظمة تقمع كُلَّ مَن يُعارضها، وعلىٰ رأس هؤلاء المعارضين منابع العلم التي يكدُّ الطواغيت في تقزيمها، حتىٰ لا يخرج علماء يختلطون بمشاكل المسلمين الحقيقية، ويعملون علىٰ حلِّها، مع استقطاب علماء السلطان الذين يعرضون صور مبتورة ونسخ مشوهة من الدين الحنيف للشعوب، ممَّا يُحقِّق رغبة هذه الأنظمة في إلهاء الشعوب، وإغراقهم في الشهوات والشبهات؛ لتضعف جذوة المواجهة مع القوىٰ المعادية للإسلام، وقد بلغت خطورة هذه النقطة إلىٰ الحدّ الذي دفع أحد الباحثين إلىٰ القول بأن السبب الأول لشيوع الإلحاد هو الاستبداد السياسي الذي تعيش الأمة الإسلامية في ظله![1].

الثاني: الغياب الكبير لعمليات تناصح حقيقية بين المجموعات الشبابية في هذا الموضوع، فرغم أنَّ كثيرًا من الشباب يعلمون أنَّ الأفكار الإلحادية قد انتشرت بشكل كبير - خصوصًا في الأوساط الجامعية - إلَّا أنَّ التساؤلات المختلفة تمرُّ علىٰ عقول الشباب، ولكنَّهم يتعمَّدون إخفائها و(دفنها) تحت ركام الحياة ومشاغل الدنيا، لكن التساؤلات تتراكم وتتراكم، حتىٰ يصبح وباءً عامًّا وشاملًا لشرائح واسعة من الشباب، خصوصًا مع الغياب التام لدور العلماء وطلبة العلم الذي لا يملُّون من تصنيف المصنفات الطويلة في طول اللحية وحكم التمذهب ورفع السبابة في التشهد أثناء الصلاة وإسبال البنطال، وغيرها من القضايا الهامشية للغاية - بالنسبة لواقعنا - التي لو وُجِّه معشارها

---

(١) محمد الصادقي، (حوار بين الإلهيين والماديين)، دار التراث الإسلامي، بيروت، ص (٣١).

في مواجهة قضايا أشد خطرًا لَـمَا كان هذا حالنا! فالأمر بالفعل يحتاج إلىٰ نظرٍ واسعٍ، وعملياتِ تناصحٍ وأمرٍ بالمعروف مستمرة، حتىٰ تطمئن القلوب، وتسكن الأنفس، ويُسلِم العباد إلىٰ رب العباد ﷻ.

الثالث: غياب الدراسة العقدية بين أبناء المسلمين، وانتشار الجهل والتقليد بشكل لم يعهده المسلمون من قبل، فأغلب الشباب والفتيات اليوم - بكل أسف - هم مسلمون بالوراثة، وأبسط مسائل التوحيد غابت عن أفهام المسلمين، ولم يعد يهتم أحدٌ بدراسة العقيدة الإسلامية وأصول الدين ونحو ذلك من دراسات شرعية، **فالشابُّ أو الفتاة** لا يهتم إلَّا بتحصيل الدرجات، وتضييع الأوقات، واللهو والمرح مع الأصحاب، **أمَّا الآباء والأمهات** فلا يشغلهم سوىٰ المطعم والمأكل والملبس، وتوفير لقمة العيش، مع ضمان أكبر قدر من المال وأفضل سكن للأبناء، وكل ما دون ذلك فهو هامشيٌّ، لا يولِّي الأهلون اهتمامًا يُذكر له، **والنتيجة:** هي غياب أية أرضية شرعية صلبة للشاب المسلم يستطيع الوقوف عليها عند تعرُّضه لشبهة من الشبهات، ممَّا يُؤدِّي إلىٰ اهتزاز قناعات الشاب المسلم عند تعرُّضه لأدنىٰ شبهة حول دينه، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

إنَّ هذه السيولة الشديدة في الأفكار والتصورات المتدفقة في مواقع التواصل الاجتماعي لا تحدُّها رقابة أهل، ولا ترعاها حدود دين، فصار كلُّ شيء مفتوحًا، وكل محظور متاحًا، وأمام هذا التنوع الشديد في الأفكار، وفي مواجهة هذا الكمِّ الهائل من التساؤلات والشكوكات، يجد الشابُّ نفسه مضطربًا، متذبذبًا، لا يستقرُّ ولا يطمئن لأي عقيدة يؤمن بها، فالتباين الشديد

في الأفكار يدفع بالمرء إلىٰ الوقوع في حالة نسبية دائمة، فكل شيء مُعرَّض للنقد، وكل فكرة قابلة للدحض، بالتالي ليس هناك ثابت مطلق نؤمن به أو نتمسك به، حتىٰ لو كان هذا الثابت هو الإسلام ذاته!

وهذه الفكرة هي ما أشار إليها باري شوارتز في كتابه (مفارقة الاختيار) (The paradox of choice)[1]، ففي سياق نقده للنظام الرأسمالي، أشار شوارتز إلىٰ أنَّ المستهلك عندما يملك قدرًا محدودًا من المال، ثم يُعرض عليه منتج واحد أو منتجين فقط للشراء، فإنَّه يكون في حالة طمأنينة عند الاختيار، وبعد الاختيار أيضًا؛ لأنَّ الاختيارات قليلة، وبالتالي لا يجد المستهلك صعوبةً في مقارنة الاختيارات المتاحة، وتفضيل أحدها علىٰ الآخر، لكن عندما يملك المستهلك نفس القدر من المال المحدود، ثم يُعرض عليه المئات من المنتجات بدعوىٰ (الحرية)، فإنَّ هذه الحرية تتحول إلىٰ عبودية بحق؛ لأنَّ هذا الكمَّ الهائل من الخيارات المتاحة مع المساحة القليلة جدًّا للإرادة - نظرًا لقلة الموارد - فإنَّ هذا يُولِّدُ عند المستهلك شعورًا بعدم الرضا والاضطراب النفسي والقلق والضغط العصبي نتيجة المقارنة المستمرة بين المنتجات المختلفة، حتىٰ بعد شراء المستهلك للسلعة واستهلاكها؛ فإنَّه يستمرُّ في عقد المقارنة بين السلعة المشتراة والسلع المعروضة، ممَّا يخلق لديه ندمًا علىٰ عدم اختياره للسلع الأخرىٰ، بالتالي يقعُ في دوامة من الاضطراب النفسي الدائم.

---

(١) يُمكن مشاهدة تلخيص الكاتب لكتابه علىٰ منصة (TED) عبر الرابط:
https://www.youtubc.com/watch?v=VO6XEQIsCoM

هذا في عالم الأشياء، وقياسًا على عالم الأفكار، فإن هذا هو عين ما يحدث حاليًّا بين شبابنا، فالمعروض من الأفكار والعقائد في غاية التنوع والتباين، والشاب لا يملك إلَّا أن يُؤمِنَ بعقيدة واحدة فحسب: **فماذا يختار في هذا السوق الضخم من العقائد؟ وما هو الحقُّ وما هو الباطل؟ وما هو معيار مقياس الحقِّ والباطل أصلًا؟** إنَّ الطبيعة البشرية تظلُّ في النهاية طبيعة ضعيفة ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٨)، وكلَّمَا زاد تدفق الأفكار المختلفة إلىٰ العقل الإنساني - خصوصًا مع غياب الدراسة العقدية السليمة للإسلام - اضطربت قناعات الشاب.

ورغم أنَّنا يمكننا القول بأن الكتابة والنقاش حول مسألة وجود الله هي مسألة نادرة في تراث المسلمين بالنسبة إلىٰ مجمل إنتاجهم، لدرجة أنَّ الإمام الشهرستاني عندما كان يدحض حجج النصارىٰ تعرَّض لمن ينكرون وجود الله بالكلية، فقال: «أمَّا تعطيل العالَمِ عن الصانِع العالِم القادِرِ الحكيمِ؛ فلستُ أراها مقالةً لأحدٍ، ولا أعرفُ عليها صاحبَ مقالةٍ؛ إلَّا ما نُقل عن شرذمة قليلة من الدّهرية»[1]، ولكن في عصرٍ تبدَّلت فيه المعايير، وصار فيه السفيه عالـمًا، والرويبضة إمامًا، والعالِم العامِل مُستضعفًا مُستعبدًا؛ انتكست الفطرة، وابتعدت العقول والقلوب عن نور الوحي والهداية الربانية، وحدث الفصام النكد بين الدين والدنيا، فأصبحت الكتابة حول هذا الموضوع من الأهمية بمكان لِمَا فيه من خطورة جمَّة علىٰ دين المسلمين ودنياهم.

---

(١) عبد الكريم الشهرستاني، (نهاية الإقدام في علم الكلام)، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، (٢٠٠٩م)، ص (١١٨).

بيد أنَّ هذه الصفحات اليسيرة ليست هجومًا مباشرًا على الإلحاد، ولا تفكيكًا لدعائمه، ولا عرضًا لتاريخه، وإن كان بعضُ ذلك موجودًا في ثنايا هذه الصفحات بطبيعة الموضوع، وإنَّما هذه الصفحات مُوجَّهَةٌ بشكل أساس إلىٰ الشاب المسلم الذي يُقابل ملحدًا هنا، ولا أدريًّا هناك، ويرىٰ منشورًا هنا، وآخر هناك؛ فاختلج صدره بعض التساؤلات، وساورته بعض الشكوك، وتيقَّظ لديه القلق الوجودي، أو ربما اعترت نفسه غضبة للدين تجاه من ينكر وجود خالق الكون! فلعلَّ هذه الصفحات البسيطة تكون عونًا - إن شاء الله - للمسلم، وتأسيسًا له في مواجهة هذه الهجمات المتوالية علىٰ الفطرة السويَّة، فإن التساؤلات الوجودية إذا انتقلت من مستوىٰ الوسوسة، أي: «تردد الشيء في النفس من غير أن يطمئن إليه ويستقرّ عنده»[1]، إلىٰ مستوىٰ الشك أو الشبهة، فلا يصح أن يقف المسلم دون سعي حقيقي لدفع هذه الشبهة أو الشك بالنظر والاستدلال، كما يقول الإمام النووي في شرح مسلم: «فالخواطر علىٰ قسمين: فأما التي ليست بمستقرة ولا اجتلبتها شبهة طرأت، فهي التي تُدفع بالإعراض عنها، وعلىٰ مثلها يطلق اسم الوسوسة.. وأما الخواطر المستقرّة التي أوجبتها الشبهة فإنها لا تُدفع إلا بالاستدلال والنظر في إبطالها»[2].

---

(١) ابن حجر، (فتح الباري بشرح صحيح البخاري)، الرياض، دار طيبة، (٢٠٠٥م)، (٦/ ٣٥٨).

(٢) النووي، (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، بيروت، دار المعرفة، (١٩٩٤م)، (٢/ ٣٣٣-٣٣٤).

وقد فضَّلت أن أعرض المسائل في هذا الكتاب علىٰ هيئة (سؤال وجواب)، لِمَا في ذلك (**أوَّلًا**) من حيوية تكافئ حساسية وأهمية الموضوع لدىٰ القارئ. و(**ثانيًا**) لأنَّ أسلوب (السؤال والجواب) يرتب الأسئلة قبل أن يرتب الإجابات؛ لأنَّ هذه من أهم الإشكالات في نظري عند طرح الأسئلة الوجودية، سواء في عملية التفكر الذاتي أو خلال الحوارات مع الملحدين، فالسُّؤال الصحيح يُؤدِّي إلىٰ الجواب الصحيح، والسؤال الخاطئ يُؤدِّي إلىٰ الجواب الخاطئ، أو كما يقول كلود ستراوس: «**العالِم ليس هو الشخص الذي يعطي الأجوبة الصحيحة، وإنما هو الذي يسأل الأسئلة الصحيحة**». لذا: فضَّلنا ترتيب التساؤلات لترتيب الإجابات في الأذهان بطريقة ميسرة إن شاء الله.

كما راعينا التركيز وعدم الاستطالة في إجابات الأسئلة المطروحة والاكتفاء بالنقاط الرئيسة، حتىٰ لا يطول المقام بالقارئ، ويدخل في جدالات هو في غنىٰ عنها.

*** وقد قسَّمنا الكتاب إلىٰ ثلاثة فصول:**

- **الفصل الأوَّلُ بعنوان: (لماذا نحن هنا؟)**. ونتناول فيه أسئلة البداية المتعلقة بوجودنا كمخلوقات وكبشر قادرين علىٰ التفكير والتعقل والتجاوز، وماهية الإنسان وبداية وعِلة وغاية وجوده، ووجود الله الخالق المدبر وخلقه للخلق وللنسق الكوني وغايته وموضعنا كبشر فيه، كما استعرضنا بعض النظريات العلمية التي تحاول البحث في نشأة الكون، ونشأة الحياة بين المعطيات العلمية المعاصرة والتصور التوحيدي الإسلامي.

- أمّا الفصل الثاني فبعنوان: (سؤال الشَّرِّ). وهو من أخطر الأسئلة التي قد تمرُّ علىٰ الإنسان طيلة حياته، وهو السؤال المتعلق بقسوة الحياة نتيجة للكوارث الطبيعية والحروب والأوبئة والمجاعات والآلام والمعاناة الإنسانية، ولماذا خلق الله النار ولماذا خلقنا كي يعذبنا... إلىٰ آخر هذه الأسئلة. وقد وقع في هذا السؤال الكثير من اللَّغط والمغالطات التي أودت بتفكير الكثيرين إلىٰ الهاوية، سواء في التاريخ الغربي، أو في واقعنا المعاصر. ولذا: فضَّلنا التفريق بين الأسئلة الوجودية جُلها، وبين سؤال الشر، فخصصنا له فصلًا وحده، وسنعمل - بإذن الله - علىٰ حسم هذه المسألة بشكل مُيسَّرٍ، مُستعينين بالله.

- والفصل الثالث والأخير بعنوان: (الإسلام والعلموية). الذي نستعرض فيه سيرورة العلم الطبيعي بشكل موجز، ثم نتحدث عن فلسفة العلم الطبيعي المعاصر ونشوء النزعة العلموية (Scientism) في مقابل التصوّر الإسلامي للوجود والحياة والعلم، ثم نختم بالحديث حول نظرية التطور الداروينية وموقف الإسلام منها.

علىٰ أنَّ هذه الصفحات مُوجَّهةٌ في بادئ الأمر إلىٰ أولئك المسلمين الذين امتلأت عقولهم بالتساؤلات والتأملات المشروعة، فأرَّقتهم الأسئلة الوجودية، وأتعبتهم كثرة الشكوك والدعاوي والافتراءات، فباتوا غير مطمئنين إلىٰ ما يمتلكون من قناعات. ولذا نكتب إليهم هذه الصفحات، امتثالًا لوصية الجاحظ رحمه الله: «اعرف مواضع الشكِّ؛ لتعرف بها مواضع اليقين»[1].

---

(١) الجاحظ، (كتاب الحيوان)، تحقيق: عبدالسلام هارون، القاهرة، مكتبة مصطفىٰ الحلبي، (١٩٦٧م)، (٦/ ٣٥).

أمَّا إذا كنت ممَّن أنعم الله عليهم بالطمأنينة، فلم تطرح التساؤلات، وغابت عنك الشكوك، ولا تختلط دوائرك من المعارف والأقارب والأصدقاء بلوثات الإلحاد واللَّا أدرية، فلستُ أنصحك بالتصفح في هذا المجال؛ لِمَا فيه من أسئلة جديدة، رُبَّما تفتح عليك أبوابًا للشيطان يصعب غلقها بعد ذلك، ووصية النبي ﷺ في هذا الأمر شديدةُ الوضوح، إذ سأله سيدنا عمر بن الخطاب أن يسمح له بأن يجلس مع اليهود؛ لِمَا في أخبارهم من فائدة، فقال له النبي ﷺ: «أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟! لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»[1].

إنَّ هذه السطور القليلة ليست إلَّا محاولة من عبد فقير لاستنقاذ الفطرة من الركام في زمن تكاد لا تجد الفطرة لها فيه مسلكًا.

وإنِّي لأرجو الله أن يتقبَّل مني هذا العمل اليسير، وأن يغفر لي حظ نفسي من هذا الكتاب، وأن يهدي إخواننا وأخواتنا إلىٰ معرفته ومرضاته، إنَّه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

كما أتقدم أخيرًا بالشكر الوافر إلىٰ كل مَن ساعدني علىٰ إتمام هذا العمل وإخراجه إلىٰ النور، سواء بتقديم النصائح أو الاستشارات أو التصويبات أو الإضافات، وعلىٰ رأسهم الدكتور أحمد الغريب، الذي تفضل مشكورًا بمراجعة البحث كاملًا وتنقيح الكثير من فقراته وتصويبها، فجزاه الله عنَّا خير الجزاء.

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

***

---

(١) رواه أحمد والبيهقي في كتاب (شعب الإيمان)، وهو حديث حسن.

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

لِـمَاذَا نَحْنُ هُنَا؟!

الباب الأول: قبل أن نبدأ..

*** لعلَّهُ من الأهمية بمكان أن نستعرض بعض المُسلَّمات التي نبني عليها نقاشنا، حتىٰ نستطيع الاتفاق علىٰ أرضية مشتركة تُبنىٰ عليها التساؤلات والإجابات.**

- **المُسلَّمة الأُولىٰ:** أنَّ ثمة معارف إنسانية تُسمىٰ بالبدهيات، هي حقائق لا يوجد سبيلٌ لإنكارها، والبدهيات التي نقصدها هي المقدمات العقلية التأسيسية، مثل: أنَّ الجزء أصغر من الكل، أو أنَّ اجتماع الشيء ونقيضه مستحيل (كأن يكون الشيء موجودًا، وغير موجود في ذات الوقت)، أو أنَّ الواحد نصف الاثنين، أو أنَّ لكل معلول علة، إلىٰ آخر المسلمات البدهية التي لا يشكُّ فيها عاقل، سواء كانت هذه البدهيات مكتسبة عبر الإدراك الحسي وعملية التعقل منذ ولادة الإنسان وخلال طفولته (كما يقول جون لوك مثلًا)[1]، أو هي مبادئ فطرية مركوزة في العقل الإنساني بفطرة الله (كما يقول ابن خلدون مثلًا)[2].

---

(١) عبد الله القرني، **(المعرفة في الإسلام مصادرها ومجالاتها)**، مركز تأصيل للدراسات والبحوث، جدة، الطبعة الثانية، (٢٠٠٨م)، ص (٣١٢).

(٢) عبد الرحمن الزنيدي، **(مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي)**، المعهد العالمي=

وهـذه البـدهيات لا يمكـن التأكيـد عليهـا ببرهـان تجريبـي لإثباتهـا، ولا تحتاج إلىٰ نظر، ولا إلىٰ استدلال، بل هي مدركات تأسيسية للعقـل الإنـساني لا يُتـصور أن يـستقيم وجـود الإنسان دون التـسليم بهـا، فإنـك إذا سـألت أي شخص: كـم يـساوي شيئًا زائـد شـيء؟ لأجـاب: (شيئين) علـىٰ الفـور، دون الحاجة لدراسة ولا لفلسفة، ولا لمعرفة كيفية هذا الـشيء، ولا للبرهنـة علـىٰ صحة قوله.

فهـذه المبـادئ العقليـة الأوليـة «لا تحتـاج بعـد توجـه العقـل إلـىٰ شـيء أصلًا، أي إنَّها بعبارة أخرىٰ: القضايا التـي يوجبهـا العقـل الـصريح لذاتـه مـن غير معنىٰ زائد عليها»[1]. لذلك فإنَّ هذه البـدهيات لا يجـوز عقـلًا الاسـتدلال علىٰ صحتها؛ إذ هي صحيحة لذاتها، كما يقول ابن حزم: «**ما كان مدركًا بأول العقل والحس، فليس عليه استدلال أصلًا**»[2].

ومـن أهـم الـضرورات والبـدهيات العقليـة التـي نقـصدها **قـانون الـسببية**، وقانون السببية معناه: «أنَّـه لا شـيء يحـدث بـلا علـة، أو علـىٰ الأقـل بـلا سـبب محدد، أي بلا شيء ما يمكنه الإفادة بتعليل قبلي لسبب وجود هذا الشيء بـدلًا من عدمه، ولـماذا هو علىٰ هذا النحو، وليس علىٰ نحو آخـر مختلـف تمامًـا»[3]،

=للفكر الإسلامي، مكتبة المؤيد، الرياض، الطبعة الأولىٰ، (١٩٩٢م)، ص (٣٤٢).

(١) المصدر نفسه، ص (٣٣٢).

(٢) ابـن حـزم، (**الفِـصَل في الملـل والأهـواء والنحـل**)، دار الجيـل، بيـروت، (١٩٩٦م)، (٥/ ٢٤٢).

(٣) أندريه لالاند، (**موسوعة لالاند الفلسفية**)، تعريب: خليـل أحمـد خليل،إشراف: أحمـد=

وهذا القانون تأسيسي وضروري لقيام أية معرفة إنسانية أصلًا، «فالعلم بأن كل محدَث لا بد له من محدِث = علمٌ فطري ضروري»[1].

لماذا نطرح هذه المسلّمات من الأساس ما دامت في غاية البدهية؟ لأنّه أحيانًا ينحرف العقل البشري، فيصل إلىٰ مرحلة يُكذِّب فيها هذه البدهيات من الأساس، فلا يعود يؤمن بأي مبادئ بدهية، فإذا قلت له - مثلًا -: إنَّ الاثنين أكبر من الواحد. قال لك: هذا أمر غير مؤكد، ويحتاج إلىٰ برهان! وإذا قلت له: إنَّ لكل معلول علة ولكل حادث سبب. قال: إنَّ هذه ليست حقيقة عقلية! وعندئذ فلا فائدة من النقاش، ولا يمكن بناء أية معرفة إذا كانت هذه البدهيات غير مستقرّة عند المخاطب، «فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل»[2].

وقد وقع الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله في حالة من السفسطة، وظلَّ يشكُّ في كل شيء حتىٰ وصل شكه إلىٰ أبسط قواعد التفكير المنطقي، حتىٰ هداه الله، وعاد ليؤكد تأسيسية العقل الإنساني علىٰ البدهيات، فالمشكل أنَّ العقل الإنساني عندما يصل إلىٰ مرحلة إنكار البدهيات فإنَّه لا سبيل لإمكان بناء أي معرفة إنسانية علىٰ الإطلاق؛ لأنَّه لو كانت أبسط قواعد التفكير

=عويدات، منشورات عويدات، بيروت/ باريس، الطبعة الثانية، (٢٠٠١م)، (١/ ١٥٥).

(١) ابن تيمية، (**درء تعارض النقل والعقل**)، جامعة الإمام محمد بن سعود، (١٩٩١م)، (٧/ ٢٢٣).

(٢) ابن رشد، (**تهافت التهافت**)، تحقيق: سليمان الدنيا، دار المعارف، القاهرة، (١٩٧٣م)، ص (٧٨٥).

والمنطق منعدمة، فأين هي القاعدة التي يمكن البناء عليها بعد ذلك؟

* فالمنكر لهذه القواعد البديهية يقع - حتمًا - في عدمية لا متناهية، وقد وقع فيها بالفعل العديدُ من الفلاسفة والملاحدة والسوفسطائيين، عدمية لا يمكن استنقاذ صاحبها منها بأي طريقة. لذلك فإنَّ الغزالي عندما وصل إلىٰ هذه المرحلة لم يستنقذه منها إلَّا الهداية الإلهية، كما يقول هو بنفسه: «فأعضل عليَّ الداء، ودام قريبًا من شهرين أنا فيهما علىٰ الضلال، حتىٰ شفاني الله - تعالىٰ - من هذا المرض، وعادت النفس إلىٰ الصحة والاعتدال، ولم يكن ذلك بنظم دليل، ولا بترتيب كلام، بل بنور قذفه الله - تعالىٰ - في الصدر»[1].

وجدير بالذكر أن بعض الناس يزعمون أن ميكانيكا الكمّ (Quantum Mechanics) التي تدرس المجال تحت الذرّي (المجال الكمومي)، الذي تظهر وتختفي فيه جسيمات افتراضية بدون سبب ظاهر، يزعم البعض أن هذا المجال قد نقض قانون السببية وخرقه، بسبب زعم بعض الفيزيائيين أن الجزيئيات قد تتواجد في موضعين في آنٍ واحد، وهو ما يُعدّ خرقًا لواحدة من البدهيات الأولية، ومن ثمّ فإن البدهيات مثلها كمثل بقية المعارف قابلة للنقد والنظر والتشكيك، وعليه؛ فإن قانون السببية - البدهي - ليس قانونًا ثابتًا ولا يمكن الاستدلال به علىٰ صحة شيء أو بطلانه.

ولكن باستقراء المسألة يتبيّن أن انتفاء السببية في عالم تحت الذرة هو

---

(١) أبو حامد الغزالي، (المنقذ من الضلال)، تحقيق: سعد الكريم الفقي، دار ابن خلدون، الإسكندرية، ص (٦٤).

مجرّد دعوىٰ عمياء لفريق معين من العلماء، وليس بقول نهائي في المسألة ولا هو محل إجماع، فثمّة تفسيرات عدّة تحاول فهم المجال الكمومي، ولعلّ أشهر تفسيرين للعالم الكمومي هما تفسير نيلز بور وهايزنبرج المسمىٰ بتفسير مدرسة كوبنهاجن (Copenhagen Interpretation) وهو الذي يدّعي نفي مبدأ السببية من خلال القول أن الجسيمات تتواجد في مكانين في وقتٍ واحد طالما لم نرصدها، فإذا رصدناها ظهرت في مكانٍ واحد فقط، والتفسير الآخر هو التفسير المشهور بتفسير ديفيد بوم (David Bohm) والذي يقول بوجود متغيّرات لم تصل قدرتنا وآلاتنا القياسية إلىٰ رصدها بعد بسبب ضعف وسائلنا العلمية، وهذه المتغيّرات المجهولة هي التي تتحكم في سلوك المجال الكمومي بشكل سببي طبيعي شأنها كشأن نسق الكون كله.

وقد كان تفسير مدرسة كوبنهاجن سائدًا منذ ظهوره في أوائل القرن العشرين - رغم أن عالم الفيزياء الشهير أينشتاين عارضه بشدة وقال جملته الشهيرة بأن الإله لا يلعب بالنرد - وتم إهمال تفسير بوم لفترة، إلا أن تفسير كوبنهاجن بدأ يفقد شعبيته بصورة واضحة بين المتخصصين، وقد نشرت مجلة العالِم الجديد (New Scientist) في العام ٢٠١٦م مقالًا بعنوان (الغموض الكمومي قد يخفي نظامًا واقعيًا بعد كل شيء)، ذكر أن نظرية ديفيد بوم David Bohm تم «إحيائها من جديد» بعد عدة تجارب تثبت صحّتها[1]، حتىٰ أن بعض الإحصائيات تبيّن أن العلماء المؤمنين بتفسير بوم

(1) https://www.newscientist.com/article/2078251-quantum-weirdness-may-hide-an-orderly-reality-after-all/

يصل عددهم إلىٰ أضعاف العلماء المؤمنين بتفسير مدرسة كوبنهاجن[1].

بل أن جلّ من يختارون تفسير كوبنهاجن إنما يختارونه بسبب مبررات فلسفية لا علمية، وعلىٰ أساس حدسي لا يقيني، «فالنزعة الإلحادية اليوم علىٰ توظيف فيزياء الكمّ علىٰ نحو لا يخلو من غرض أيديولوجي؛ حيث تقتطع هذه النزعة فرضية محايثة الصدفة للوجود، فتزعم نفي النظام، لتنتهي إلىٰ نفي الألوهية. هذا باختصار هو المسلك المنهجي الذي يشتغل به أحدث تقليعات الفكر الإلحادي اليوم الزاعم أنه مدرك لمعطيات العلم ومستوعب لراهن تحولاته، مع أنه يوظف هذه المعطيات علىٰ نحو لم يخطر حتىٰ علىٰ بال مبدعيها ومؤسسيها الكبار»[2].

فهذا العالم تحت الذرّي من الغموض والصعوبة علىٰ الملاحظة بحيث لا يظهر تفسير لهذا العالم إلا ويعقبه تفسير آخر في فترة زمنية قصيرة تصل إلىٰ الأسبوع الواحد! ناهيك عن الصعوبة التجريبية الشديدة جدًا في إثبات أيٍّ من التفسيرات. وعليه، فإن القول باختفاء السببية في العالم الكمومي هو مجرد رأي ظني لفريق من العلماء ولا تدعمه الأدلة التجريبية إطلاقًا، فلا يصح إذن الاحتجاج به، بل إنه بالتحقيق رأيٌ غلط، ولا داع للاطراد أكثر من ذلك في هذه المسألة، فمن أراد التفصيل فيها فلينظر فصل (السببية في عالم الكمّ) من

(1) Travis Norsen & Sarah Nelson, Yet Another Snapshot of Foundational Attitudes Towards Quantum Mechanics, arXiv:1306.4646v2 [quant-ph] 20 Jun 2013.

(٢) الطيب بو عزة، (في نقد التوظيف الإلحادي لمعطيات العلم)، مجلة براهين، العدد الثالث، أغسطس (٢٠١٤م)، ص (١٣).

كتاب د. سامي عامري (فمن خلق الله: نقد الشبهة الإلحادية: «إذا كان لكل مخلوق خالق، فمن إذن خلق الله؟!» في ضوء التحقيق الفلسفي والنقد الكوسمولوجي) ففيه إفادة كبيرة إن شاء الله.

وبالجملة، فإن البدهيّات العقلية الأولية وعلىٰ رأسها مبدأ السببية هي نقطة انطلاقنا في نقاشنا حول المسائل.

- المُسلَّمة الثانية: هي أنَّنا هنا بالفعل، بمعنىٰ أنَّنا إذا كنا نتساءل (لماذا نحن هنا؟) فإنَّنا نُقرِّر أمرًا مسبقًا أنَّنا (هنا) بالفعل، أي إنَّ وجودنا هو وجودٌ حقيقيٌ مدرَك، وعلىٰ ما في هذا الأمر من بداهة، إلَّا أنَّ الانحراف عن الوحي وعن النور الإلهي يُؤدِّي بالعقل الإنساني إلىٰ العجائب، فقد قال البعض: إنَّنا ليس لنا وجود، وإنَّنا مجرد أوهام غير حقيقية. وممَّن خاضوا في هذا الجدل الشكوكي الفيلسوف (رينيه ديكارت)، حيث كان يطمح في الوصول إلىٰ معرفة للحقيقة بشكل يقيني، فشكَّ في حقيقة الموجودات شيئًا فشيئًا، حتىٰ وصل الشكُّ عنده إلىٰ الشكِّ في وجوده أصلًا، لكنَّه استدرك حقيقة وجوده من حقيقة أنَّه يمتلك قدرة علىٰ التساؤل والتفكير والتجاوز والتحليل والتركيب، أي من خلال إدراكه لذاته، فقال عبارته المشهورة: «أنا أشكُّ إذن أنا موجود». وعلىٰ ما في هذه المُسلَّمة من بداهة؛ إلَّا أنَّ بعض أصحاب الجدل لا يُسلِّمون بها وينفون حقيقة وجودنا كذوات واعية في هذا العالم.

ثم نقول: بما أننا بشر واعون وقادرون علىٰ التعقّل، فإن تحصيل المعرفة أمرٌ ممكن، سواء بالحس أو بالعقل أو بغيرهما من مصادر المعرفة،

والموجودات يمكن إدراكها بالحس ويمكن إدراكها بغيره، وبما أن القضايا الوجودية التي نتناولها هي خارجة عن الحس، فإننا نقول: إن عدم وقوعها تحت ظلال الحسّ لا يعني بالضرورة بطلان وجودها، لأن عدم إحساسنا بالشيء لا يعني عدم وجوده، فنحن يمكننا إدراك بعض المسائل أو الموجودات حتىٰ لو غابت عن الحس، عن طريق الخبر اليقيني أو عن طريق الاستدلال العقلي أو غير ذلك، وفي ذلك يقول عبد الله بن صالح العجيري تعليقًا علىٰ كلام للإمام الغزالي ﷺ: «وعليه فإننا يمكننا القول بأن صلة الموجودات بالمعرفة والإدراك البشري يكون علىٰ ثلاث مستويات:

الأول: موجودات يمكن تحصيل المعرفة بها عن طريق الحس المباشر.

الثاني: موجودات غير واقعة تحت الحس المباشر، مع إمكان العلم بها عن طريق آثارها فيكون للعقل تعلق بإدراكها، ويكون تحصيل العلم بها مركبًا من الحس والعقل.

الثالث: موجودات غير واقعة تحت الحس المباشر، وليس للعقل مدخل في معرفتها لا عن طريق أثر تلك الموجودات ولا بقياسها علىٰ موجود آخر، فهذه الموجودات إن لم يردنا من جهة الخبر الصادق ما يكشف عن وجودها، فليس ثمة سبيل إلىٰ إدراك هذا الوجود أو العلم به.

وقد اصطلح علىٰ تسمية المرتبة الأولىٰ بالمحسوسات، والثانية بالمعقولات، والثالثة بالسمعيات.

وإذا تأمّلنا حالنا ومعرفتنا بخالقنا تعالىٰ فإن ما يتصل بإدراكه - سبحانه - قد يكون عائدًا إلىٰ المرتبة الثانية أو الثالثة. فإثبات وجود الله تعالىٰ وأصول

كمالاته سبحانه مدركة بالعقل [أي من المعقولات]، وله ﷻ من الكمالات التي يقف عاجزًا عن إدراكها، ولا سبيل لمعرفتها إلا عن طريق الوحي [أي من السمعيات]»[1].

يقول الدكتور عبد الله الشهري: «ويجب أن نعي أن هناك فرقٌ بالنسبة للمرء بين ما يحصّله العقل من علم صحيح عن الخالق قبل التعرف علىٰ الوحي، وبين ما حصله من ذلك بعد التعرف علىٰ الوحي.. فإن النظر الصحيح لآثار صنعه يوصل إلىٰ اتصاف الخالق ببعض صفاته، وهذا بخلاف مما وراء ذلك مما لا سبيل إلىٰ القطع به أو حتىٰ الوقوف عليه بالنظر العقلي المجرّد، كصفة المجيء والاستواء والنزول وغير ذلك، فإن هذا مما لا يستقلّ العقل بإيجابه، خلافًا لصفة العلم مثلًا، فإنها مما يمكن أن يستقل العلم بإيجابه من غير وحي، وقد حدث هذا لكثير من العقول التي لم تعرف الوحي، ولذلك يقول ابن تيمية مثلًا: «فأما علوّه ومباينته للمخلوقات فيُعلم بالعقل الموافق للسمع [أي للوحي]، وأما الاستواء علىٰ العرش فطريق العلم به هو السمع»[2]، فالقول بأن إمكان العلم بالخالق ممتنع عقلًا هو قول باطل عقلًا وباطل واقعًا»[3].

---

(١) عبد الله بن صالح العجيري، (شموع النهار: إطلالة علىٰ الجدل الديني الإلحادي المعاصر في مسألة الوجود الإلهي)، مركز تكوين، لندن، (٢٠١٦م)، ص (٩٤).

(٢) ابن تيمية، (التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع)، تحقيق: محمد بن عودة السعوي، مكتبة العبيكان، الرياض، (٢٠٠٠م)، ص (٨١).

(٣) عبد الله بن سعيد الشهري، (ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان)، مركز نماء، بيروت، (٢٠١٤م)، ص (١٨٦-١٨٧).

- المُسلَّمة الثالثة والأخيرة: هي أنَّ أخصَّ خصائص الإنسان علىٰ الإطلاق ليست في قدرته علىٰ حفظ المعلومات، أو تراكمها، وإنَّما في قدرته علىٰ التجاوز؛ أي إنَّ الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يهتم بالتساؤل عن (لماذا؟)، ولا يكتفي بـ(كيف؟)، وهو ما أطلق عليه الفيلسوف الألماني مارتن هيدجر: «العامل الخالد الأزلي المحدد للوجود الإنساني»[1].

فدراسة الظواهر الطبيعية - مثلًا - لها علم يدرس الخصائص الكيميائية والقوانين الفيزيائية وطبقات الأرض وأعضاء الكائنات الحية وغير ذلك، أمَّا السؤال حول ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا)، وما بعد الموت وحقيقة الحياة، وماهية القيم وطرق اكتساب المعرفة، فهذه مباحث أخرىٰ تتعلَّق بالأديان أو بالفلسفة.

لذا: فإنَّ الأسئلة الوجودية التي تُؤرِّق الإنسان ليست أسئلة مشروعة فحسب، وإنَّما هي أسئلة ضرورية ملازمة للوجود الإنساني؛ لأنَّ هذا القلق الوجودي هو ما يُميِّز الإنسان عن بقية المخلوقات من الأساس، والإنسان ذو البعد الواحد - بتعبير عبد الوهاب المسيري رحمه الله -: هو الذي يرفض الأسئلة الوجودية، ولا يهتم بتجاوز العالم المادي الآني الذي يعيش فيه، فينغلق علىٰ النسق المادي الدنيوي، ولا يعترف إلَّا بالدنيا والملاحظة والحس، ثم يعتبر كل ما دون ذلك من ميتافيزيقا أو تفكير في الموت والوحي ونحو ذلك أمورًا لا تستحق أن نلقي لها بالًا؛ لأنَّها أمور هامشية لا أهمية لها

---

(١) نقلاً عن: علي عزت بيجوفيتش، (الإسلام بين الشرق والغرب)، دار الشروق، مصر، الطبعة الثالثة، (٢٠١٣م)، ص (٧٧).

من الأساس، ولن تُفيدنا في تحديد ماهية ذواتنا وكيفية معيشتنا.

إنَّ هذا النوع من البشر يلغي أهم خصيصة من خصائص وجوده كإنسان بالفعل، ولهذا فإنَّ جيفري لانج[1] يتساءل بإنكار شديد: كيف يمكن سلب صفة القلق الوجودي من الإنسان؟! فيقول: «وأمَّا حقيقة أنَّه - والدي - كان لديه شكوك، فقد بدا ذلك أنَّه أمر طبيعي تمامًا؛ إذ كيف يمكن لرجل عاقل ومنطقي وعقلاني ألَّا تكون لديه شكوك»[2]، ولعل كثير من بني آدم يعتريهم التساؤلات حول مسائل الوجود الكبرىٰ، وهذا أمرٌ طبيعي، وقد نُقل عن الصحابة مثل هذه الوساوس والتساؤلات ولكن بشكل عرضي غير دائم، أما من طغت عليه التساؤلات وظلت تساوره يومـاً وراء يوم، فلا يصحّ أبداً أن تُترك هذه التساؤلات هملاً، أو أن تُدفن تحت ركام الضغط اليومي، بل الواجب أن تُقابل بالبحث عن الإجابات، وبالمبادرة إلىٰ النظر والاستدلال علىٰ صحة العقائد، حتىٰ يستقر أمر الإيمان، كما يقول ابن تيمية في ذكر من أمرهم القرآن الكريم بالنظر: «وهذا موافق لقول من يقول إنه واجب علىٰ من لم يحصل له الإيمان إلا به، بل هو واجب علىٰ كل من لا يؤدي واجبًا إلا به،

---

(١) جيفري لانج، بروفيسور في الرياضيات، وُلد لأسرة مسيحية، ثم تحوَّل إلىٰ الإلحاد في شبابه، ثم اعتنق الإسلام بعد قراءته لترجمة إنجليزية للقرآن، وألَّف كتاب: (Struggle to surrender)، وقد ترجمته وطبعته دار الفكر السورية تحت عنوان (الصراع إلىٰ الإيمان)، ويحكي فيه لانج قصة إيمانه.

(٢) جيفري لانج، (حتىٰ الملائكة تسأل!)، ترجمة: منذر العبسي، دار الفكر، سورية، (٢٠٠١م)، ص (١٦).

وهـذا أصـح الأقـوال»[1]، ويقـول في موضـع آخـر: «**فمـن حـصلت لـه المعرفـة والإيمان.. بغير النظر لم يجب عليه، ومن لم تحصل له المعرفة والإيمان إلا به وجب عليه**»[2].

وعلىٰ عكس جيفـري لانـج والغزالـي وغيرهمـا الكثيـر؛ فإنَّنـا نجـد أنَّ ملاحدة معاصرين كُثر لا يلقـون بـالاً بالـسؤال عـن الغايـة (لـماذا) ويكتفـون بالسؤال عن الكيفية (كيف)، فلا يهتمون إلَّا بالمظاهر المادية فقط، كما يقول الملحد بيتر أتكنز - مثلًا -: «سيدي! الـسؤال بـ(لـماذا) هـو سـؤال سـخيف فحسب»[3]، فما أسخف أولئك الذين يُعطِّلون صفة من أهـم صـفات الإنـسان بدعوىٰ العلم والتقدم! وما أصدق وصف الفيلسوف الألـماني آرثر شوبنهاور عندما قال فيهم: «أولئك الذين لا يُفكِّرون حول طارئ وجودهم هم ناقصون عقليًّا»[4].

ونختم هذه الفقرة باقتبـاس لعبـد الوهـاب المـسيري رحمه الله حيث يقـول: «ولكـنَّ هنـاك جانبًـا آخـر للطبيعـة البـشرية متجـاوزًا للطبيعـة/ المـادة، وغيـر

---

(١) ابن تيمية، (درء تعارض النقل والعقل)، (٨/ ٨).

(٢) المرجع نفسه، (٧/ ٤٠٥).

(٣) محاضرة ألقاها ريتشارد دوكنز في جامعة أوكلاهوما (عام ٢٠٠٩م):
www.youtube.com/watch?v=mT4EWCRfdUg
والملاحظ أنَّ دوكنز خصوصًا دائم التحقير، والتسفيه لكل مَن يُحاول التفكير في سؤال (لماذا؟).

(٤) نقلًا عن الفيلسوف الأمريكي جون هولت، في حديث له علىٰ منصة (TED) بعنوان: (لـماذا الكون موجود؟).
https://www.youtube.com/watch?v=zORUUqJd81M

خاضع لقوانينها، ومقصورًا علىٰ عالَم الإنسان ومرتبطًا بإنسانيته، وهو يُعبِّر عن نفسه من خلال مظاهر عديدة، من بينها: نشاط الإنسان الحضاري (الاجتماع الإنساني، الحس الخلقي، الحس الجمالي، الحس الديني). ومن المظاهر الأخرىٰ لهذا الجانب: أنَّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يطرح تساؤلات عمَّا يُسمَّىٰ العلل الأولىٰ، وهو لا يكتفي بما هو كائن، وبما هو معطىٰ، ولا يرضىٰ بسطح الأشياء، فهو دائم النظر والتدبر والبحث، يغوص وراء الظواهر؛ ليصل للمعاني الكلية الكامنة وراءها، والتي ينسبها إليها، وهو الكائن الوحيد الذي يبحث عن الغرض من وجوده في الكون، وكلها تساؤلات تجد أصلها في البنية النفسية والعقلية للكائن البشري، ولذا سُمِّي الإنسان الحيوان الميتافيزيقي»[1].

من هذه المُسلَّمات الثلاث يُمكننا أن نبدأ في طرح التساؤلات والإجابات مستعينين بالله...

***

(١) عبد الوهاب المسيري، (الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان)، دمشق، دار الفكر، (٢٠٠٢م)، ص (١٢).

الباب الثاني: الوجود الأول...

س: لـماذا نحن هنا؟! هل لوجودنا قيمة؟!

إنَّ السؤال الوجودي المركزي الذي يطرحه العقل البشري هو السؤال عن هدف وجودنا، وإذا أردنا أن نتوصل إلىٰ إجابة صحيحة فعلينا قبل أن نبحث عن علة وجودنا أن ننظر في أصل وجودنا من الأساس، فإذا توصَّلنا لأصل وجودنا استطعنا أن نستنبط منه قيمة وغاية وجودنا، تمامًا كصانع الآلة، فلو افترضنا أنَّنا وجدنا آلة لـم نعرف وظيفتها وجهلنا سبب صنعها، فإنَّنا يُمكننا معرفة العلة الغائية - بتعبير أرسطو[1] - لصناعتها عن طريق الاستفسار من الإنسان الذي صنعها، فالبحث عن أصل الآلة يُؤدِّي بالإنسان إلىٰ معرفة الغرض والغاية التي صُنعت من أجلها الآلة من البداية.

وعليه: فالخطوة الأولىٰ للبحث عن غاية وجودنا هو البحث عن أصلنا، ومن هاهنا نطرح السؤال علىٰ القارئ: ما أصل وجودك؟! الإجابة بسيطة وهي: والدك ووالدتك. والسؤال مرة أخرىٰ: ماذا كان قبل الوالد والوالدة؟ الإجابة هي: الجد والجدة. ويستمر التسلسل إلىٰ آخر السلسلة، حتىٰ ننتهي إلىٰ أول البشر، سيدنا آدم عليه السلام.

---

(١) أندريه لالاند، **(موسوعة لالاند الفلسفية)**، مرجع سابق، (١/ ١٥٦).

والسؤال هنا: ماذا كان قبل آدم؟!

لن نستعرض الآن فكرة التطور، وهل تطور الإنسان من كائنات حية قبله أم إنَّ وجوده كان خلقًا مباشرًا من الله ﷻ، وسنرجئ مناقشة فكرة التطور إلىٰ الفصل الثالث - بإذن الله -. وأيًّا ما كانت الإجابة؛ فإنَّنا نتفق أنَّ الحياة البشرية ليست أول الحيوات ظهورًا، بل سبقها وجود عدة كائنات حية، منها ما هو موجود إلىٰ اليوم، ومنها ما انقرض قبل سنوات عديدة، ومنها ما ظهر وانقرض قبل وجود الإنسان من الأساس.

وسنمارس ذات التسلسل إلىٰ آخره، فماذا كان قبل حياة كائن حي معين؟! وماذا كان قبله وماذا كان قبل ما قبله، إلىٰ آخر السلسلة التي ستنتهي عند أول نقطة زمنية ظهرت فيها الحياة علىٰ كوكب الأرض، وهي نقطة تقريبية لا نستطيع حسابها بشكل دقيق بالطبع؛ للتباين الشديد بين الآن وهذه النقطة التي وقعت منذ مئات الملايين من السنين الماضية، حسبما يذكره العلم الحديث.

وقبل تلك النقطة المُتخيَّلَة لم يكن هناك حياة، فماذا كان قبل الحياة؟ كانت الأرض عبارة عن كتلة صخرية في طور التشكل ككوكب، وقبل نشوء الكتلة الصخرية لكوكب الأرض كان الكون يتشكل ويتمدد ويظهر فيه النجوم وتنفجر وتتجلىٰ الكواكب والمجرات والنجوم، فإذا مارسنا ذات النهج في التسلسل في الرجوع إلىٰ الوراء، فإنَّنا سنصل إلىٰ ما يُفترض أن يكون بداية للكون. **وهنا نجد أنفسنا أمام سؤالين:**

السؤال الأول: كيف بدأ الوجود؟ وما هي بداية الكون؟

والسؤال الثاني: كيف بدأت الحياة؟

س: كيف بدأ الوجود؟ وما هي بداية الكون؟

إنَّ هناك احتمالين لا ثالث لهما بخصوص نشأة الكون:

(١) فإمَّا أن يكون الكون أزليًّا قديمًا، أي لا بداية له.

(٢) وإمَّا أن يكون الكون حادثًا، أي له نقطة بداية ظهر فيها إلىٰ الوجود.

أمَّا القول بأنَّ الكون هو كونٌ أزليٌّ دائمٌ لا بداية له؛ فقد تبنَّىٰ العديد من الفلاسفة والملاحدة منذ عصور فلاسفة اليونان القدامىٰ مرورًا إلىٰ العصور الحديثة هذا الرأي، فزعموا أنَّ الكون قديم أزلي ليس له بداية.

وقد اختلف اليونانيون الأوائل حول أصل العالم الأزلي، فبعضهم قال أنه الماء، وبعضهم قال أنه الهواء، وبعضهم قال أنها مادة لانهائية وغيرمحددة، وبعضهم قال أن العناصر الأربعة (الهواء - الماء - النار - التراب) الأزلية تجتمع بشكل عشوائي لتشكل الكون كما هو عليه الآن[١]، أما في العصور الحديثة، فإن آخر نظرية علمية ادّعت أزلية الكون هي نظرية الحالة المستقرة (Steady state theory)[٢].

---

(١) انظر: مجموعة من المؤلفين، (أطلس الفلسفة)، المكتبة الشرقية، بيروت، (٢٠٠٧م)، ص (٣١).

(٢) نظرية الحالة المستقرة: فرضية بديلة قدّمها الفلكي فريد هويل بالاشتراك مع توماس=

وقد سمّىٰ المسلمون من يقولون بأزلية العالم وإنكار وجود الله بـ(الدهريين) نسبة إلىٰ الآية ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ (الجاثية: ٢٤)، ولكن عندما وفدت الفلسفة اليونانية إلىٰ ديار المسلمين تبنىٰ عددٌ من المسلمين القول بقدم العالم - أي أزليته - فتمّ تصنيف المصنفات وإقامة المناظرات للرد علىٰ هذا القول بالأدلة العقلية والكلامية، «فكان الجدل محتدمًا جدًا في التاريخ الفلسفي والكلامي، ويكفي أن تدرك أن أبي حامد الغزالي خصص قرابة ثلثي كتابه الشهير (تهافت الفلاسفة) في معالجة هذه القضية وتقديم الاعتراضات الكلامية علىٰ القائلين بقدم العالم من الفلاسفة. إضافة إلىٰ تقريرات مطوّلة جدًا في كلام ابن تيمية في (منهاج السنة) و(درء التعارض) و(بيان تلبيس الجهمية) و(مسألة حدوث العالم).. وغيرها»[1].

هذا بالنسبة للجدل الكلامي حول المسألة، أمَّا الجدل العلمي المتمثل

=جولد وهيرمن بوندي عوضًا عن فرضية الانفجار الكبير، وظلّ هويل وفيًا للنظرية منذ لحظة إطلاقه له في ١٩٤٨م حتىٰ وفاته عام ٢٠٠١م، وتقول النظرية بأن المجرات تتباعد عن بعضها البعض دون الاعتراف ببداية للكون بل بنشوء المادة من العدم في الفراغات بين المجرات، وقد علّق الفيزيائي الحائز علىٰ جائزة نوبل ستيفن واينبرج علىٰ هذه النظرية بقوله: «إن هذه النظرية - فلسفيًا - هي الأكثر جاذبية، لأنها الأقل شبهًا بما جاء في سفر التكوين»، فالدافع الرئيس لابتداع هذه النظرية كان رفض الاعتراف ببداية للكون، لما في ذلك من انتصار للمؤلهين علىٰ حساب الملاحدة، انظر: عبد الله بن صالح العجيري، (شموع النهار)، مرجع سابق، ص (١٢٨).

(١) المرجع نفسه، ص (١١٢).

أخيـرًا في نظريـة الحالـة المستقرة، فلـم تعـد هـذه النظريـة مقبولـة علميًـا، واستبعدها المجتمع العلمي برمته كنموذج تفسيري[1]، لذا فإنَّه لا حاجة لنا في بسط الرد علىٰ القول بأزلية وقدم الكون؛ لأنَّه في أيامنا هذه صار القول بأزليـة الكون قولًا باهتًا لـم يعد أحد يُذكر يتبناه، يقول الدكتور جعفر شيخ إدريس: «فبعض الملحدين يَسبحون - باسم العلـم - في خيـالات مـا أنـزل الله بهـا مـن سلطان، إنهم يتخيلون - أو كانوا يتخيلون قبل مقدم نظرية الانفجار العظيم - أنـه كانـت هنالـك ذرّات سـابحة في الفـضاء، ذرّات أزليـة لـم يخلقهـا إلـه ولـم يحرّكها محرك، كل ذرة فيها هائمةٌ علىٰ وجههـا لا تـسير إلىٰ غايـة مقـصودة، لكنها في هيامها هذا تلتقي بذرةٍ أخرىٰ، ومـن هـذا اللقـاء تكونـت الجزئيـات، ومن الجزئيات تتكون العناصر، وهكذا. وهذه الخيالات ينطبق عليها ما قالـه الغزالـي بعـد أن فـرغ مـن تقريـر نظريـة (أفلـوطين) في الفـيض: مـا ذكرتـوه تحكمات، وهو علىٰ التحقيق ظلمات فوق ظلمات، لـو حكاهـا الإنـسان عـن منامٍ رآه، لاستدلّ به علىٰ سوء مزاجه»[2].

فمنذ عام ١٩٦٦م، وبعد ملاحظات علمية عديـدة[3]، صـار هنـاك اعتقـاد شبه جازم بأنَّ الكون له بدايةٌ حدثت مع الانفجار العظيم (Big Bang) الذي

---

(1) William Craig, Kalam Cosmological Argument, Macmillan Press, London, 1979, P. 113.

(٢) جعفر شيخ إدريس، (الفيزياء ووجود الخالق: مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيـائيين والفلاسفة الغربيين)، مجلة البيان، السعودية، (٢٠٠١م)، ص (٨١).

(3) Rupert Sheldrake, The science delusion: Freeing the spirit of enquiry, Hodder&Stoughton, London, 2012, P. 35.

نشأ خلاله الكون كله مع انفجار المفردة الأولىٰ (Initial Singularity) التي احتوت علىٰ كل الطاقة والمادة الموجودة في الكون الآن، وحجم هذه المفردة لا يُتصور، فهي متناهية الصغر لا حجم لها في الطبيعة وذات طاقة هائلة لا نهائية لا يُمكن حسابها، بل إنَّ قوانين الطبيعة كما نعرفها الآن تندثر تمامًا عند لحظة ظهور وانفجار المفردة، «**فالمفردة لا تمثّل مفهومًا فيزيائيًا، لأنها لا يمكن تكييفها عبر نظرية فيزيائية. إنها نقطة تختفي عندها النظريات الفيزيائية**»[1].

وقد درس الفيزيائيان أدري مثاني (Audrey Mithany) وألكسندر فلنكن (Alexander Vilenkin) في بحث بعنوان (هل للكون بداية) في عام ٢٠١٢م ثلاثة نماذج مطروحة لنشوء الكون تحاول جميعها التهّرب من فكرة وجود بداية للكون، فقالا: «لقد تعرضنا هنا إلىٰ ثلاثة سيناريوهات يبدو أنها تعرض لطريق يتفادىٰ البداية، ووجدنا في الواقع أنه ليس منها ما بإمكانه أن يكون بلا بداية في الماضي»[2].

وقد انفجرت هذه المفردة منذ حوالي (١٣.٧ مليار سنة) هي عمر الكون منذ بداية ظهوره حتىٰ الآن، وانفجارها حدث بعد ظهورها، وفي خلال أجزاء صغيرة جدًّا من الثانية [يقدرها بعض العلماء إلىٰ ١٠ أس سالب ٣٦

---

(1) David Berlinski: The Devil's Delusion: Atheism and It's Scientific Pretensions, Basic Books, 2009, P. 81.

(٢) سامي عامري، (**فمن خلق الله: نقد الشبهة الإلحادية: «إذا كان لكل مخلوق خالق، فمن إذن خلق الله؟!» في ضوء التحقيق الفلسفي والنقد الكوسمولوجي**)، مركز تكوين، لندن، (٢٠١٦م)، ص (١٢١).

جزء من الثانية، وهي ما يُسمىٰ بفترة التضخم (Inflation)] في درجة حرارة تصل إلىٰ (١٠ تريليون درجة مئوية)، نشأت الكواركات (Quarks)، وبدأت تشكل النيوترونات والبروتونات، ثم تلتها بعد ثوانٍ معدودة تكوين الإلكترونات والذرات، ثم تكونت العناصر الكيميائية البسيطة، كل هذا في هذه الفترة الزمنية التي لا تكاد تُعقل من الأساس، وبعد فترة التضخم تتابع تشكل وانفجارات النجوم، ونشوء العناصر الكيميائية الأخرىٰ جراء انفجارات النجوم.

ومنذ الاكتشاف العلمي في العشرينات من القرن الفائت لدلائل وآثار الانفجار العظيم، حاول كثير من العلماء دحض هذا النموذج لنشوء الكون، إلَّا أنَّ جميع المحاولات باءت بالفشل، وصار نموذج **الانفجار العظيم** هو النموذج المقرّر والمقبول عند أغلب العلماء - حتىٰ الملاحدة منهم - لنشوء الكون منذ الألفينات، وجدير بالذكر أنَّه منذ لحظة **الانفجار العظيم** والكون ما زال في توسع مستمر لا يتوقف، وهناك عدة نظريات تقول: إنَّ الكون سيموت حراريًّا، وستتوقف فيه قوىٰ الطرد لتساوي بين الأجرام السماوية، فيتوقف التمدد، ويبدأ الفضاء الكوني في الانكماش علىٰ نفسه، حتىٰ يتلاشىٰ تمامًا من الوجود[1].

وقد كانت المفردة بعد أن لم تكن؛ أي أنَّ وجودها حادثٌ غير مسبوق

---

(١) للاستزادة حول نظرية الانفجار العظيم ونشوء الكون، انظر: محمد باسل الطائي، (صيرورة الكون: مدارج العلم ومعارج الإيمان)، و:

Stephen Hawking, A brief history of time, Bantame press, London, 1988.

بأي شيء، أي إنَّ المفردة سبقها العدم، والعدم ليس هو الفضاء الخارجي كما يتخيَّل البعض، فالفضاء المعروف يحتوي علىٰ طاقة، وربما بعض الغازات والعناصر الكيميائية والمواد أيضًا، أمَّا العدم فهو غياب الطاقة، وغياب المادة، وغياب الزمان والمكان، وغياب كل شيء، هو اللَّا شيء حرفيًّا.

يقول الفيزيائي الأمريكي هاينز باجلز (Heinz Pagels): «**فالعدم (قبل) خلق الكون هو أتم فراغ يمكننا تخيله، لا مكان، ولا زمان، ولا مادة موجودة، إنه عالم دون موضع، ودون مدة أو أزل، ودون عدد**»[1].

وقبل أن نستكمل رحلة تساؤلاتنا، سنستعرض أوَّلًا بعض النظريات التي حاولت إعادة تدوير فكرة أزلية الكون، ولكن بتزيين القول هذه المرة بالمصطلحات والشهادات العلمية، ومن أهم هذه النظريات:

(١) نظرية الأكوان المتعددة (Multiverse theory):

تنتشر هذه النظرية في الأوساط الإلحادية ويعتنقها كثير من الملاحدة، ومن أشهر مروجيها الفيزيائي المرموق ستيفن هوكنج، تقول النظرية إنَّه يوجد عددٌ كبير جدًا ربما يصل إلىٰ اللا نهائية من الأكوان، بجانب الكون الذي نعيش فيه، وكل كون من هذه الأكوان يشكِّل (فقاعة كونية) تنشأ بسبب انفجار المفردة الخاصة بها، واصطدام هذا الفقاعات يتسبب في الانفجارات

(1) Heinz Pagels, Perfect Symmetry: The Search for The Beginning of Time, New York, Bantam Books, 1985, P. 365.

التي تنشأ الأكوان، وعند كل انفجار تظهر قوانين فيزيائية عشوائية داخل كل كون على حدة، وهذه القوانين يمكنها أن تنتج حياة ويمكنها ألَّا تنتج؛ وبالتالي: فإنَّ احتمالية نشوء كون ذي قوانين فيزيائية تلائم وجودنا بالضبط وتمهد الطريق لظهور حياة البشر هي احتمالية ممكنة وسط الاحتمالات اللَّا نهائية بداخل هذه الأكوان المتعددة؛ وعليه فلا داعي إذن للقول بوجود إله خلق المفردة من العدم، إذ إن الفقاعات الكونية تتكفل بهذه المهمة.

ويستدل معتنقو هذه النظرية بعدة دلائل متوهمة لإثبات صحة النظرية، فعلى سبيل المثال تذكر الكاتبة أماندا جفتر (Amanda Gefter): «ثمة أسباب كثيرة للنظر إلى الأكوان المتعددة بجدية، يوجد ثلاث نظريات مفتاحية: الميكانيكا الكمِّية، والتضخم الكوني، ونظرية الأوتار. كل ذلك يتقارب مع النظرية»[1].

وعلى ما في هذا القول من جاذبية خيالية ونقاشات علمية عديدة، لكن الحقيقة أنَّ الدلائل التي أوردتها أماندا لا تُعدّ في ميزان البحث العلمي دليلًا على الإطلاق، فما الذي يثبته التضخم الكوني؟ وكيف يستدل بحدث في كوننا على حدث آخر في كون آخر؟! إنَّ التضخم الكوني لا يعدو كونه محاولة علمية لتفسير ما حدث بعد الانفجار العظيم، فبأي وجه يتم الاستدلال به على وجود أكوان أخرى؟! هذا تدليسٌ علميٌّ محض.

أمَّا الميكانيكا الكمِّية (Quantum Mechanics)؛ فمعلومٌ أنَّها مجموعة

---

(1) Amanda Gefter, Why it's not as simple as God VS The multiverse, New Scientist, 2685, 6 December 2008 P. 48.

من القوانين التي تحكم كوننا المغلق، وإذا كانت نظرية الأكوان المتعددة تقول بتعدد الأكوان واختلاف القوانين في كل كون عن الآخر، فكيف يُستدل بقوانين موجودة في كوننا علىٰ وجود أكوان أخرىٰ؟! بل ما أدرانا أصلًا بوجود الجزيئات تحت الذرية، بل الذرة نفسها في الأكوان الأخرىٰ حتىٰ نقيس عليها؟! مرة أخرىٰ نعود للمغالطات المنطقية والقياس الفاسد.

أمّا نظرية الأوتار (String theory) فهي أعجب من أن نقيم لها ردًّا، إذ إنها تدَّعي أنَّ الأوتار هي أصغر جسيمات تحت كمومية يمكن تواجدها في الكون، إلَّا أنَّنا لم نكتشفها بعد! ورغم جهلنا التام بأي شيء حول هذه الأوتار المزعومة، فإنَّ أماندا - وغيرها من العلماء - تُصرِّح بكل ثقة بأنَّ هذه الأوتار هي التي تربط بين جميع هذه الأكوان المتعددة بسبب وجودها في أبعاد كثيرة في نفس الوقت! وهاهنا نقطة مهمة؛ إذ إنَّ أصحاب هذه النظرية يقولون: إنَّ الأوتار - إذا صح وجودها من الأساس - تقع في أبعاد تتجاوز الأبعاد الأربعة التي تعبر عن الزمان والمكان في كوننا، وتصل الأبعاد التي تتواجد فيها الأوتار في تخمين بعض العلماء إلىٰ تسعة أو حتىٰ عشرة أبعاد[1]، بل أن هناك بعض العلماء يفترضون أنها تقع في ستٍّ وعشرين بعدًا[2]، وبسبب هذه المعضلة الوجودية فإنَّ الأوتار ببساطة لا يمكن ملاحظتها أو تجربتها أو حتىٰ إثبات

---

(1) Brian Greene, The Elegant Universe: Super - strings, Hidden Dimensions and the Quest for the Ultimate Theory, Vintage Books, New York, 1999, P. 201-204.

ويقفز بعض الملاحدة قفزة أبعد من ذلك فيقولون أنهم في طريقهم لتوحيد جميع نظريات الأوتار تحت إطار نظري واحد فيما يُعرف بـ (نظرية إم) (M Theory).

(2) David Berlinski, The Devil's Delusion: Atheism and It's Scientific Pretensions, Basic Books, 2009, P. 118.

خطئها، بل لا يمكن تخيلها أصلًا! أي إنَّها تقع في خانة (الغيب)، وليست في خانة (العلم)، وهو ما دفع الفيزيائي الأمريكي ديفيد جروس (David Gross) الحائز علىٰ جائزة نوبل لأنَّ يُصرِّح بكل وضوح في أحد المؤتمرات متحدثًا عن نظرية الأوتار قائلًا: «نحن لا نعلم عن ماذا نتحدث»[1].

وبسبب استحالة شهودنا للأوتار حتىٰ لو كانت موجودة بالفعل؛ فإنَّ الفيزيائي النظري دانيل فريدان (Daniel Friedan) الذي كان متحمسًا لنظرية الأوتار في الثمانينات من القرن الماضي يلخِّص مشكلة نظرية الأوتار عند اعترافه قائلًا: «نظرية الأوتار لا تستطيع تقديم أية تفسيرات محددة لمعرفتنا الحالية بالكون، كما أنَّها لا يمكن تقييمها، نظرية الأوتار لا تمتلك أي مصداقية كنظرية فيزيائية مرشحة»[2].

وخلاصة ما سبق؛ أنَّ الناظر إلىٰ نظرية الأكوان المتعددة يجد أنَّها في الحقيقة ليست قولًا علميًّا، بل هو قولٌ باطل علميًّا لا يصحُّ عقلًا الاستدلال به كدليل علىٰ ظهور المفردة من العدم، فبعيدًا عن أنَّ هذا الطرح صاغ الفكرة القديمة القائلة بأزلية المادة ولكن بشكل مُنمَّق لا أكثر، إلَّا أنَّه من المعلوم أنَّ كُلَّ كلام خارج نسقنا الكوني هو كلامٌ عن (غيب) غير ممكن شهوده أو قياسه أو اختباره أو إثبات خطئه أو صحته؛ بالتالي يصبح أي حديث عن الأكوان المتعددة أو غير ذلك من الخرافات إنَّما هو حديث عن (إيمان) وليس (علم).

فالإيمان هو التصديق بالغيب، أو بما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا)، أمَّا

---

(1) The Last Word, 'Strings and M - theory are based on little more than fancy maths and a grab - bag of ideas', BBC Focus, P. 98, May 2006.

(2) Daniel Friedan, A Tentative Theory of Large Distance Physics, arXiv:hep-th/0204131v1, 17 April 2002, P. 6.

العلم فلا بُدَّ أن يخضع للرصد والتجريب حتىٰ يمكن إثباته، فقبول النظرية العلمية يتوقف علىٰ مدىٰ قابليتها للاختبار (Testability)، وقابليتها للتخطئة (Falsifiablility)، وكل الافتراضات التي لا يمكن إخضاعها للتجريب فهي افتراضات لا تمتلك أية قيمة علمية علىٰ الإطلاق[1]، وبما أنَّ نظرية الأكوان المتعددة يستحيل تجريبها أو قياسها أو حتىٰ إثبات خطئها بأي شكل من الأشكال؛ فهي إذن إيمان يتطلب التسليم وليست علم يتطلب الدليل. لذلك يقول فيلسوف العلم بجامعة كاليفورنيا كريج كاندلر (Craig Callendar): «**إنَّ نظرية الأكوان المتعددة التي يؤمن بها هوكنج ستظل حدسًا محكوم عليه أبدًا بعدم القابلية للاختبار**»[2].

وبسبب عدم (علمية) هذا الافتراض المتوهم؛ فإنَّ الفيلسوف ريتشارد سوينبيرن (Richard Swinburne) أستاذ الفلسفة بجامعة أكسفورد يستنكر هذا القول الميتافيزيقي فيقول: «إنَّ نظرية الأكوان المتعددة تمثل قمة اللاعقلانية»[3]. كما يوافقه جون بولكنجهورن (John Polkinghorne) أحد أبرز علماء الفيزياء النظرية بقوله: «إنَّها - الأكوان المتعددة - ليست فيزياء، **إنَّها في أحسن الأحوال فكرة ميتافيزيقية**، ولا يوجد سببٌ علميٌ واحدٌ للإيمان بمجموعة من الأكوان المتعددة»[4].

---

(1) Carl Sagan, The Demon-Haunted World, Headline book publishing, London, 1997, P. 198.
(2) https://www.newscientist.com/blogs/culturelab/2010/09/stephen - hawking - says - theres - no - theory - of - everything.html
(3) Richard Swinburne, The existence of God, Oxford university press, USA, 2004, P. 165.
(4) John Polkinghorne, One World: The interaction of Science and Theology, Templeton Foundation Press, USA, 2007, P. 95.

ونذكر هاهنا قاعدة تأسيسية، فلا يُمكن الاستدلال بشيء غائب علىٰ شيء غائب (كالاستدلال بأكوان خارج كوننا علىٰ عدم وجود إله)، وإنَّما الاستدلال المقبول يكون بشيء حاضر علىٰ شيء غائب (كالاستدلال بالوحي علىٰ صحة الرسالة).

لكن لماذا يصرُّ البعض علىٰ الإيمان بفكرة الأكوان المتعددة؟! الإجابة ببساطة: لأنَّ البديل الوحيد للأكوان المتعددة هو إثبات وجود الله كخالق للكون، كما تعترف بذلك أماندا جفتر نفسها فتقول: «إذا لم تنجح هذه النظرية، فخيارنا الوحيد هو خارق للطبيعة والتخلي عن العلم نفسه»[1].

(٢) نظرية الكون المتأرجح (Oscillating universe):

تتشابه هذه النظرية مع نظرية الأكوان المتعددة في تهرُّبها من مجال العلم إلىٰ مجال الميتافيزيقا، فتقترح أنَّ الكون كما هو الآن يتجه للانكماش ممَّا سيؤدي إلىٰ تجمع الحرارة والطاقة بشكل مكثف شيئًا فشيئًا، حتىٰ يأتي وقت تنكمش فيه كل طاقة الكون ومادته إلىٰ مفردة صغيرة وكثيفة للغاية، ممَّا يدفعها إلىٰ الانفجار مرة أخرىٰ لتحدث انفجارًا عظيمًا آخر، منتجة بذلك قوانين طبيعية عشوائية، ثم تشرع كتلة الكون ومادته في الانكماش مرة أخرىٰ، وهكذا يستمر الحال إلىٰ ما لانهاية، وفي كل مرة تتفجر فيها المفردة تنشأ قوانين فيزيائية مختلفة، وما نحن إلَّا نتيجة محظوظة لانفجار أحد هذه الانفجارات للمفردة،

---

(1) Amanda Gefter - Why it's not as simple as God VS The multiverse, New Scientist, 6 December 2008, 2685, P. 48.

والفضل يرجع إلىٰ القوانين الفيزيائية التي ظهرت بشكل عشوائي لتلائم وجودنا بالضبط وسط العدد اللّانهائي من الاحتمالات للتفجيرات.

وبغضّ النظر عن أنَّ هذه النظرية لم تقدم إجابات حول ماهية المفردة الأولىٰ أو كيفية ظهورها أو سبب انفجارها، إلّا أنّنا نجد أنَّها - كسابقتها - تتعدىٰ حدود العلم لتقفز إلىٰ مجال الميتافزيقا، فلا يمكن اختبار ما هو سابقٌ علىٰ كوننا (أي ما قبل انفجار/ وجود المفردة)، ولا يُمكن التكهن بما سيحدث بعد انكماش كوننا، وعليه فإنَّ هذه النظرية غير علمية بالأساس.

لكن علىٰ أية حال؛ فقد تمَّ إهمال هذه النظرية لسببين، **الأول:** هو السبب العلمي؛ إذ إنَّ مقدار الكتلة في الكون لا يكفي لانهياره، أي لعودته إلىٰ مفردة متناهية في العصر، وذلك بسبب تدافع قوىٰ الجاذبية التي ستمنع تجمُّع جميع كتلة الكون في مفردة واحدة ممَّا يسقط النظرية بالكلية[1]، أضف إلىٰ ذلك أنَّ نظرية الكون المتأرجح تفترض قدم المادة، أي أزلية المفردة التي تنشأ هذه الأكوان، وهو ما يمنعه القانون الثاني للديناميكا الحرارية الذي يقول بأنَّ أي نظام مغلق يجنح إلىٰ الفوضىٰ والعشوائية وتنفد طاقته القابلة للاستخدام بمرور الوقت، ممَّا يعني ببساطة أنَّه لا يمكن لشيء يتآكل ويذبل أن يكون أزليًّا[2]. وهو ما دفع الأوساط العلمية إلىٰ إهمال النظرية تمامًا. **أمَّا السبب الثاني لرفض النظرية،** فهو السبب العقلي؛ إذ إنَّ قِدم المادة ليس قولًا عقلانيًّا، لأنَّ قدم المادة يستلزم التسلسل، والمراد بالتسلسل: «ترتب أمور

---

(1) Mark Eastman & Chuck Missler, The Creator Beyond Space and Time, Word For Today, USA, 1996, P. 13, 18 - 23.

(2) Daniel Schmidt, String theory and the origin of the universe: New idea Old problem, Journal of creation 18(2), August 2004, P. 14.

علىٰ أمور إلىٰ غير نهاية»[1]، والتسلسل اللَّانهائي ممتنع منطقيًا وعلميًا، وسنأتي لمزيد بيان حول هذه النقطة بعد قليل بإذن الله.

وجدير بالذكر أن نظرية الكون المتأرجح اكتسبت زخمها بعد سقوط نظرية الحالة المستقرة (Steady state theory)كنموذج لتفسير الكون[2]، وكلاهما لم يُبتدعا إلا لتجنب القول بوجود بداية للكون، كما يوضح الكاتب البريطاني جون جريبن (John Gribbin): «أكبر إشكال في نظرية الانفجار الكبير لأصل الكون هو إشكال فلسفي، بل قد يكون لاهوتيًا، ما الذي كان هناك قبل الانفجار؟ **هذا الإشكال وحده كان كفيلًا لإعطاء نظرية الحالة المستقرة دفعة حماس أولية**، لكن للأسف بوجود التعارض بين هذه النظرية [الحالة المستقرة] وطبيعة الملاحظات المرصودة، فإن الطريق الأفضل للالتفاف حول هذه المشكلة هو نموذج يكون الكون فيه متمددًا من مفردة لينهار علىٰ نفسه مرة أخرىٰ ويعاود دورته بشكل لا نهائي»[3].

(٣) نظرية تذبذب الفراغ الكمِّي (Quantum vacuum fluctuations):

والتي كانت - ولا تزال - من أشهر نظريات نشوء الكون التي يروج لها الملاحدة وعلىٰ رأسهم لورنس كراوس (Lawrence Krauss) الذي ألَّف

---

(١) قطب الدين الرازي، (تحرير القواعد المنطقية في شرح الرسالة الشمسية)، مطبعة مصطفىٰ السبابي الحلبي، مصر، (١٩٤٨م)، ص (١٤).

(٢) سنتحدث عن هذه النظرية بعد قليل إن شاء الله.

(3) William Craig, Kalam Cosmological Argument, Macmillan Press, London, 1979, P. 122.

حولها كتابه المشهور (**كون من لا شيء: لماذا هناك شيء بدلًا من لا شيء؟**) (A universe from nothing: Why there is something rather than nothing?)،

تقول هذه النظرية: إنَّ الفيزيائيين اكتشفوا أنَّ الجسيمات تحت الذرية تظهر وتختفي تلقائيًا في الفراغ الكمِّي بشكل مستمر ممَّا يحدث تغييرًا في الطاقة الموجودة في نقطة ما في هذا الفراغ، وبالتالي يمكن أن يكون هذا الكون كله نشأ من العدم كما تنشأ هذه الجسيمات في الفراغ الكمِّي وتختفي تلقائيًا.

المشكلة في هذه النظرية أنَّها تمارس تضليلًا علميًّا مُتعمَّدًا؛ فالفراغ الكمّي المتعلق بالجسيمات تحت الذرية ليس فراغًا بمعنىٰ العدم، فهذه الجسيمات تتحول من مادة يمكن قياسها بطريقة مباشرة إلىٰ طاقة وموجات يمكن قياسها بطريقة غير مباشرة والعكس؛ **أي إنَّ الفراغ الكمّي المقصود يحتوي علىٰ طاقة بالفعل، وبالتالي فهو شيء (وجود)، وليس لا شيء (عدم)**، ويُؤكِّد ذلك أستاذ الفلسفة بجامعة تكساس روبرت كونز (Robert Koons) فيقول: «البعض استخدم نشوء الجسيمات الافتراضية من الفراغ كدليل علىٰ إمكانية حدوث الأشياء دون سبب إذا كانت الطاقة المشاركة وفترة الوجود كافيتين... وعلىٰ كل حال: فإنَّ هذا الزعم يفشل في التفريق بين شيء لا يحتوي علىٰ طاقة وجسيمات وبين العدم المحض. في الميكانيكا الكمّية، الفراغ ليس لا شيء، وإنَّما هو السبب غير المكشوف للظهور المؤقت للجسيمات الافتراضية»[1].

---

(١) محاضرة لروبرت كونز، بعنوان: (**الألوهية والانفجار الكبير**):
http://www.leaderu.com/offices/koons/docs/lec5.html

وقد علّق الفيزيائي الشهير بول ديفيز (Paul Davies) علىٰ هذا القول قائلًا: «إنَّ تشكل الجسيمات في الفراغ الكمِّي لا يعني خلق المادة من لا شيء، ولكن يعني تحول طاقة موجودة بالفعل في هذا الفراغ إلىٰ المادة، أي إنَّ الفراغ هنا ليس عدمًا، ومن ثَمَّ فإنَّ هذه النظرية تسقط تمامًا»(١).

فالعدم الفيزيائي الذي تقصده هذه النظرية ليس نقيض الوجود، وإنَّما هو مزيج من الجسيمات الافتراضية التي لا يُمكن قياسها بشكل مباشر دائمًا؛ لأنَّها تتخذ أشكالًا أخرىٰ غير مادية لا يُمكن قياسها إلَّا بطريقة غير مباشرة(٢)، أمَّا العدم الفلسفي الذي نقصده دومًا فهو اللَّا شيء المحض، أي العدم المطلق الذي سبق ظهور المفردة؛ وبالتالي يسقط قياس النظرية بالكلية.

يقول الفيلسوف الشهير ديفيد بيرلنسكي (David Berlinski): «فالكوزمولوجيا الكمومية فرعٌ عن الميتافيزيقا الرياضية. إنها لا توفر سببًا لنشوء الكون، ولا تجاوب علىٰ التساؤل الكوني الأول، إنها لا تقدم علة لوجود الكون، ولا تعالج التساؤل الكوني الأول»(٣)، لذلك «فإن الفراغ عند الفيزيائيين هو غير العدم المحض عند الفلاسفة»(٤).

لذلك فإن الملحد ديفيد ألبرت (David Albert) أستاذ الفلسفة بجامعة كولومبيا يعلّق علىٰ هذه النظرية قائلًا: «ولكن كل ما يمكن قوله حول هذا

---

(١) نقلًا عن: عمرو شريف، (رحلة عقل)، مكتبة الشروق، القاهرة، (٢٠١١م)، ص (١٣٤).

(2) Peter Wilberg, The science delusion: Why God is real and science is religious myth, New Gnosis Publications, London, 2008, P. 21.

(3) David Berlinski: The Devil's Delusion: Atheism and It's Scientific Pretensions, Basic Books, 2009, P. 107-108.

(٤) سامي عامري، (فمن خلق الله)، مرجع سابق، ص (٤٤).

الموضوع، بقدر ما أستطيع أن أرىٰ، أن كراوس مخطئ، وأن منتقديه من أهل الدين والفلسفة علىٰ حق تمامًا»[1].

إذن: هذه بعض النظريات التي تحاول تفسير تاريخ الكون من منطلق علمي، وقد رأينا بالتحقيق أن منطلقات هذه النظريات في حقيقتها فلسفية وميتافيزقية لا علمية تجريبية، ولعلَّ الناظر إلىٰ كثرة هذه النظريات - وقد أوردنا النزر اليسير منها - ويلحظ مدىٰ لا عقلانيتها، يجد أنَّ ثمة شبهتَين مشتركتين بين جميع النظريات التي تُفسِّر تاريخ الكون دون الحاجة إلىٰ إله خالق للكون، وهاتان الشبهتان كما يوردهما الشيخ نديم الجسر هما: «الأولىٰ: عجز العقول عن تصور كُنه هذا الإله العظيم الذي ليس كمثله شيء. والثانية: أنَّ عقول الماديين لا يُمكن أن تتصور حدوث شيء من لا شيء، أي خلق المادة من العدم»[2]، وما ذلك إلَّا بسبب تخبط عقول - وقلوب - الماديين المتشربين للنزعة العلموية التي تعتبر أنَّ التجريب هو المصدر الوحيد للمعرفة وكل ما دون التجريب فلا وجود له، «فالمشكلة الشائكة في طريق الماديين إلىٰ الله، هي زعمهم أن المادة هي الوجود والوجود هو المادة»[3]، ممَّا يحيل الملاحدة إلىٰ إنكار الغيب بالكلية، أو إلىٰ قياس كل ما هو خارج عن الطبيعة بقوانين الطبيعة نفسها، فتضل الأفهام

---

(1) David Albert, On the Origin of Everything, New York times, Mar 23, 2012.

(٢) نديم الجسر، (قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن)، لبنان، ص (٢٠٥).

(٣) محمد الصادقي، (حوار بين الإلهيين والماديين)، مرجع سابق، ص (١٠٦).

وتكثر الأوهام، وسنأتي لنقد الفلسفة المادية لدىٰ أصحاب هذه النزعة العلموية في الفصل الثالث - بإذن الله -.

وبعد استعراض فكرة أزلية الكون والنظريات المعاصرة التي حاولت مقاربة ذات الفكرة القديمة بمصطلحات جديدة، وبما أن الاتفاق المعاصر يدور في فلك أن الكون له بداية في الزمان والمكان، فإننا ننتقل إلىٰ السؤال التالي:

كيف ظهرت المفردة من العدم المطلق؟! أو كيف تم إحداث الكون من العدم؟!

نقول: إنَّ هناك ثلاث احتمالات لا رابع لهم:

- **الأول:** أنَّ الكون حدث دون سبب.
- **الثاني:** أنَّ الكون أحدث نفسه بنفسه.
- **الثالث:** أن يكون الكون حادثًا بعد أن لم يكن بسبب حدث خارج عنه أحدثه ورجحه من العدم إلىٰ الوجود.

أمَّا الاحتمال الأول، بأن يكون الكون حدث دون سبب ودون علة ترجحه، فمعلوم بالضرورة بطلانه؛ إذ إنَّه كما قرَّرنا من قبل أنَّ البدهيات العقلية تخبرنا - وفقًا لقانون السببية - بأنَّ لكل معلول علة، وأنَّ كل حادث لا بُدَّ له من أمر يحدثه، فإذا كان الكون حادثًا، فلا بد للكون من سبب أخرجه من العدم إلىٰ الوجود.

ويستحيل أن يكون العدم هو من أحدث الكون؛ لأنَّ العدم لا ينتج إلَّا

عدمًا، ومن يقول: إنَّ الانفجار العظيم حدث من اللَّا شيء. فهو يقول إنَّه كان هناك لا شيء ولا شيء حدث للَّا شيء، وبعد ذلك فجأة انفجر اللَّا شيء بدون سبب وخلق كل شيء![1].

وعليه: فإنَّ العقل يضطرب عندما يتخيَّل حدوث الكون من العدم، وهذه المسألة خصيصًا هي ما تجعل كثيرً من العلماء يؤمنون بوجود خالق للكون رغم عدم علمهم لا بصفات هذا الإله، ولا حتىٰ بالأديان، كما يقول آلان سانديج (Allan Sandage) أحد روَّاد علم الفلك: **«لا بُدَّ أن يكون هناك مبدأ منظم، الإله بالنسبة لي هو لغز، ولكن هذا هو التفسير لمعجزة الوجود، أي لماذا هناك شيء بدلًا من لا شيء»**[2].

أمَّا الاحتمال الثاني، بأن يكون الكون حادثًا أحدث نفسه بنفسه؛ فهذا أمرٌ مرفوض عقلًا؛ لأنَّه يُولِّد تناقضًا، فلا يوجد شيء يُمكنه أن يُنتج نفسه من اللَّا شيء ولا يُوجد شيء موجود وغير موجود في الوقت ذاته، كما لا يُوجد شيء مخلوق وخالق في الوقت نفسه! إذ إنَّ ذلك يُوقعنا في مغالطة الدَّور الدائري، «فإن كان الكون قد أحدث ذاته، كان علة لنفسه متقدماً عليها، فلزم كونه قبل أن يكون، وهذا محال»[3].

---

(١) وقد تعجبت للغاية عندما رأيت فيلسوف الفيزياء كوينتين سميث يعترف بذلك الطرح المضحك عندما قال: «التصور الأكثر معقولية هو أننا قد جئنا من لا شيء، بلا شيء، من أجل لا شيء»!

(Wiiliam Craig & Quentin Smith, Theism, Atheism, And Big Bang Cosmology, New York, Oxford University Press, 1993, P. 135.)

(2) Allan Sandage, New York Times, 12 March 1991, P. B9.

(٣) محمد جمال الدين القاسمي، «**دلائل التوحيد**»، دار الكتب العلمية، بيروت، ص (٥٦).

فالقول بأن الكون قد خلق نفسه وأوجد ذاته من العدم، معناه «أن الكون حتىٰ يخلق نفسه يلزم منه أنه كان موجودًا قبل أن يكون موجودًا، أي يلزم منه أن يكون وأن لا يكون في نفس الوقت والإطار فيؤدي إلىٰ التناقض»[1].

ورغم أنَّ عدم قدرة المادة/ الطاقة علىٰ خلق نفسها من العدم أمرٌ بدهي؛ إلَّا أنَّ بعض الملاحدة - وعلىٰ رأسهم ستيفن هوكنج - يزعمون أنَّ الكون قد أخرج نفسه إلىٰ الوجود من العدم عن طريق بعض القوانين الفيزيائية! يقول هوكنج في كتابه (التصميم العظيم) (The grand design): «هل كان الكون في حاجة إلىٰ خالق؟ الإجابة هي: لا! وبعيدًا عن كون الأمر حادثة لا يمكن تفسيرها إلَّا بأنَّها أتت علىٰ يد إلهية، فإنَّ ما يُعرف باسم (الانفجار الكبير) لم يكن سوىٰ عواقب حتمية لقوانين الفيزياء... ولأنَّ ثمة قانونًا مثل الجاذبية، صار بمقدور الكون أن يخلق نفسه من عدم. والخلق العفوي هذا هو السبب في أنَّ هناك شيئًا بدلًا من لا شيء، وفي وجود الكون ووجودنا نحن، وعليه يمكن القول إنَّ الكون لم يكن في حاجة إلىٰ إله يُشعل فتيلًا ما لخلقه»[2].

لكنَّ الحقيقة التي لا مرية فيها أنَّ القوانين الفيزيائية - كقانون الجاذبية مثلًا - تُفسِّر لنا الظواهر، ولا تخلقها من اللَّا شيء! فالقوانين التي تفسر - مثلًا - حركة كرة البلياردو لا تحرك كرات البلياردو، وإنَّما تفسر طبيعة

---

(١) أحمد الغريب، مقال: «الاحتمالات العقلية والعلمية لتفسير الكون وظهور الحياة»، مجلة البشرىٰ، الكويت.

http://the2road-to.blogspot.com.eg/2015/10/blog-post_370.html

(2) Stephen Hawking & Leonard Mlodinow, The Grand Design, P. 282.

حركتها فحسب، أمَّا الحركة ذاتها فتحتاج إلىٰ مسبب ليتسبب في حدوثها كعصا البلياردو والشخص الذي يدفعها بقوة معينة نحو الكرات، وعليه فإنَّ القول إنَّ كرات البلياردو حركت نفسها بنفسها هو قولٌ عبثيٌ بالكلية! هذا بجانب أن كافة القوانين الكونية نشأت مع نشوء الكون ولم تكن سابقة عليها، أي أنها كانت معدومة أصلًا، فكيف يزعم أحدهم أن القوانين الفيزيائية هي التي خلقت الكون من العدم؟!

وبعد عرض الاحتمالين الأول والثاني لنشوء الكون وبيان استحالتهما، وبناءً علىٰ كُلِّ ما سبق، فإنَّنا نقول: إنَّ **الاحتمال الثالث** هو القول المنطقي الممكن الوحيد لنشوء الكون، ويُمكننا تلخيص الأمر ببساطة كما لخَّصه أنتوني فلو، الملحد المشهور الذي كان رائدًا للملاحدة ثم تراجع عن إلحاده في كتابه «**لماذا هناك إله**»[1]، كالآتي:

- الكون يحوي موجودات محددة متغيرة.

- هذه الموجودات لا بُدَّ لها من موجد.

- لا يُمكن التسلسل مع الموجودات التي تحتاج إلىٰ موجد إلىٰ ما لا نهاية؛ لذلك ينبغي الإقرار بمُوجِد أول لهذه الموجودات.

- هذا المُوجِد الأول ينبغي أن يكون واحدًا، أزليًّا، واجب الوجود، أي أن وجوده متعين عقلًا، وافتراض عدم وجوده موقع في التناقض.

وبذا يكون الرأي الثالث القائل بنشوء الكون من العدم المطلق نظرًا

---

(١) نقلًا عن: عمرو شريف، (رحلة عقل)، مرجع سابق، ص (٦٥).

لحدوث مرجح رجحه علىٰ العدم هو القول الوحيد المقبول عقلًا، وهذا المحدِث ينبغي عقلًا أن يكون مفارقًا للمادة ممَّا يُمكِّنه من خلق الكون من عدم، غير مقيّد بقوانينها ولا بأبعادها الزمكانية، متعاليًا علىٰ الكون والمادة، وهو ما يُقرِّره أستاذ علم الأحياء بجامعة سان فرانسيسكو إدوارد كيسيل (Edward Kessel): «**وهكذا توصلت العلوم - دون قصد - إلىٰ أنَّ لهذا الكون بداية، وهي بذلك تثبت وجود الله؛ لأنَّ ما له بداية لا يُمكن أن يكون قد بدأ نفسه، فلا بُدَّ من مُبدِئ - أو من مُحرِّك - أول، أو من خالق، هو الإله**»[1]، وهو ما يقرّه أيضًا الفيلسوف الماركسي جورج بولتزر (George Politzer) المؤيد لأزلية الكون: «ليس الكون شيئًا مخلوقًا، ولو كان كذلك فيلزم أن يكون مخلوقًا بصورة فورية من الله، ووُجد من لا شيء»[2].

س: من خلق الله؟!

نقول هاهنا: إن السؤال غلط، إذ إن دلالة لفظ (خلق) تفيد أن المراد حادث مخلوق، له بدء في الزمان والمكان، وكان بعد أن لم يكن، ولكن الإله الخالق ليس بمخلوق، فإنه إذا قررنا أنه ثمة موجود أحدث الكون من العدم فإنَّ وجوده لا بُدَّ أن يكون خارجًا عن الكون، وغير ملتزم بقوانينه؛ لأنَّه لو كان هذا الموجود المُحدِث مُقيَّدًا بحدود الكون فلن يُمكِنَه أن يخلق الكون،

---

(١) جون كلوفر مونسما، (الله يتجلىٰ في عصر العلم)، ترجمة: الدمرداش سرحان، دار القلم، بيروت، ص (٣٣).

(2) Geroge Politzer, Principes Foundamentaux de Philosophie, Paris, Editions Sociales, 1954, P. 84.

إذ لا يمكن للمخلوق أن يحدث نفسه بنفسه كما ذكرنا، وعليه فإنَّ السبب الذي أحدث الكون من العدم لا بُدَّ أن يكون قديمًا أزليًّا، قائمًا بذاته، لا بداية له، وما لا بداية له لا نهاية له، ولو كان هذا الموجود/ المحدث حادثًا لاحتاج إلىٰ مُحدِث ليحدثه، وهذا المحدث لزم له أن يوجد من مُحدِث آخر، ويظلُّ التسلسل قائمًا إلىٰ ما لا نهاية، والتسلسل إلىٰ ما لا نهاية مستحيل عقلًا.

وبالمثال يتضح المقال؛ لنفترض أنَّ جُنديًّا يحمل سلاحًا، وعليه أن يطلق رصاصة من السلاح بشرط أن يأخذ الجندي الأمر بإطلاق الرصاصة من الضابط الذي يليه في الرتبة، وهذا الضابط يجب أن يتلقىٰ الأمر من الضابط الذي يليه، وهكذا إلىٰ تسلسل لا نهائي، هل سيكون هناك يومًا سيطلق فيه الجندي الرصاصة؟ بالتأكيد لا؛ لأنَّ الأمر سيظل يصعد من رتبة إلىٰ رتبة دون نهاية، ومن ثمّ فلن يُضرب الهدف أبدًا، ولكننا إذا رأينا الهدف قد أصابته رصاصة بالفعل، كان لا بُدَّ عقلًا أن ينتهي التسلسل عند نقطة ما، حتىٰ يستطيع العسكري أن يطلق الرصاصة التي نرىٰ أثرها في الهدف.

وبالمثل؛ فإن الكون حادثٌ كله، فالكون مخلوق و(ممكن الوجود)، أي «إن هذا العالم يحتاج في وجوده إلىٰ غيره»[1] ومن المحال أن يكون العالم قد خلق نفسه بنفسه؛ إذ إنَّ ذلك يسقطنا في مغالطة الدَور، لذا فحتىٰ يستقيم حدوث الكون من العدم، فلا بُدَّ عقلًا أن تنتهي الأسباب إلىٰ المُوجِد الأول، وهو الموجود (واجب الوجود)، أي إنَّ وجوده ضروري ويلزم من عدمه

---

(١) مصطفىٰ صبري، (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٩٨١م)، (٢/ ٧٦).

المحال العقلي، فهو واجب عقلًا، وقائمٌ بذاته؛ فلا يحتاج إلىٰ مُوجِد خارج عن ذاته ليوجده، «فالموجود واجب الوجود تحتاج إليه المادة.. ويحتاج إليه كل شيء، وهو لا يحتاج إلىٰ شيء لكونه موجودا واجب الوجود لا موجودا ممكن الوجود»[1]. وعليه «**فإذا كان الخالق موجودا بصورة مستمرة ولم يكن حادثا بعد عدم، انقطع عنه السؤال: لماذا وُجد؟ أو من خلقه؟ فإنه لم يوجد بعد عدم، بل كان موجودًا بلا ابتداء**»[2].

وقد لخَّص ابن خلدون رحمه الله في (مقدمته) هذه المعطيات قائلًا: «إنَّ الحوادث في العالَم، سواء كانت من الذوات أم من الأفعال؛ لا بُدَّ لها من أسباب متقدمة عليها، وكل واحد من هذه الأسباب حادثٌ أيضًا، فلا بُدَّ له من أسباب أخرىٰ، ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتىٰ تنتهي إلىٰ مُسبِّب الأسباب، وموجدها، وخالقها، سبحانه لا إله إلَّا هو»[3].

وهاهنا نقطة أخرىٰ جديرة بالذكر؛ إذ إنَّ خالق الكون لم يخلق الكون عن طريق الضرورة التي تستلزم خلقه للكون، وإنَّما خلقه عن طريق الاختيار والإرادة؛ فالموجود القديم الأزلي الذي أحدث الكون/ المفردة «إمَّا أن يكون حدوث الكون عنه بطريقة العليَّة والضرورة بدون إرادة واختيار، وإمَّا أن يكون حدوثها عنه بالإرادة والاختيار، وغير جائز عقلًا أن يكون حدوثها

---

(١) المرجع السابق، (٢/ ٧٧).

(٢) محمد الصادقي، **(حوار بين الإلهيين والماديين)**، مرجع سابق، ص (٧٨).

(٣) ابن خلدون، **(المقدمة)**، تحقيق: عبد السلام الشدادي، بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، (٢٠٠٥م)، (٥/ ٢١٢).

عنه بطريقة العلية والضرورة؛ لأنَّه لو كان كذلك وهو قديم - أي أزلي - لَلَزم أن يكون الكون قديمًا، وقد ثبت حدوث الكون؛ فلم يبقَ إلَّا أنَّها بإرادته واختياره، وتخصيصه لها في الوقت الذي وُجدت فيه، فثبت بهذا أنَّ هذا الموجود القديم مريد مختار»[1]، فهذه الصفة (الإرادة) هي إحدىٰ صفات هذا الموجود (واجب الوجود)، خالق الكون، الله ﷻ.

وكما استنبطنا صفة (الإرادة) لدىٰ خالق الكون، فلعلَّ نظرة بسيطة إلىٰ الجمال اللَّا متناهي في الكون، وإلىٰ عِظم دِقته وصنعه والتنوع الشديد جدًّا في عناصره وأجزائه رغم صدورها من مفردة متناهية الصغر تُوضِّح لنا بجلاء بعض الصفات الأخرىٰ لهذا الموجود القديم المريد، منها: أنَّه موجود كليُّ (القدرة)، وكليُّ (العلم)، وكليُّ (الحكمة).

فمثلاً، تحفظ القوة النووية القوية استقرار البروتونات داخل النواة، إذ إن جميع البروتونات تحمل شحنة موجبة، والقوة النووية الكبرىٰ هي التي تمنع تنافر البروتونات عن بعضها البعض. «هذه القوة النووية لو كانت أقوىٰ بـ٢٪ فقط من قوتها الحالية مع بقاء جميع الثوابت الكونية الأخرىٰ بدون تغيير، فستندمج البروتونات مع الهيدروجين بدلًا من الديوتيريوم والهليوم، مع ما يصاحب ذلك من تغييرات كبرىٰ في فيزياء النجوم، مما يمنع ظهور الحياة علىٰ الأرض، حيث أن البروتونات ستسرع من الانصهار البطيء

---

(١) نديم الجسر، **(قصة الإيمان)**، مرجع سابق، ص (٢٠٠).

للهيـدروجين في الـديوتيريوم. وفي الواقـع فـإن الهيـدروجين سينـصهر بكـل سـهولة، بحيـث أن الهيـدروجين الموجـود في الكـون كلـه سيستهلك خـلال الدقائق الأولىٰ للانفجار الكبير»[1].

ويكفـي القـارئ الكـريم أن يعلـم أنَّ أحـد الثوابـت الفيزيائيـة المـسمىٰ بـ(الثابت الكوني) (Cosmological constant)، والذي يـضاد قـوة الجاذبيـة، ويخـتص بـسرعة تمـدد الكـون منـذ نـشأته، هـذا الثابـت لـو تغيّـر بمقـدار (١ مضروب في ١٠ أس سالب ١٢٢)، أي لو تغير بمقدار وحدة واحـدة مـن (١٢٢ وحـدة عـشرية) (Decimal place) لانهـار الكـون بأكملـه، ولَـمَا كـان هناك بشرٌ ولا حياة ولا أرض مـن الأسـاس! لـذا فـإنَّ أسـتاذ الفيزيـاء النظريـة بجامعة ستانفورد ليونـارد ساسـكايند (Leonard Susskind) يتعجـب كثيـرًا ممَّن يدَّعون أنَّ مثل هذا الضبط الدقيق قد وُجد صدفة دون إرادة خلقتـه بهـذا الشكل، فيقول: «لا أحد يعتقـد أنَّ الثابـت الكـوني أمرٌ عرضـي، ليست فكـرة عقلانية أنَّ شيئًا مُنضبطًا إلىٰ مائة وعشرين منزلة عشرية هو مجرد أمر محـض الصدفة... ليس هناك داعٍ يتحكم بموجبه الحظ في سبب وجودنـا، هـذا كثيـر جدًّا، هذا شطح، شطح بعيد جدًّا»[2].

وهذا الضبط الدقيق للكون يُعتبر برهانًا قاطعًا لوجـود الله، ويُسمَّىٰ عنـد علماء الإسلام بـ(برهان النظم) أو (دليل الرعاية)، وتتجلَّىٰ عـبر هـذا البرهـان

---

(١) محمد صالح الهبيلي، (التطور: نظرة تاريخية وعلمية، وقفات من ذاكرة نشأة التطور وإلىٰ اليوم)، مركز دلائل، الرياض، (١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م)، ص (١٠٧).

(2) https://www.youtube.com/watch?v=tB7jKUjjNts

صفة أخرىٰ من الصفات الكاملة لخالق الكون ﷻ التي يمكن استنتاجها عن طريق النظر العقلي، ألا وهي صفة (الرعاية)، أي إنَّ الله ﷻ خلق الكون، وأودع فيه قوانينه بشكل يلائم بدقة شديدة وعن طرق معقدة غير قابلة للاختزال (Irreducible Complexity)[1] لصلاح قيام حياة البشر، وهذا دليلٌ آخر علىٰ وجود الخالق ﷻ المتصف بصفات الكمال.

وهذا الضبط الكوني الدقيق بات يُعرف بالمبدأ الإنساني (Anthropic Principle) ومعناه أن المعطيات الكونية من مجرات وكواكب وأفلاك وقوانين ونحو ذلك قد ضُبطت ضبطًا علىٰ نحو دقيق من أجل استقبال الإنسان وتهيئة البيئة المناسبة لحياته، ونقول أنها (ضُبطت) أي تم ضبطها بواسطة ذات إلهية، فالكون نفسه لا يمكنه إلزام نفسه بهذا الضبط، كما يقول الفيزيائي بول ديفيز: «لا يوجد دليل مطلقًا علىٰ أنه كان من المتحتم علىٰ الكون أن يكون بهذه المجموعة من الثوابت الفيزيائية التي فيه»[2].

---

(١) التعقيد غير القابل للاختزال (Irreducible Complexity) هو مصطلح وضعه العالم مايكل بيهي في كتابه (صندوق داروين الأسود)، ويُقصد به أنَّ الأنظمة التركيبية علىٰ المستوىٰ الجزيئي مكونة من عدة أطراف لا يملك اختزالها، بحيث لو فُقد طرف واحد منها؛ لانهار النظام بأكمله؛ وبالتالي:فإنَّ هذا النظام لا يُمكن أن ينشأ بشكل تدريجي، بل يجب أن يظهر (دفعة واحدة) بكل محتوياته، ولَـمَّا كانت الطفرات عاجزة عن إنتاج الأنظمة بشكل فوري دفعة واحدة؛ فإنَّ هذه الأنظمة دليل علىٰ وجود مصمم خارجي أنتجها، والسجال العلمي حول هذه النقطة شديد، ولكن ما يهمُّنا هو وجود كل الظروف المواتية؛ لنشوء الحياة علىٰ الأرض بشكل لا يقبل تجزئته بحال من الأحوال.

(2) Paul Davies, The Mind of God: The Scientific Basis for a Rational World, Simon&Schuster, New York, 1993, P. 161.

حتىٰ إنَّ ستيفن هوكنج نفسه لم يكن أمامه بُدٌّ من الإقرار بهذا الضبط العظيم، فيقول: «إذا كان معدل التمدد بعد ثانية واحدة من الانفجار الكبير أصغر بمقدار حتىٰ جزء واحد من مائة ألف مليون مليون جزء، لانهار الكون ثانيةً علىٰ نفسه قبل أن يصل إلىٰ حجمه الحالي... الحقيقة الواضحة بخصوص الثوابت الكونية تُؤكِّد علىٰ أنَّها صُمِّمت بعناية تتيح الحياة وبمنتهىٰ الضبط المدهش»[1]، بل إن أي ذي عقل رشيد لن يتمالك نفسه من الوقوف إجلالًا لعظمة هذا الكون وجلالته، «فحتىٰ العلماء الملحدون الذين يشكلّون جزءًا صغيرًا جدًّا وهشًّا من الكون يدبجّون قصائد المديح في ضخامته وعظمته وتناغمه وأناقته وعبقريته، ومع تكشف قصة الكون العظيمة لنا، بدأ يظهر كما لو أن تطوره يتبع نصّا مخطّطًا للأشياء»[2].

وبذا، تتضح لنا بعض صفات الكمال للإله الخالق للكون، وهي القدرة والعلم والحكمة.

س: ولكن أحيانًا أتساءل ماذا كان هناك قبل الله؟!

ثمة أمر يجب أن نفهمه، وهو أنَّ الزمان في الحقيقة بدأ مع نشأة الكون، فالمادة والحرارة والطاقة والزمان والمكان ظهروا مع خلق الكون أصلًا، ولم يكن لهم وجود قبل ذلك، يقول بروفيسور الفلسفة ستوارت هاكت

---

(1) Stephen Hawking, A brief history of time, Bantame press, London, 1988, P. 121 - 125.

(٢) بول ديفيز، (الجائزة الكونية الكبرىٰ: لماذا الكون مناسب للحياة؟)، ترجمة: سعد الدين خرفان، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، (٢٠١١م)، ص (٣١).

(Stuart Hackett): «الزمان هو مجرد علاقة بين الأشياء التي يتم إدراكها عبر ترتيب متتالياتهم أو وجودهم موضوعيًا.. الزمان هو نوع من الخبرة الإدراكية للعمليات الموضوعية في العالم الخارجي.. لذا فإن الزمان لا وجود له بعيدًا عن هذه الخبرات أو العلاقات نفسها». ويعلّق البروفيسور الشهير ويليام كريج (William Craig) قائلًا: «إذا كان الزمان متواجدًا مع الحوادث، فإن منشأ الزمان يوحي بكل بساطة ببداية للكون»[1].

وبالتالي يُصبح سؤالُ: **(ماذا كان قبل الله؟)** سؤالًا غير منطقي؛ إذ إنَّه قبل نشوء الكون لم يكن هناك وقتٌ ولا مكانٌ من الأساس، فالكون محدد بحدود الزمان والمكان والنسق الكوني لا يخرج عن نسيج الزمكان (Fabric of space and time)، أمّا خارج الكون فلا وجود لمثل هذه الأبعاد من الأساس، لذا «**فإن الانفجار الكبير لم يكن حدثًا في زمان أو مكان معينين، بل إن الزمان والمكان تم إيجادهما بالانفجار الكبير**»[2].

ومن هنا نستطيع القول: إنَّ مُحدِث الكون يجب ألا يكون خاضعًا لقوانين المادة ولا يمكن أن يتقيّد بقيود الزمان والمكان؛ **وبالتالي** يصبح قياس ما هو خارج النسق الكوني علىٰ ما هو داخله قياس غير منطقي.

ومن هنا: نفهم أسماء الله الحسنىٰ (الأول) و(الآخر)؛ فهو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء.

---

(1) William Craig, Kalam Cosmological Argument, Macmillan Press, London, 1979, P. 108-109.

(2) David Berlinski, The Devil's Delusion: Atheism and It's Scientific Pretensions, Basic Books, 2009, P. 69.

ونُشير هنا إلىٰ الأزمة التي تعتري جميع الملاحدة من فلاسفة وسوفسطائيين، ألا وهي أزمة **قياس التمثيل**[1]، «فالتعثر في عقبة الفكرة المادية التي تسيطر علىٰ عقولنا وتخدعها بقياس التمثيل الذي تعوده الإنسان من ممارسة الأشياء المادية في الحياة»[2] توقعنا في مشاكل ضخمة؛ لأنَّ العقل الإنساني لا يستطيع التفكير في هذا الخالق المفارق للمادة إلَّا عن طريق قياس التمثيل أي قياس المدركات الحسية علىٰ ما هو فوق حسي وفوق طبيعي، وهو ما ذكرنا بطلانه؛ لأنَّ الإله لا بُدَّ عقلًا أن يكون مفارقًا للمادة، وفي هذا يقول فخر الدين الرازي: «فنحن لا نستطيع أن نتصور شيئًا إلَّا الذي ندركه بحواسنا، أو تجده في نفوسنا، أو نتصوره في عقولنا، أو ما يتركب من هذه الأشياء. والماهية الإلهية خارجة عن هذه الأقسام؛ ولذلك فهي غير معلومة لنا»[3].

لذلك فإنَّ الله ﷻ أخبرنا بأنَّه: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ (الشورىٰ: ١١)، وهذا عين الهداية الإلهية بتوجيه العقل الإنساني لوظيفته الصحيحة، أمَّا الطمع العقلي في الوصول إلىٰ الغيب فمستحيل عقلًا؛ لذا فإن النبي ﷺ عندما قال في الحديث: «**يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّىٰ يَقُولَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟! فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ؛ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ**»[4]. فهذا ليس قمعًا للقلق

---

(١) قياس التمثيل: إلحاق الشيء بنظيره.

(٢) نديم الجسر، **(قصة الإيمان)**، مرجع سابق، ص (٤١، ٤٢).

(٣) فخر الدين الرازي، **(محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين)**، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ص (١٨٨).

(٤) متفقٌ عليه.

الوجودي الإنساني، وإنَّما هو بمثابة إرشاد نبوي لعدم استخدام قياس التمثيل في تصور ما لا يستطيع العقل تصوره، ولذا فقد عبّر ابن أبي زيد المالكي عن الذات الإلهية قائلًا: **«لا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون.. يعتبر المتفكرون بآياته، ولا يتفكرون في ماهية ذاته»**[1].

وبِناءً علىٰ كُلِّ ما سبق، وبعد أن توصَّلنا إلىٰ هذه النتائج المنطقية، نستطيع أن نفهم لماذا رفض كثيرٌ من العلماء في البداية نظرية **الانفجار العظيم** عند طرحها في القرن العشرين، وانزعج كثير من الملاحدة عند ظهورها، فنظرية **الانفجار العظيم** تُثبت أنَّ الكون له بداية سبقها العدم المطلق، وهو كان عكس المعتقد السائد لدىٰ الملاحدة الغربيين علىٰ مرِّ الأزمنة الذين كانوا يظنون أنَّ الكون أزليٌّ لا بداية له، بل إنَّ نظرية الحالة المستقرة للكون (Steady state universe) تم ابتداعها بعد طرح نظرية **الانفجار العظيم** لا لشيء إلَّا للتهرُّب من فكرة أنَّ للكون بداية، كما يقول أندريه جدانوف المنظر الأيدولوجي لستالين - قائد الاتحاد السوفيتي الملحد - في خطاب في عام ١٩٤٧م: «هؤلاء الذين يريدوننا أن نصدق قصة الأطفال تلك [يقصد الانفجار الكبير]، في أن الكون له بداية مطلقة من عدم، بدلًا من العلم الجاد المتمثل في نظرية الكون المستقر اللانهائي»[2]. وقد ذكرنا آنفًا أنَّ هذه النظرية قد تم إهمالها بشكل تامٍّ، ثم ظهرت فكرة الكون المتأرجح بعدها، فرغم

---

(١) نقلاً عن: عبدالله بن جار، **(إتحاف الخلق بمعرفة الخالق)**، الرياض، (١٤١٢هـ)، ص (٦٧).

(٢) نقلًا عن: محمد صالح الهبيلي، **(التطور: نظرة تاريخية وعلمية)**، مرجع سابق، ص (٨٣).

استحالة هذا الزعم - أي أزلية الكون - عقلًا؛ إلَّا أنَّ نظرية الانفجار العظيم كانت القاصمة لفكرة أزلية الكون، وأثبتت بشكل قطعي نشوء الكون من العدم المطلق، وقد اعتبر الفيزيائي ألكسندر فيلنكن فكرة بداية الكون أنَّها مشكلة؛ إذ إنَّها تضع العلماء في حرج خلق الكون من عدم، كما يقول: «**العلماء لم يعد يمكنهم الاختباء خلف كون أزلي، لا يوجد مخرج، لا بُدَّ أن يواجهوا مشكلة أنَّ للكون بداية**»[1].

وقد أورد هذا السخط العلمي/ الإلحادي علىٰ نظرية الانفجار العظيم العالِم ستيفن هوكنج، فيقول في إحدىٰ محاضراته: «كثيرٌ من الناس كانوا غير سعداء بفكرة أنَّ الكون له بداية؛ لأنَّها بدت أنَّها تعني وجود موجود فوق طبيعي خلق الكون. لقد فضلوا أن يؤمنوا أنَّ هذا الكون والجنس البشري أزليان»[2].

لذا يقول أنتوني فلو: «من المعروف أنَّ الاعتراف يفيد الروح؛ لهذا سأبدأ بالاعتراف بأنَّه علىٰ الملحد الشعور بالحرج من الإجماع العالمي المعاصر علىٰ نموذج (الانفجار العظيم)، حيث يبدو أنَّ علماء الكون يُقدِّمون الدليل العلمي علىٰ أنَّ الكون كانت له بداية»[3]، وبسبب ذلك فإنَّنا نجد: «إنَّ الفيزيائيين ينفرون غريزيًّا من فكرة أن يكون للزمان بداية أو نهاية»[4] حتىٰ لا

---

(1) Alexander Vilenkin, Many Worlds in One: The Search for Other Universes, New York, Hill and Wang, 2006, P. 176

(2) http://www.hawking.org.uk/the - beginning - of - time.html

(3) Richard Monestarsky, Mysteries of the Orient, Discover, April 1993, p. 40

(٤) ستيفن هوكنج، **(الكون في قشرة جوز: شكل جديد للكون)**، ترجمة: مصطفىٰ فهمي، الكويت، عالم المعرفة، (٢٠٠٣م)، ص (٣٥).

يقعوا في (مصيدة) إثبات وجود الخالق!

ووصل حدُّ رفض نظرية (الانفجار العظيم) عند بعض الملاحدة إلىٰ النظر إليها ويكأنَّها مؤامرة تستهدف إثبات وجود الله! وهو ما ذهب إليه الفيزيائي البريطاني ويليم بونر (William Bonnor) قائلًا: «المؤمنون بوجود الله يدعمون نظرية (الانفجار العظيم)، والدافع الضمني بالتأكيد هو إثبات الله كخالق للكون»(١).

ونختم هذه الجزئية بخير ما نختم به وهي الآية القرآنية التي تقدم لنا هذا البرهان الكوني علىٰ وجود الخالق بأسلوب قرآني يسير: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور: ٣٥)، قال ابن كثير رحمه الله: «أُوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم، بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا»(٢).

س: هل يُمكن أن يكون هناك أكثر من إله؟!

إنَّ وجود الكون يستلزم أن يكون خالق هذا الكون واحدًا لا شريك له ولا شبيه ولا مثيل، **وعلة ذلك:** أنَّ صفات الموجود الأول - واجب الوجود - لا بُدَّ أن تكون غاية في الكمال والإطلاق؛ لأنَّ صفاته لو كانت ناقصة لم يعتبر خالقًا، ولكان مخلوقًا هو الآخر؛ ولاحتاج إلىٰ خالقٍ، وبالتالي نرجع إلىٰ

---

(1) William Bonnor, Quoted by: Simon Singh, Big bang: The Origin of the Universe, Fourth estate, London, 2004, P.361

(٢) ابن كثير، (تفسير القرآن العظيم)، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، (١٩٩٩م)، (٧/ ٤٣٧).

فكرة التسلسل الباطلة، لذا فلا بُدَّ أن يكون الموجود الأول متصفًا بصفات الكمال المطلقة.

وقد أورد علماؤنا من السلف دليلًا على ضرورة وحدانية الله تعالى سُمي بـ(دليل التمانع)، كما يقول ابن القيم رحمه الله: «دليل التمانع على التوحيد: وهو أنه يستحيل أن يكون للعالم فاعلان مستقلّان بالفعل؛ فإن استقلال كلٍّ منهما ينفي استقلال الآخر، فاستقلالهما يمنع استقلالهما»[1]، ويفصّل أبو المعين النسفي هذا الدليل أيضًا فيقول: «إذا ثبت أن للعالم محدثا أحدثه وصانعا صنعه، كان الصانع واحدا، إذ لو كان له صانعان لثبت بينهما تمانع، وذلك دليل حدوثهما أو حدوث أحدهما، فإن أحدهما لو أراد أن يخلق في شخص حياة والآخر أراد أن يخلق فيه موتا.. وكذا هذا في جميع المتضادات كالحركة والسكون والاجتماع والافتراق والسواد والبياض وغير ذلك، فإما أن حصل مرادهما ووجد في المحل المتضادات وهو محال، وإما أن تعطلت إرادتهما ولم تنفذ ولم يحصل في المحل لا هذا ولا ذاك وهو تعجيزهما، وإما أن نفذت إرادة أحدهما دون الآخر وفيه تعجيز من لم تنفذ إرادته، والعجز من أمارات الحدث، فإذا لم يتصور إثبات صانعين قديمين للعالم فكان الصانع واحدا ضرورة»[2].

---

(١) ابن القيم، (إعلام الموقعين عن رب العالمين)، دار ابن الجوزي، السعودية، (١٤٣٢هـ)، (٥/ ٢٠٣).

(٢) نقلًا عن: أحمد بن عوض الله، (الماتريدية دراسة وتقويمًا)، دار العاصمة، الرياض، (١٤١٣هـ)، ص (٢١٠).

وهكذا فإن (دليل التمانع) يقطع باستحالة وجود أكثر من إله واحد أحد، ولعلنا هنا نذكر تصور اليونان للآلهة - دائمًا - علىٰ شكل صراعي وعدائي بين بعضهم البعض، كل إله يحاول أن يسيطر علىٰ الآخر، وأن يقهر الإله الآخر، حتىٰ يصبح المنتصر هو الكامل المطلق الوحيد، تعالىٰ الله عمَّا يقولون عُلُوًّا كبيرًا، وما ذلك إلا لعجز أحد الآلهة وإنفاذ إرادة الآخر غصبا، مما يؤدي إلىٰ تنازع الآلهة حول مدىٰ (إلهية) كل إله منهم، حاشا لله عن مثل هذا الشرك، كما يقول - تعالىٰ -: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء: ٤٢).

وهنا نستطيع أن نفهم قوله - تعالىٰ -: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾ (المؤمنون: ٩١)، والأمر كله كما قال الله ﷻ: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

س: هل يُمكن للإله أن يحلَّ في مخلوقاته، أو أن يتحوَّل إلىٰ بشر، أو يكون له صورة أو صنم أو مثال أو غير ذلك؟!

كما ذكرنا آنفًا؛ فإنَّ الله ﷻ له الكمال المطلق الذي إليه يرجع كلُّ شيء موجود، فهو تبارك وتعالى الأول والآخر، والظاهر والباطن، والمهيمن والقادر، والحاكم والخالق، والبارئ والعليم والحكيم، أمَّا المخلوقات - ومنها البشر - فهي مخلوقات ناقصة متغيرة فقيرة تستمد وجودها من وجود الله ﷻ.

لذا: فإنَّ الإسلام يُوضِّح بجلاء الفرق بين المستويات الوجودية الثلاث

التي يستطيع العقل التوصل إليها بسهولة وهي: (الله - الإنسان - الطبيعة)، فكما أنَّ الإنسان يُمكِنه التوصل عن طريق النظر إلىٰ وجود خالق للكون، متعالٍ علىٰ المادة، ومفارق لها، ومن ثَمَّ: تتضح بجلاء ثنائية الخالق والمخلوق، إلا أن هناك مسافة تفرّق البشر عن بقية المخلوقات؛ ويمكن ملاحظة هذه المسافة في النزعة الدينية، والقيم الأخلاقية، والوعي وإدراك الذات والتعقل، والقدرة علىٰ التحليل والتركيب والتجاوز، والقدرة علىٰ الترميز واستخدام المجاز واختراع اللغة وتجريد المعاني والأفكار، ونحو ذلك، **«فذكاؤنا ووعينا وبراعتنا التكنولوجية الفائقة، ولغتنا المنطوقة المعقدة، وحسُّنا القيمي والأخلاقي، كل واحدة من هؤلاء كما يبدو كافية لتضعنا بعيدًا عن الطبيعة»**[1].

ويعترف الملحد المثير للجدل توماس نيجل (Thomas Nagel) بأحد هذه المكوِّنات الفوق طبيعية التي تميّز الإنسان عن بقية المخلوقات، فيقول: «الفلسفة المادية غير مكتملة حتىٰ كنظرة فيزيائية للعالَم، بما أنَّ العالَم الفيزيائي يحتوي علىٰ كائنات واعية.. التفسير المادي الخالص لا يمكنه أن يفسّر الوعي»[2].

ولكن رغم هذه المكوّنات غير المادية، فإن الإنسان يظلُّ بالنهاية جزءًا من الكون، أي مخلوقًا فقيرًا ناقصًا، ومن ثَمَّ فإنَّ الإنسان **«يحسُّ بأنّه جزء من**

---

(1) Roger Lewin, In the Age of Mankind, Smithsonian Books, Washington D.C, 1988. P. 22.

(2) Thomas Nagel, Mind and Cosmos: Why the Materialist Neo - Darwinian Conception of Nature Is Almost Certainly False, Oxford University Press, USA, 2012, P.45.

الطبيعة وغريب عنها في ذات الوقت»[1]، وهذا التسامي الوجودي الإنساني يرجع إلىٰ نعمة التعقل التي هي بدورها نتيجة مباشرة للاصطفاء الإلهي لآدم وذريته ومنحِهم القدرةَ علىٰ الاختيار الواعي المتعقِل، وسنأتي لمزيد بيان حول هذه النقطة بعد قليل - إن شاء الله -.

هنا نتوصل إلىٰ أنَّ الخلق كلهم - من بشر وغيرهم - هم مخلوقات نسبية متغيرة بتغير الزمان والمكان والحال، أمَّا الخالق ﷻ فمتعالٍ علىٰ المخلوقات ﷻ وهو الحق المطلق الذي لا يتغيَّر بحالٍ، ومن ثَمَّ فإنَّه لا يجوز أبدًا أن يختلط أو يحلَّ المطلق بالنسبي؛ لأنَّه في اللحظة التي سيتَّحد فيها المطلق بالنسبي سيقع المطلق في نسبية، وبالتالي تسقط عنه صفة الإطلاق والكمال، كما ذكرنا آنفًا.

يقول أحمد داود أوغلو: «إنَّ مبدأ التنزيه وقول (سبحانه)، والذي يعني تنزيه الله عن كُلِّ النقائص، هو مفتاحنا للتمييز بين (المطلق) و(النسبي)، من خلال الاعتقاد في تسامي الخالق ﷻ وهيمنته علىٰ النسبيات المخلوقة (العالم)، فالجزء المنفي من عبارة التوحيد (لا إله) يرفض الاعتراف بوجود أي مصدر للتسامي والهيمنة، في حين أنَّ الجانب المُثبَت (إلَّا الله) تعني طاعة كل المخلوقات النسبية للمطلق وهو الله، تلك الطاعة هي نفسها اسم دين الإسلام، ويتصف الله بأنَّه مصدر كل الإطلاق، وهذه الصفة هي جوهر تعريف ذاته كما تُبيِّن أسماؤه في القرآن، ومن هنا تمخضت نتائج مهمة...

---

(١) علي عزت بيجوفيتش، (الإسلام بين الشرق والغرب)، مرجع سابق، ص (١٤).

بحيث يمنع تمثُّل ذي الكمال المطلق (الله) بالمخلوقات النسبية (الكائنات)»[1].

س: هل يمكننا تصوّر ذات الله ﷻ؟

ينبغي أن نفرق أولًا بين مفهومي التصور والتعقل، **فالتصوّر** معناه أن تنشئ للشيء صورة في الذهن، في حين أن **التعقّل** هو أن تقبل إن كان هذا الشيء موافق للعقل أم يخالف ضرورات العقل[2].

وعليه، فإننا يُمكننا أن نعقل وجود الله - تعالىٰ - لكن لا يُمكننا تصور ذاته -تعالىٰ-، **أي** إنَّنا يمكننا إدراك وجود الله - تعالىٰ - عن طريق الأدلة العقلية بالنظر والاستدلال والبحث، لكنَّنا لا يُمكننا تخيّل شكل أو رسم صورة ذهنية معينة لله ﷻ؛ لأنَّنا بذلك سنقع في مغالطة قياس التمثيل كما أوردنا، فالعقل الإنساني يكتسب قدرته علىٰ المعرفة ممَّا هو داخل النسق الكوني، **أي** كل ما هو في الدنيا، نعم تتراكم فاعلية وقدرة العقل الإنساني عبر الزمن، ولكن يظل تراكم خبرته مقصورًا علىٰ حدود الكون عن طريق ما يُسمىٰ بالمدركات الحسية، هذه مساحة عمل العقل الإنساني، أمَّا ما هو خارج الكون/ المادة (أي: الميتيفيزيقا/ ما وراء الطبيعة)، فلا يُمكن تخيلها؛ لأنَّ العقل لم يختبرها ولم يحسها، وبالتالي يصبح كل ما هو خارج عن

---

(١) أحمد داود أوغلو، (الفلسفة السياسية)، ترجمة: د. إبراهيم البيومي غانم، مصر، دار الشروق، (٢٠٠٦م)، ص (١٦).

(٢) سامي عامري، **(فمن خلق الله)**، مرجع سابق، ص (١٣٥).

حدود الدنيا لا يمكن عقلًا تصوره إلّا عن طريق الخبر (أي: الوحي). يقول محمد الصادقي: «فالإله لا يُدرك بالإحساس المادي ومُحال أن يُدرك به ذاتيا، إذ إن التماس إدراكه بالحواس التماسٌ لإدراك الشيء بغير ما يلائمه ويناسبه من وسائل الإدراك، وإنما ذلك كمن يريد الاستماع بالبصر والرؤية بالسمع والذوق باللمس، بل أبعد منه وأضل سبيلا! إذ إن المحدود لا يستطيع الإحاطة باللامحدود»[1].

إنَّ العقل يستطيع من خلال أوليّاته البدهية، ومن خلال الأدلة النظرية والخبرية والحسية أن يستنتج وجودًا لله ﷻ كما يُمكنه استنتاج أيضًا بعض صفات الكمال لله - تعالىٰ - كالقدرة والوحدانية والحكمة والتعالي والعلم والإرادة وغير ذلك، كما يستطيع العقل أيضًا إدراك أنَّ الوحي مرسلٌ من الله ﷻ، وأنَّ النبوات هي رسالات الله للبشر، وأنَّ النبي ﷺ هو خاتم الأنبياء.

لكنَّه يعجز تمامًا عن تخيُّل الغيب برسم صورة له في الذهن، كذات الله والجنة والنار والقبر والجن والملائكة والصراط ويوم القيامة وموازين القسط وغير ذلك، فكل هذه الأمور غيبيات يعجز العقل عن تصورها؛ لأنَّ المدركات الحسية لم تختبر أبدًا ما هو وراء الطبيعة؛ ولذلك كان تعريف الإمام القرطبي للغيب بأنَّه: «كل ما أخبر به الرسول ممَّا لا تهتدي إليه العقول»[2].

---

(١) محمد الصادقي، (حوار بين الإلهيين والماديين)، مرجع سابق، ص (٣٨ و٧٥).

(٢) القرطبي، (الجامع لأحكام القرآن)، تحقيق: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، (٢٠٠٦م)، (١/ ٢٥٢).

وكُلَّما حاول العقل التوسع في التفكير في الغيبيات أتىٰ بالعجائب، وقد حاول فلاسفة اليونان وعلىٰ رأسهم أرسطو وسقراط التفكير في الغيبيات، فجاءوا بأمور يعجب الإنسان كيف تصدر عن أمثال هؤلاء العقلاء، وبكل أسف عندما تمت ترجمة كتب الفلسفة اليونانية وانتقلت إلىٰ العالَم الإسلامي تأثَّر العديد من المسلمين بها، واختلطت العقائد الإسلامية الصافية بلوثات العقول الطامعة فيما لا قدرة لها عليه، فسلك المسلمون مسالك الكلام والفلسفة، واشتغلوا بالتوسع في التفكير في الغيبيات، فمثّلوا الصفات تارة وجسّدوها تارة، وأتوا بالعجائب والمصائب؛ لأنَّه ليس هناك مجال للعقل أصلًا في الغيبيات، وإنَّما عليه التسليم بما جاء في الخبر (أي: الوحي) فحسب، ومن ثَمَّ كان ابن رجب - وغيره - يعتبر محاولة الإحاطة بصفات الله من حيث النظر العقلي فحسب من الضلالات المبتدَعة، يقول ابن رجب: «ومن ذلك - أعني محدثات الأمور - ما أحدثه المعتزلة ومَن حذا حذوهم في الكلام في ذات الله - تعالىٰ - وصفاته بأدلة العقول»[1].

فالانشغال بالبحث والنظر والتفكير في الغيبيات وخصوصًا في صفات وذات الله - تعالىٰ - يُعتبر «كالبحث عن كيفية ما لا تُعلم كيفيته؛ فإنَّ العقول لها حدٌّ تقف عنده، وهو العجز عن التكييف لا يتعداه، ولا فرق بين البحث في كيفية الذات وكيفية الصفات، لذلك قال العليم الخبير: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ (الشورىٰ: ١١)»[2].

---

(١) ابن رجب، (فضل علم السلف علىٰ الخلف)، المطبعة المنيرية، القاهرة، (١٣٤٧هـ)، ص (١٧).

(٢) القرطبي، (المفهم لِمَا أُشكِل من تلخيص كتاب مسلم)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب،=

لذا: فإنَّ المسلم يتوقَّف في أمور الغيب علىٰ ما جاء به الوحي، ولا يشتغل بالغيبيات غير الممكن تصورها، وهذا هو مذهب السلف من الصحابة والتابعين، ومَن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، كما يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «الأصل الذي عليه سلف الأمة في الإيمان بعالَم الغيب: أنَّ كل ما ثبت في الكتاب والسُّنَّة فهو حقٌّ لا ريب فيه، نؤمن به، ولا نحكِّم رأينا في صفته وكيفيته»[1].

وختامًا؛ فإنَّنا يُمكننا إجمال الأدلة العقلية لوجود الله وصفاته فيما أوردنا علىٰ النحو التالي:

(١) البرهان الكوني/ برهان الحدوث[2]: إذ ثبُت أنَّ الكون حدث بعد أن لم يكن؛ فلا بُدَّ من وجود موجود (واجب الوجود) رجّح وجود الكون علىٰ عدمه، وهذا الموجود الأول لا بُدَّ عقلًا أن يكون خارج النسق الكوني، ولا يتحدد بحدود المادة أو الزمان أو المكان والمخلوقَين، ولا يحل فيهم، وهو واحدٌ أحدٌ مطلق الكمال لا شبيه ولا شريك له، ليس بمحدَث ولا مخلوق، وهذا البرهان نستدل به «لإثبات وجود واجب الوجود، لا إثبات صفات هذا

=بيروت، (١٩٩٦م)، (٦/ ٦٩٠-٦٩١).

(١) محمد رشيد رضا، **(تفسير المنار)**، مصر، طبعة المنار، (١٣٦٦هـ)، (٨/ ٣٢٣).

(٢) ويُسمّىٰ أيضًا دليل الخلق، أو الإيجاد، أو الاختراع، أو المحرك الأول، أو الدليل الكلامي، أو الكوني، أو الكوزمولوجي، أو غير ذلك من الأسماء. عبد الله العجيري، **(شموع النهار)**، مرجع سابق، ص (٩٥).

الموجود»[1].

(٢) برهان فترة الترك: إذا كان الخالق الموجود منذ الأزل قد بدأ خلق الكون منذ (١٣٫٧ مليار سنة)، فلماذا بدأ الخلق في هذه النقطة الزمنية تحديدًا؟! لا بُدَّ أنَّ ثمة (إرادة) لدىٰ الموجود الأول أنشأت الكون عن طريق الإرادة والاختيار لا عن طريق الضرورة والإلزام[2].

(٣) برهان النظم: وهو ما سمَّاه ابن رشد (دليل العناية)[3]؛ فبدلًا من أن نجد فوضىٰ عارمة نتيجة انفجار الكون تبعثر القوانين والذرات والجسيمات تحت الذرية في الفضاء بشكل عشوائي غير منظم، نجد أنَّ الكون تم ضبطة بشكل فائق الدقة، وتم إيداع القوانين الفيزيائية فيه بطريقة متناهية الضبط؛ لتسمح بوجودنا وبحياتنا بطريقة غاية في التنظيم، وكل نظام يحتوي علىٰ علة غائية، والنظام الكوني يدلُّ علىٰ صفات الحكمة، والعلم، والقدرة لدىٰ خالق الكون[4]، ممَّا يدلُّ أيضًا أنَّ الكون قد خُلق لغاية معينة.

(٤) برهان نشأة الحياة: ومفاده أنَّ الحياة لا يُمكن أن تنشأ نتيجة

---

(١) المرجع نفسه، ص (١٣٦).

(٢) عمرو شريف، **(رحلة عقل)**، مرجع سابق، ص (١٣٦).

(٣) انظر: ابن رشد، **(الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة)**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (١٩٩٨م)، ص (١١٨).

(٤) الحديث حول هذه النقطة يُسمىٰ أحيانًا برهان الضبط الدقيق (Fine - tuned universe)، وهو في رأيي من أمتع الأحاديث إطلاقًا، والتي يقف المرء أمامها عاجزًا أمام قدرة الله المطلقة، للاستزادة، انظر: عمرو شريف، **(رحلة عقل)**، و: (Sir Martin Rees: Just six numbers).

للقوانين الطبيعية فحسب، بل يجب أن تتدخل قوة خارجية لتحدثها في الطبيعة، وسنتعرض لهذه المسألة في الأسطر القادمة - بإذن الله -.

وننبه هاهنا أن الدلائل علىٰ وجود الله - تعالىٰ - كثيرة، وقد قيل: «**إن لله طرائق بعدد أنفس الخلائق**»، فلا ينبغي حصر الدلائل علىٰ مسألة وحدة أو مسألتين، بل إن الأمر فيه سعة، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولما كانت طرق معرفة الله والإقرار به كثيرة متنوعة، صار كل طائفة من النظار تسلك طريقًا إلىٰ إثبات معرفته، ويظن أنه لا طريق إلا تلك، وهذا غلط محض، وهو قول بلا علم»[1]. ولكننا حاولنا قدر المستطاع عرض المسألة بتبسيط غير مخلّ، حتىٰ لا نشغل القارئ بكثير جدالات واستدلالات.

وبهذا نكون قد انتهينا من مسألة وجود الله، وهي أهم قضية في هذا الكتاب، بل هي أهم قضايا الوجود أصلًا، ونختم هذه الجزئية بمقولة نفيسة للشيخ مصطفىٰ صبري رحمه الله حيث يقول: «**فرأس الدين هو الاقتناع بوجود الله، وأكبر شبهة الشاكين في الدين يكون في وجود هذا الرأس. وبعد الاقتناع بوجود الله فكل مشكلة سهلة الحل**»[2].

* * *

---

(١) ابن تيمية، (**درء تعارض النقل والعقل**)، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، (١٩٩١م)، (٣/ ٣٣٣).

(٢) مصطفىٰ صبري، (**موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين**)، مرجع سابق، ص (٦٣).

الباب الثالث: نشأة الحياة...

س: كيف بدأت الحياة؟!

لا توجد نقطة محددة متفق عليها يُمكننا القول إنَّ الحياة بدأت عندها علىٰ كوكب الأرض، والوصول إلىٰ هذه النقطة المحددة أمرٌ مستحيلٌ علميًّا؛ لأنَّ هذا الأمر حدث منذ ملايين أو مليارات السنين، ولا سبيل لإيجاده بصورة دقيقة، فالظروف البيئية المحيطة بنشأة الحياة الأولىٰ والعناصر الكيميائية الموجودة وقتها والقوانين الفيزيائية التي حكمت تلك الفترة، كل ذلك مجهول بالنسبة إلينا، ومن ثَمَّ يستحيل افتراض نظرية (علمية) نهائية حول نشأة الحياة؛ لذا تقول الأحيائية يوجيني سكوت (Eugenie Scott): «لا يوجد إجماعٌ بشأن كيفية نشأة الكائنات الحية الأولىٰ»[1].

ونُشير هنا إلىٰ محاولة بائسة وتجربة شهيرة سُميت بتجربة يوري وميلر (Miller-Urey Experiment) ادّعت أنَّها استطاعت أن تخلق الحياة عن طريق محاكاة الغازات والعناصر الكيميائية الموجودة في الطبيعة تحت ظروف معينة وولَّدت مركَّبات عضوية عن طريق اجتماع العناصر الكيميائية

(1) Eugenie Scott, Evolution VS Creationism: An introduction, Greenwood press, London 2009, P. 24.

مع بعضها البعض دون حاجة إلىٰ تدخل قوة خارجية، وظلت هذه التجربة مرجعًا للعلماء والملاحدة سنين طويلة كدليل علىٰ نشأة الحياة عن طريق بعض العمليات الكيميائية العشوائية فحسب دون الحاجة لتدخل خارجي، ولكن ما لبثت أن أثبتت التجربة خطأها؛ لأنَّه تم اكتشاف أنَّ الظروف والعناصر التي تم محاكاتها في التجربة لم تكن هي نفس الظروف التي كانت موجودة عند نشأة الحياة قبل ملايين السنين؛ **وبالتالي سقط قياس التجربة من الأساس**، والمشكلة أنَّ هذه التجربة ما زالت تستخدم في كثير من الأوساط الأكاديمية والعلمية كدليل علىٰ نشأة الحياة عن طريق العشوائية الطبيعية، كما وضَّح ذلك عالِم الأحياء الجزيئية جوناثان ويلز (Jonathan Wells) في كتابه المهم «**أيقونات التطور**» (Icons of evolution) الذي يقول فيه تعليقًا علىٰ تجربة يوري وميلر: «**وهكذا فلا زلنا نجهل تمامًا كيفية نشأة الحياة علىٰ الأرض**، ومع ذلك يستمر استخدام تجربة يوري وميلر كأيقونة أو دليل لإثبات التطور، لأنه لم يظهر شيء أفضل منها بعد، وبدلًا من إطلاع الناس علىٰ الحقيقة يتم تغييبنا وخداعنا بادعاء أن العلماء أثبتوا تجريبيًا ما هي الخطوة الأولىٰ في نشوء الحياة»[1].

بل حتىٰ إنَّنا لو افترضنا صحَّة التجربة المزعومة؛ فإنَّنا ما زلنا أمام مشكلة

---

(١) جوناثان ويلز، (**أيقونات التطور: علم أم خرافة؟**)، ترجمة: موسىٰ إدريس - أحمد ماحي - محمد القاضي، دار الكاتب، مصر، (٢٠١٤م)، ص (٤٥).

ومازالت التجربة حتىٰ الآن مقررة في كثير من الأوساط الأكاديمية الغربية كبرهان علىٰ نشأة الحياة بشكل طبيعي دون الحاجة لتدخل إلهي.

التعقيد أي تكوُّن البروتينات من الأحماض الأمينية، فالتجربة استطاعت وتحت ظروف معينة - لا تضاهي ظروف جو الأرض البدائي - أن تكوِّن الأحماض الأمينية، ولكنَّها لم تستطع أن تكوِّن البروتينات المعقدة، وفي أحد مقالات مجلة (الأرض) (Earth) ذكرت: «يعتقد الجيولوجيون الآن أنَّ الجوَّ البدائي قد تكوَّن معظمه من ثاني أكسيد الكربون والنيتروجين، وهما غازان أقل تفاعلًا من تلك الغازات التي استُخدمت في تجربة عام ١٩٥٣م [أي: تجربة ميلر] وحتىٰ إذا أمكن لجوّ ميلر أن يحدث، كيف يتسنىٰ لك أن تجعل جزيئات بسيطة مثل الأحماض الأمينية تمر بالتغيرات الكيميائية اللازمة التي ستحولها إلىٰ مركبات أكثر تعقيدًا أو بوليمرات مثل البروتينات؟ ميلر نفسه عجز عن حل ذلك الجزء من اللغز، وقد تنهد قائلًا بسخط: «إنَّها مشكلة! كيف تصنع البوليمرات؟ لا يتم الأمر بكل هذه السهولة»»(1).

وبغض النظر عن تجربة ميلر؛ فإنَّه نتيجة لجهلنا العميق بالمناخ الطبيعي الذي كان سائدًا منذ مليارات السنين؛ فلا يُتوقع من أي عالِم كان أن يتوصل إلىٰ القوانين المصاحبة للحظة نشوء الحياة فضلًا عن تفسيرها، بل إنَّ أحد التطوريين وهو أندرو كنول (Andrew Knoll) أستاذ التاريخ الطبيعي والحفريات بجامعة هارفارد، يعترف بأنَّ فترة نشوء الحياة هي أبعد ما تكون عن العلم! فيقول: «إذا أردنا تقييم آخر ما توصل إليه العلم حول نشأة الحياة، وجدنا أنَّنا ما زلنا لا نعرف متىٰ بدأت الحياة بالتحديد، ولا نعرف تحت أي ظروف ظهرت الحياة، ولا نعرف كيف بدأت الحياة علىٰ

---

(1) Earth, Life's Crucible, February 1998, P. 34.

هذا الكوكب»[1].

صدق الله القائل: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ ﴾ (الكهف: ٥١).

وعلىٰ أية حال فإن مجال علمنا في هذه الفترة محدود للغاية، وبعض التقديرات تقول بأنَّ العمر المفترض لكوكب الأرض هو (٤.٥ مليار سنة)، ففي البداية كانت الأرض كتلة كربونية، ثم بدأت النيازك المحمَّلة بالحديد الناتجة عن انفجار النجوم تهبط علىٰ الأرض فتخترق سطح الأرض لتستقر في مركزها، حتىٰ تصلبت طبقات الأرض بعد عدة عمليات لمدة (٧٠٠ مليون سنة)، أي حوالي قبل (٣.٨ مليار سنة) من الآن، وهو الوقت المزعوم لظهور الحياة علىٰ الكوكب، وأمام هذا الظهور المفاجئ للحياة علىٰ الأرض «ثمة طرحان لتفسير نشأة الحياة، إمَّا أن نكون قد تطوّرنا من المواد الميّتة غير الحية، وإمَّا أن نكون قد خُلقنا بطريقة مقصودة، لا يوجد خيارات أخرىٰ»[2].

وحاليًا يتم تداول ثلاثة تفسيرات:

- **التفسير الأول** يقول: إنَّ الحياة نشأت عن طريق الصدفة واجتماع العناصر الكيميائية غير الحية مع بعضها البعض بشكل عشوائي، فكوَّنت أول

(١) نقلًا عن: د. عمرو شريف، **(رحلة عقل)**، مرجع سابق، ص (١٠٣).

(2) Nicholas Comninellis & Joe White, Darwin's Demise: Why Evolution Can't Take the Heat, Master Books, USA, 2002, P. 129.

كـائن حـي علـىٰ كوكـب الأرض، فيمـا يُـسمىٰ بنظريـة التولّـد التلقـائي (Biopoiesis)، أو (Abiogenesis).

- **والتفسير الثـاني** يقـول: بنـشوء الحيـاة عـن طريـق اجتمـاع العناصـر الكيميائيـة أيـضًا، ولكـن خـارج الأرض، ولـيس عليهـا، ثـم قامـت الأجـرام والنيـازك بحمـل هـذه الكائنـات الحيـة علـىٰ ظهورهـا، وبعـد اصـطدام هـذه الأجسام بالأرض استقرت هـذه الكائنـات الحيـة علىٰ الأرض، فيمـا يُـسمىٰ بنظرية التبذُّر الشامل (Panspermia).

- **أمَّا التفسير الثالث** فيقول: إنَّ الله ﷻ خلق الحياة خلقًا مباشرًا بطريقـة إعجازية خارقة للطبيعة متجاوزة لقوانين المادة، سواء علىٰ سطح الأرض أم خارجها.

ولنناقش التفسيرين الأول والثاني نطرح سؤالًا: هـل يمكـن للـصدفة أن تحدث الحياة؟!

يُمكننا الإجابة علىٰ هذا السؤال عند النظر إلىٰ صفات أول كـائن حـي مفـترض يمكـن ظهـوره علـىٰ الأرض، فـشرط وصـف شـيء بأنَّـه (حـي) أن يتضمن علىٰ الأقل خلية واحدة، تمتلك القـدرة علـىٰ التكـاثر، وتحمـل نظامًـا للتشفير ومعالجة المعلومات، فالخلية هـي وحـدة الحيـاة، ورغـم أنَّ تعريـف (الحياة) ما زال لغزًا لـم يتوصل إلىٰ تحديده لا الأحيـائيون ولا الفلاسـفة؛ إلَّا أنَّنا سنتجاوز هذه النقطة استكمالًا للنقاش.

والخليـة الواحـدة - كمـا هـو معلـوم - هـي كيـانٌ مركـبٌ شـديد التعقيـد يحتـوي علـىٰ النـواة والريبوزومـات والأحمـاض النوويـة والجـدار الخلـوي

والجزئيات المنتجة للطاقة إلخ، وبدلًا من أن نناقش استحالة حدوث كل مركب للخلية علىٰ حدة عن طريق الصدفة، لنأخذ مثالًا واحدًا وهو جزيء البروتين الواحد الذي يُصنع منه الإنزيمات ويُشارك في استنساخ الأحماض النووية وغير ذلك من البنىٰ والوظائف الخلوية، فهو مركب رئيس وتأسيسي في حياة أية خلية حية، ولنرَ ما مدىٰ إمكانية نشوء ذلك المركب البسيط عن طريق الصدفة والعشوائية الطبيعية فحسب، فما هي احتمالية ظهور ذلك المركب (جزيء البروتين) بالصدفة؟!

جدير بالذكر أنَّه حتىٰ لو تقبّلنا نشوء الجزيء البروتيني عن طريق الصدفة الطبيعية، فثمة ثلاث عقبات تواجه الجزيء البروتيني حال تكوُّنه تمنعه من الاستمرار وتدفعه إلىٰ الموت لا إلىٰ التكاثر: **العقبة الأولىٰ**، تتمثَّل في أنَّه يلزم لأبسط خلية يمكن تواجدها عدد معيَّن من الإنزيمات المكوَّنة من البروتينات بالإضافة إلىٰ الأحماض النووية (DNA)، حتىٰ تستطيع الخلية الحياة والبقاء، كما يقول الملحد الشهير **ريتشارد دوكنز** (Richard Dawkins): «المعضلة بشأن نشأة الحياة هي أنَّ الـ(DNA) يمكنه التناسخ، لكنَّه يحتاج إلىٰ إنزيمات لتسريع العملية، البروتينات يمكنها تسريع تكوين الـ(DNA)، لكنَّها تحتاج إلىٰ (DNA) لتحديد التسلسل الصحيح للأحماض الأمينية»[1]، فكلا المركبين لا يمكن تواجد أحدهما دون الآخر.

والعقبة الثانية لبقاء الجزيء البروتيني الأول المزعوم، هي طبيعة مركب

---

(1) Richard Dawkins, The Greatest Show on Earth: The evidence for evolution, Free Press, New York, 2009, P. 420.

البروتين الذي يميل إلىٰ التفكك داخل المياه بسبب التحليل (Hydrolysis)[1].

أمَّا العقبة الثالثة، فهي أنَّ الجزيء البروتيني يتفاعل بشكل هدَّام مع المكوِّنات الأخرىٰ داخل الوسط البيئي المزعوم الذي نشأت فيه الحياة[2]، وعلىٰ أيَّة حال فهذه مجرد معضلات لما بعد تكوُّن الجزيء البروتيني، لكن لنمضِ في احتمالية نشوء ذلك الجزيء عن طريق الصدفة ابتداءً دون اعتبار هذه المعايير الثلاثة.

بخصوص الاحتمال الأول الذي يقول بتكوُّن الحياة علىٰ الأرض؛ فقد أجرىٰ العالمان والتر برادلي وتشارلز ثاكستون - وكلاهما متخصصان في علوم الكيمياء - حسابًا لاحتمال تكوين بروتين متوسط الحجم عن طريق الصدفة من خلال ارتباط العناصر الكيميائية لتشكل الأحماض الأمينية، ثم البروتينات، فوجدا أنَّ احتمال تكوين جزيء بروتيني واحد بواسطة أسرع معدَّل طبيعي ممكن للتفاعلات الكيميائية في خمسة مليارات سنة (أي: بمليار سنة ونصف أكثر من عمر الحياة علىٰ الأرض) تساوي نسبة واحد إلىٰ (١٠ أس ٤٥)، وهو رقم يتعدَّىٰ حدَّ الاحتمال الممكن بقانون بوريل بأشواط، وقانون بوريل هذا يقول إنَّ: «أي احتمالية تقلُّ نسبة حدوثها عن مقلوب (١٠ أس ٥٠)؛ فإنَّ عمر الكون كله لا يكفي لحدوثها»[3]، وبالنظر

---

(1) Sarfati, J., Origin of life: The polymerization problem, J. Creation 12(3), 1998, P. 281 - 284.
(2) Bergman J., Why the Miller: Urey research argues against abiogenisis, J. Creation 18(2), 2002, P. 74-82.
(3) Emile Borel, Probabilities and Life, New York, Dover. 1962, P. 28 - 30.

إلىٰ زمن إمكانية نشوء الحياة المحدود (حوالي ٣.٥ مليار سنة أي حوالي ربع زمن الكون كله)، بل حتىٰ العمر المتخيل في التجربة (٥ مليارات سنة) قياسًا بعمر الكون؛ فإنَّ هذا القانون ينفي تمامًا أية احتمالية للصدفة، ويُؤكِّد باستحالة نشوء جزيء بروتيني واحد بشكل عشوائي في عمر الأرض كله، فضلًا عن مئات وآلاف البروتينات التي تحتاجها أبسط خلية في الوجود حتىٰ تستطيع ممارسة وظائفها في الحياة بشكل يضمن لها البقاء، ومن ثَمَّ فقد قال هذان العالمان: «**من الواضح أنَّ (الصدفة) يجب إهمالها كنموذج مقبول لتشفير المركبات الضرورية للأنظمة الحية، في الحقيقة لقد تم إهمالها بالفعل، إلَّا في الكتب المدرسية والشعبية**»[1].

هل سيكتفي الملاحدة ويعلنوا استسلامهم؟! بالتأكيد لا! هؤلاء الماديون المتشربون للنزعة العلموية لن يجنحوا أبدًا لتفسير نشوء الحياة بقدرة الله المطلقة، وإنَّما سيلجئون إلىٰ الحِيل والمخارج كي يتسقوا مع ماديتهم ولا يُقِرُّوا أبدًا بوجود الله. **ولهذا** ظهر التفسير الثاني لنشوء الحياة لـمَّا تبيَّن فشل الصدفة في تكوين الحياة علىٰ الأرض، فزعموا أنَّ الحياة نشأت عن طريق الصدفة أيضًا، ولكن ليس علىٰ ظهر الأرض، وإنَّما خارج كوكب الأرض، ثم انتقلت إلىٰ الأرض مع الشهب والنيازك!

وهذا هو الاحتمال الثاني المسمَّىٰ بنظرية التبذُّر الشامل (Panspermia)، والتي تفترض أنَّ الحياة البسيطة - كالخلايا، أو البكتيريا، والميكروبات -

---

(1) Charles Thaxton & Walter Bradley, The Mystery of Life's Origin. Texas, Lewis and Stanley, 1992, P. 145-146.

والتي تتحمل الحرارة الشديدة ومناخ الفضاء قد تكوّنت من المادة غير الحية عشوائيًّا واستقرَّت في أجسام الشهب والنيازك، ثم اصطدمت هذه النيازك بسطح كوكب الأرض أثناء فترة تشكّله كوكب، فلبثت هذه الكائنات الحية علىٰ الأرض لتتكاثر وتتطور إلىٰ يومنا هذا!

وقبل أن ندحض هذا القول علميًّا؛ يجدر الإشارة إلىٰ أنَّه وللمرة الثانية - بعد نظرية الأكوان المتعددة - يأتي الماديون لا بنظرية علمية يمكن تجريبها، وإنَّما بتخمين يحتاج إلىٰ الإيمان، وكأن العلم صار - بحق - غطاءً للفجوات! وقد قرَّرنا من قبل أنَّه لا يصحُّ الاستدلال بشيء غائب علىٰ شيء غائب، وإنَّما الاستدلال بشيء حاضر علىٰ شيء غائب، وهذا الافتراض المتوهم بالتبذُّر الشامل لا يمكن اختباره، ولا قياسه، ولا إعادة تجربته، ولا إثبات صحته أو حتىٰ خطئه، ورغم عدم علمنا لا بظروف كوكب الأرض ولا بالمناخ السائد منذ ملايين السنوات، ولا بأي شيء حول قابلية كوكب الأرض لقيام الحياة عليه؛ فإنَّ هؤلاء الملاحدة قفزوا إلىٰ شطح بعيد جدًّا عندما قالوا: «إنَّ الحياة نشأت خارج الأرض، وليس عليها»، فإذا كنا لا نعلم تقريبًا أي شيء حول الحقبة الأولىٰ للأرض، فأنَّىٰ لنا أن نعرف ما سواها حتىٰ نفترض أمورًا حدثت خارج الأرض من الأساس؟!

لذا فإنَّنا نلاحظ أنَّ هذا الافتراض بالتبذر الشامل يتهرَّب من ذات المشكلتين الأساسيتين حول نشأة الحياة التي تواجههما نظرية التولد التلقائي: المشكلة الأولىٰ، هي الجهل التام بالمناخ الذي ظهرت فيه الحياة بالإضافة إلىٰ الجهل التام بظاهرة (الحياة) من الأساس، والتي لا يُعرف علىٰ

وجه التحديد ماهيتها، فضلًا عن تفسير ظهورها، بل حتىٰ لو سلَّمنا بالفعل بوجود بعض البكتيريا خارج الأرض قبل تشكّل كوكب الأرض؛ فإنَّ المشكلة الثانية هي السؤال الذي ما زال مطروحًا وعالقًا أمام الملاحدة: كيف وُجدت هذه الحياة الأولىٰ من الأساس؟!

وعلىٰ كل حالٍ؛ فلا مانع من مناقشة هذه النظرية علميًّا، فقد أجرىٰ عالم الطبيعة السويسري (تشارلز يوجين جاي)، حسابات رياضية حسب فيها احتمالية نشوء جزيء بروتين واحد بالصدفة، وبعد إجراء العمليات الحسابية انتهىٰ إلىٰ أنَّ احتمال نشوء جزيء بروتيني واحد بسيط جدًّا عن طريق الصدفة بحساب كل القوانين الكيميائية الممكنة في الكون هو (٢.٠٢) مضروبة في (١٠ أس ٢٣١)، ولا أنصح القارئ بمحاولة تخيل هذا الرقم؛ لأنَّه رقم لا يُتخيل من الأساس، ولو افترضنا ظروفًا فيها (٥١٠١٤ اهتزازة) في الثانية الواحدة لكان خلق مثل هذا الجزيء البروتيني بالصدفة يحتاج إلىٰ (١٠٢٤٣ مليار سنة)، أي حوالي ألف ضعف عمر الكون مجتمعًا!»[1].

ثمة تجارب وحسابات أخرىٰ أجراها عدد من العلماء الطبيعيين، ولنتناول حسابات دوغ آكس الحاصل علىٰ الدكتوراه في البيولوجيا الجزئية من معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا، والتي حاول فيها أن يفسر كيف ينشأ جزيء بروتيني متوسط الحجم عن طريق الصدفة، علمًا بأنَّ أقل عدد ممكن من البروتينات التي يجب تواجدها معًا حتىٰ يمكن تفعيل وظيفة الخلية الحية هو

---

(١) نقلًا عن: علي عزت بيجوفيتش، (الإسلام بين الشرق والغرب)، مرجع سابق، ص (٩٣).

(٣٠٠ بروتين) وأبسط أنواع الكائنات الحية تحتوي على (٢٠٠٠ بروتين) على الأقل، «ويذكر أنَّ بكتيريا (Mycoplasma genitalium) تحتوي على أصغر كمٍّ معروف من المواد الجينية بواقع (٥٨٠ ألف) زوج قاعدي في (٤٨٢) جين»[1]، لكن دوغ قرَّر حساب جزيء بروتيني واحد فقط، **فكان الحساب كالتالي:**

(١) يوجد (٢٠٠ نوع) من الأحماض الأمينية في الطبيعة، ولا تحتوي الخلية الحية إلَّا على ٢٠ منها فقط، ولا بُدَّ من ترتيب هذه الأحماض بشكل معين حتى يتسنَّى للبروتين أن يكون فعَّالًا، والخطأ الواحد في ترتيب الأحماض ينتج بروتينًا غير فعَّال، بل ربما ينتج بروتينًا قاتلًا، فأجرى عالم الأحياء الجزيئية دوغ آكس (Doug Axe) حسابًا لنشأة بروتين واحد فقط متوسط الحجم مكونًا من (١٥٠) حمض أميني عن طريق الصدفة الطبيعية، علمًا بأنَّ هناك بروتينات تحتوي على (٥٠٠) حمض أميني، و(١٠٠٠) حمض أميني، وأكثر من ذلك بأضعاف، لكن بالنسبة لبروتين مكوَّن من (٢٠٠) حمض أميني؛ فإنَّ دوغ قد انتهى إلى أنَّ نسبة نشوء هذا الجزيء البروتيني عن طريق اجتماع العناصر الكيميائية بشكل عشوائي هي نسبة (١ إلى ١٠ أس ٧٤).

(٢) لكن ثمة عقبة أخرى يجب تجاوزها بجانب انتقاء الأحماض الأمينية وترتيبها ترتيبًا صحيحًا، ألا وهي أنَّ الأحماض الأمينية يجب ربطها

---

(1) Fraser, CM, The minimal gene complement of Mycoplasma genitalium, Science, 270(5235), 1995, P. 397 - 403.

بروابط بيبتيدية لا برابطة أخرىٰ، حتىٰ يعمل البروتين، وأي رابطة غير الرابطة البيبتيدية تنتج بروتينًا غير فعال، كالروابط الهيدروجينية أو التساهمية، ونسبة تكوين الروابط البيبتيدية بين حمض أميني وحمض آخر هي نسبة (١ إلىٰ ٢)؛ بالتالي إذا افترضنا أنَّ نفس الجزيء البروتيني متوسط الحجم يتكون من (١٥٠) حمض أميني فقط، فسنحتاج إلىٰ احتمالية قدرها (١ إلىٰ ٢ أس ١٥٠) لتكوين الجزيء البروتيني بشكل سليم، و(٢ أس ١٥٠) تساوي (١٠ أس ٤٥).

(٣) **العقبة الثالثة والأخيرة:** هي أنَّ الأحماض الأمينية يجب ترتيبها بشكل يساري لا يميني، فكل حمض أميني لديه متزامران ضوئيان (Optical isomers) يتواجدان في الطبيعة كمرآة لبعضهما البعض، وجميع البروتينات في الكائنات الحية تتكون من الأحماض اليسارية فحسب حتىٰ تعطي الشكل ثلاثي الأبعاد للبروتين، ممَّا يسمح له بالطيِّ، وأي حمض أميني يميني يفسد البروتين بالكلية، ممَّا يعني ظهور احتمالية أخرىٰ تساوي (٢ أس ١٥٠)، أي (١٠ أس ٤٥).

وبجمع الاحتماليات السابقة يتَّضح أنَّ احتمالية تكوين جزيء بروتيني متوسط الحجم عن طريق الصدفة وحدها تساوي (١ إلىٰ ١٠ أس ١٦٤)، أي (١٠ بجانبها ١٦٤ صفرًا)[1].

لكن الملفت في الحقيقة ليس في أنَّ عمر الأرض كله لا يسمح بتكوين

---

(١) نقلًا عن: وثائقي: العلامات The signs:

https://www.youtube.com/watch?v=0 - K62WnjZ1M

هذا الجزيء البسيط فحسب، بل إنَّ زمن الكون كله منذ نشأته لا يسمح لهذه الصدفة أن تقوم! فقد وضع العالِم ويليام ديمسكي - صاحب شهادات الدكتوراه في الفلسفة والرياضيات - قانونًا سمَّاه حدَّ الاحتمالية الكونية الممكنة (Universal probability bound)، ويعني به أنَّ عدد الدقائق الذرية في الكون بحساب أصغر وحدة زمنية ممكنة كونيًّا - وهي وحدة بلانك (Planck's time) - هو (١٠ مرفوعة لأس ١٥٠)، وقال إنَّه لا يمكن لأي احتمالية تفوق نسبة حدوثها علىٰ هذا الرقم أن تحدث خلال عمر الكون بأسره، وكل احتمالية تفوق هذا الرقم فهي إذن في حكم المستحيل؛ لأنَّه لا يوجد وقت كافٍ في الكون لحدوثها أصلًا، ومن ثَمَّ تساوي الاحتمالية في الحقيقة صفرًا[1]، وتفصيل الحسابات كالتالي:

(١) عدد الثواني التي مرَّت منذ الانفجار الكبير هي (١٠ أس ١٧) منذ حوالي (١٤ مليار سنة): ٦٠ ثانية / دقيقة × ٦٠ دقيقة / ساعة × ٢٤ ساعة / يوم × ٣٦٥ يوم / سنة × ١٤ مليار سنة = ٤.٤ × ١٠ أس ١٧ ثانية.

(٢) عدد الأحداث الكمِّية (Quantum events) الممكنة في الثانية الواحدة مشتقة من الوقت الذي يحتاجه الضوء للسفر في أقل وحدة مكانية، وأقل وحدة مكانية هي طول بلانك (Planck's length)، وتساوي (١٠ أس سالب ٣٣ سنتيمتر)، وأقل وحدة زمنية يحتاجها الضوء للسفر في طول بلانك هي زمن بلانك (Planck's time)، وتساوي (١٠ أس سالب ٤٣ من

(1) See: William Dembski, Intelligent Design: The Bridge Between Science & Theology, InterVarsity Press, Illinois, 1999, P. 166.

الثانية)[1].

وعليه: فإنَّ أقصىٰ أحداث/ تحولات يمكن حدوثها في الثانية الواحدة هي (١٠ أس ٤٣)، وبما أنَّ (١٠ أس ١٧ ثانية) قد مرَّت منذ الانفجار الكبير؛ بالتالي فإنَّ أقصىٰ عدد للأحداث الكمِّية منذ بدء الكون يساوي (١٠ أس ٦٠) حدث.

(٣) قدَّر الفيزيائي أرثر إدينجتون (Arthur Eddington) عبر بعض العمليات الحسابية عدد البروتونات والإلكترونات في الكون بحوالي (١٠ أس ٨٠) جزيء، وهو ما تم إقراره علميًا لعشرات السنوات كمجموع الجزيئيات في الكون[2]، علىٰ أنَّ بعض التقديرات الحديثة تطرح بأنَّ عدد الجزيئات يساوي (٢.٥ × ١٠ أس ٨٩).

(٤) وبِناءً علىٰ كل ما سبق؛ فإنَّ حدَّ الاحتمالية الكونية الممكنة (Universal probability bound) يُساوي (١٠ أس ١٧ × ١٠ أس ٤٣ × ١٠ أس ٨٠ = ١٠ أس ١٤٠). وفي حال الحدِّ الأقصىٰ المقترح للجزيئات (أي: ١٠ أس ٨٩)؛ فإنَّ الحدَّ يساوي (١٠ أس ١٤٩)، وأي احتمالية تتجاوز هذا الرقم لا يمكن حدوثها أبدًا.

فإذا كان حدُّ نشوء جزيء بروتيني واحد فقط عن طريق الصدفة والعشوائية يساوي (١٠ أس ١٦٤)، وهو ما يتخطىٰ حدَّ الاحتمالية الممكنة بأشواط؛ فإنَّه إذن يستحيل نشوء جزيء بروتيني عن طريق الصدفة، وهذا ما

---

(1) William Dembski, The Design Inference: Eliminating Chance Through Small Probabilities, Cambridge University Press, USA, 1998, P. 209.
(2) Louis Narens, Theories of Meaningfulness, Lawrence Erlbaum Associates, New Jersey, 2002, P. 35.

أكَّده الكيميائي الحائز علىٰ جائزة نوبل في الكيمياء مانفرد إيجن عندما قرَّر: «إنَّ جميع المياه علىٰ كوكبنا ليست كافية لكي تنتج بطريق الصدفة جزيئًا بروتينيًا واحدًا، حتىٰ ولو كان الكون كله مليئًا بمواد كيميائية تتحد بعضها مع بعض بصفة دائمة؛ فإن البلايين العشرة من السنين منذ نشأة الكون لم تكن كافية لإنتاج أي نوع من البروتين»[1]، وهو ما قرَّره أيضًا الكيميائي الشهير ميشيل بيتمان (Michael Pitman) عندما قال: «كما هو معروف أنَّ عدد الذرات في الكون هو (١٠ أس ٨٠)، وقد مضىٰ منذ الانفجار العظيم (١٠ أس ١٧ ثانية)، واستمرار الحياة يحتاج إلىٰ نحو (٢٠٠٠) من الإنزيمات الأساسية، وعدد الاحتمالات لتكوين إنزيم واحد فقط أكبر من (١٠ أس ٢٠)، أمَّا احتمال تكوينهم جميعًا، فيصبح (١٠ أس ٤٠٠٠)، وهذا مستحيل الحدوث حتىٰ لو كان الكون كله سائلًا عضويًا»[2].

فإذا كان هذا حال تكوين جزيء بروتيني واحد فقط عن طريق الصدفة، فما بالك بالأحماض النووية والإنزيمات وملايين المركبات المعقدة التي يحتاجها الكائن الحيُّ الأول المزعوم الذي تطورت جميع الكائنات منه كما يقول الملاحدة؟! إنَّ مقالة في مجلة العالم الجديد (New scientist) تذكر: «لا يوجد شكٌّ أنَّ السلف المشترك امتلك (DNA) و(RNA) وبروتينات وشفرة جينية كونية وريبوزومات - مصانع بناء البروتينات - و(ATP) وإنزيم يتفعل بالبروتين لصناعة الـ(ATP)، كما أنَّ الميكانزمات المفصَّلة

---

(١) علي عزت بيجوفيتش، (الإسلام بين الشرق والغرب)، مرجع سابق، ص (٧٧).

(2) Michael Pitman, Adam and evolution, Rider & Company, London, 1984, P. 148.

لقراءة الأحماض النووية وتحويل الجينات إلىٰ بروتينات كانت متواجدة أيضًا. باختصار، كان السلف المشترك يتشابه مع الخليَّة المعاصرة»[1]، فإذا كانت الصدفة تمنع تكوُّن جزيء بروتيني واحد، فكيف بجميع تلك المكوِّنات الهائلة؟!

إنَّ القول بنشوء الحياة عن طريق الصدفة، سواء علىٰ ظهر الأرض أم خارجها، هو تعطيلٌ للعقل، وتغييب للمنطق، وقولٌ باهتٌ وسخيفٌ لا معنىٰ له! ورغم أنَّ خلق الحياة بطريقة إعجازية متجاوزة لقوانين الطبيعة أمرٌ بدهي، إلَّا أنَّ لدعاة التطور الدوجما الخاصة بهم التي تجعلهم يرفضون كل ما له علاقة بالإله بشكل دوجمائي! ويُعلِّق فريد هويل - وهو أحد دعاة التطور - علىٰ هذا الصنف من التطوريين فيقول: «في الواقع يعدُّ ظهور الحياة من قبل ذات عاقلة ومدركة من الوضوح بمكان، بحيث يعجب المرء لماذا لا يلقىٰ قبولًا واسعًا بوصفها إحدىٰ البدهيات... من الواضح أنَّ الأسباب نفسية أكثر منها علمية»[2].

ويبدو أنَّ رفض الملاحدة لفكرة نشوء الحياة بواسطة قوة متجاوزة للطبيعة هو رفضٌ نفسيٌ بالفعل، فعلىٰ سبيل المثال: ناقش علي دميروزي أحد أشهر المناصرين لفكرة التطور في كتابه (الوراثة والتطور) إمكانية حدوث إنزيم (سيتوكروم - س) أحد الإنزيمات الأساسية للحياة عن طريق الصدفة، فقال: «إنَّ إمكانية تشكل سلسلة (Cytochrome - C) هي صفر.

---

(1) Nick Lane, Was our oldest ancestor a proton - powered rock ?, New Scientist 204(2730), 17 October 2009, P. 38–42.

(2) Fred Hoyle & Chandra Wickramasinghe, Evolution from space, New york, Simon & Schuster, 1984, P.130.

بمعنىٰ أنَّه إذا احتاجت الحياة إلىٰ سلسلة معينة؛ فإنَّ إمكانية تحققها مرة واحدة في كل الكون هي صفر؛ وإلَّا فإنَّ قوىٰ ميتافيزيقية لا يمكن أن يصل إليها إدراكنا يمكن أن تقوم بهذا التشكيل، وقبول هذه الحقيقة الأخيرة لا يناسب العلم؛ لذلك علينا أن نبقىٰ علىٰ الفرضية الأولىٰ»[1]. فهذا مثالٌ واحدٌ فحسب ممَّن يدَّعون العلمية والعقلانية والتنوير والتقدمية وغير ذلك من المصطلحات الباهتة التي يتشدقون بها ليل نهار.

ولا قوة توازي في حقيقتها أو تُطبق عليها شرط تجاوز الزمان والمكان إلَّا القوة المطلقة للموجود الأول الذي خلق الكون من العدم، الله ﷻ، فكما خلق الكون من عدم بطريقة إعجازية لا يتصورها عقلنا، فقد خلق أيضًا الحياة علىٰ الأرض بطريقة إعجازية لا تتحملها أذهاننا: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ (الروم: ٢٧).

ونختم هذه الجزئية بمقولة للكاتب الأمريكي تيرنس مكينا (Terence McKenna): **«إنَّ العلم التجريبي المعاصر مؤسس علىٰ مبدأ: أَعْطنا معجزة مجانية واحدة، ونحن سنشرح الباقي»**[2]، أي إنَّ العلماء الطبيعيين لن يُفسِّروا نشوء الكون من العدم، وإنَّما سيكتفون بالبحث في قوانينه التي ظهرت بعد نشوئه وكفىٰ، «فمن المعروف أنَّ القانون القائل (إنَّ الطاقة لا تفنىٰ ولا تستحدث من عدم)، هو قانون صحيح في جميع الحالات إلَّا في لحظة واحدة هي اللحظة الأولىٰ لخلق الكون، في هذه اللحظة بالذات تم خرق هذا

---

(1) Ali Demirsoy, Kalitim ve Evrim (Inheritance and Evolution), Ankara, Meteksan Yayinlari, 1984, P. 61.

(2) https://www.matrixmasters.net/podcasts/TRANSCRIPTS/TMcK - ImportanceHumanBeings.html

القانون، وهذا ما تقرره الفيزياء المعاصرة، فالخلق إذن حصل من عدم محض»[1]. وكذلك لن يُفسِّر العلماء الطبيعيين نشأة الحياة بشكل إعجازي فريد، وإنَّما سيهتمون بدراسة ظواهرها فحسب، وهذا مبلغ علمهم وغاية جهدهم ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ (الروم: ٧).

فكم هو معجز خلق الكون من العدم المطلق، وكم هو معجز خلق الحياة، والحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(١) محمد باسل الطائي، (صيرورة الكون: مدارج العلم، ومعارج الإيمان)، عالَم الكتب الحديث، الأردن، (٢٠١٠م)، ص (٢١٠).

الباب الرابع: علة خلق الخلق...

س: ما هي فائدة خلق البشر؟! ولـماذا خلق الله الخلق؟!

هذا السؤال في رأيي من أخطر الأسئلة ورودًا علىٰ الأذهان، لا لطول مناقشاته، بل علىٰ العكس أرىٰ أنَّ إجابته يسيرة ولا تحتاج لكثير إيضاح، لكنَّ خطورة السؤال تكمن في مآلات السؤال، فهذا السؤال يُعتبر نافذة للولوج إلىٰ سؤال الشرِّ، وهو السؤال الذي سنفصِّله في الفصل القادم بإذن الله.

إنَّ الجواب المشهور علىٰ هذا السؤال هو تقديم الآية الكريمة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦)، ولنقم بتحرير المقال لمزيدٍ من الإيضاح.

قلنا من قبل: إنَّ الله ﷻ يتَّصف بصفات الكمال المطلقة التي استدللنا علىٰ بعضها عقلًا، كالتعالي عن الزمان والمكان والوحدانية والإرادة والحكمة والقدرة وغير ذلك، ومن ثَمَّ فإنَّ الله لا يعتريه أيُّ شكل من أشكال النقص، ولا يحتاج إلىٰ عبادة أحدٍ ولا يفتقر إلىٰ ثناء ولا حمد ولا شكر ولا ذكر ولا غير ذلك، والحديث القدسي شديد الوضوح في هذا الأمر، يقول الله ﷻ: «**يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ**

وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَٰلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»[1].

س: فإذا كان الله غير محتاج إلىٰ الخلق، فلماذا خلق الخلق؟!

قرّرنا من قبل أن الله ﷻ يتّصف بصفات الكمال المطلقة، فكان من آثار هذا الكمال أن يخلق الله الخلق حتىٰ يتجلّىٰ كمال صفات الله في خلقه.

فمقتضىٰ صفة الخلق أن يخلق، ومقتضىٰ صفة الرحمة أن يرحم، ومقتضىٰ صفة الوهاب أن يهب.

فمن يرحم الرحيم إن لم يكن ثَمَّ مخلوق؟! ومَن يرزق الرزاق إن لم يكن ثَمَّ سائل؟! ولمن يغفر الغفور إن لم يكن ثَمَّ مُستغفِر؟! وعلىٰ مَن يتوب التواب إن لم يكن ثَمَّ تائب؟! وعلىٰ من يعفو العفو إن لم يكن ثَمَّة مذنب؟! وهكذا.. وهذا معنىٰ مقتضىٰ أسمائه وصفاته ﷻ.

فصفات الله -تعالىٰ- المتعدّية تقتضي ظهور آثارها، لا لحاجة الله - تعالىٰ - لهذه الآثار، ولكن لأنَّ كمال الله -تعالىٰ- يترتب عليه ظهور آثاره في مخلوقاته، فكما أنَّ الشمس المضيئة تقتضي إشراق نورها علىٰ ما حولها دون حاجة منها لذلك، فكمال الله أولىٰ أن يكون ظهور آثاره علىٰ مخلوقاته من مقتضيات كماله لا من حاجته إلىٰ غيره.

وبما أنَّ الله ﷻ هو المتصف بصفات الكمال كلها، فهو إذن المستحق للعبودية دون سواه، فكان من كمال ربوبيته وألوهيته أن يخلق الخلق

---

(١) رواه مسلم.

ليسبّحوا بحمده ويعبدوه ويمجدوه ﷻ.

أمَّا الخلق فكان ناقصًا، فقيرًا، ضعيفًا، شاهدًا لعظمة الله ﷻ ولقدرته الكاملة، فلأجل ذلك كان الخلق مفتقرًا في وجوده إلىٰ الله ﷻ ومحتاجًا إلىٰ رحمته - تبارك وتعالىٰ -، فكان من رحمة الله ﷻ أن أخضع الخلق لعبادته: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١)، فخضع الخلق للخالق، يقدسونه ويعبدونه ويسلمون له تمام التسليم ولا يخرجون عن فلك عبادته وطاعة أوامره والامتثال لنواميسه قيد أنملة: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ (الإسراء: ٤٤)، فكل شيء في هذا الكون وخارجه قائمٌ بقيومية الله - تعالىٰ - ومؤتمرٌ بنواميسه، فهو الحي، القيوم، الشهيد، الرقيب، الحفيظ.

ولـمَّا كان الخلق كلهم، مجبولين علىٰ الطاعة ومنقادين نحو العبادة، كان هناك (الإنسان) ذلك المخلوق الوحيد الذي وهبه الله ﷻ هبة لـم يعطها لأي مخلوق قطُّ، فبعد أن خلق الله ﷻ الخلق، عرض الأمانة عليهم، والأمانة تحمل معانٍ عدة، ولكن بنفس الدلالات، فهي العقل، والقدرة علىٰ الاختيار، وحرية الإرادة، أو بشكل مجمل هي القوّة التي بها قامت التكاليف الشرعية: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب: ٧٢).

يقول ابن عباس: «يعني بالأمانة: الطاعة، وعرضها عليهم قبل أن يعرضها علىٰ آدم، فلم يطقنها، فقال لآدم: إنِّي قد عرضت الأمانة علىٰ السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذٌ بما فيها؟ قال:

يا رب، وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. فأخذها آدم فتحملها، فذلك قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾»[1].

وعرض الأمانة علىٰ الخلق تتجلىٰ فيها آثار رحمة الله، فالخلق كله - سوىٰ المكلفين - مجبولٌ علىٰ الطاعة، أمَّا من يتحمل الأمانة فمعلومٌ أنَّه إذا أُعطي مخلوقٌ ناقصٌ مهمة لينفذها، فإنَّه لن يؤدي المهمة علىٰ شكل كامل؛ لأنَّ المخلوق ناقصٌ بطبعيته، ولذا يظل الإنسان - كونه مخلوقًا - دائم الخطأ ودائم التقصير حتىٰ لو اجتهد قدر استطاعته، وعليه فإنَّ القدرة علىٰ الاختيار بين طاعة الله أو معصيته تستلزم بالضرورة أن حاملي الأمانة سيخطئون حتىٰ لو تحرَّوا أقصىٰ درجات الالتزام، وهؤلاء الذي يؤمنون بالله ويسلِّمون له تمام التسليم سيسارعون إلىٰ الاستغفار بعد الخطأ، فتتجلىٰ رحمة الله - تعالىٰ - وصفاته المتعلقة بالغفران والعفو والكرم واللطف، فتظهر آثارها علىٰ عباده، كما ذكرنا من قبل، ولهذا يقول النبي ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا، لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ، فَيَغْفِرُ اللهُ لَهُمْ**»[2]، حتىٰ تتجلىٰ صفات الله - تعالىٰ - في خلقه والله أعلم.

وقد روىٰ الثعلبي في تفسيره بإسناده عن الإمام جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه أنه سُئل عن قوله - تعالىٰ -: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا﴾ (المؤمنون: ١١٥): لمَ خلق الله الخلق؟! فقال: «لأن الله كان محسنا بما لم يزل فيما لم يزل إلىٰ ما لم يزل، فأراد الله أن يفيض إحسانه إلىٰ خلقه، وكان غنيا عنهم، لم

---

(١) ابن كثير، (تفسير القرآن العظيم)، (٦/ ٤٨٨).

(٢) رواه مسلم.

يخلقهم لجر منفعة ولا لدفع مضرة، ولكن خلقهم وأحسن إليهم وأرسل إليهم الرسل حتىٰ يفصلوا بين الحق والباطل، فمن أحسن كافأه بالجنة، ومن عصىٰ كافأه بالنار»[1].

وكان الدافع للإنسان علىٰ حمل الأمانة هو علمه بأنَّ المعروض عليه من الأمانة إنَّما هو شرفٌ عظيمٌ يحبه الله - تعالىٰ - من القائمين به علىٰ وجهه، ويثيب عليه الثواب العظيم الذي لم يهبه لمخلوقٍ قطّ، فأراد الإنسان أن يتعرض لنفحات كرم الله - تعالىٰ -، وينال مكرمة الله - تعالىٰ - له هو وذريته من بعده، كيف لا؟ وقد فضّله الله علىٰ الملائكة بما علمه من العلوم، حتىٰ أسجدهم له تكريمًا وتشريفًا لشأنه، وخصَّه بدخول جنته ودار كرامته.

وبحمل الإنسان للأمانة وامتلاكه لحرية الإرادة بين أداء التكاليف الشرعية وبين التفريط فيها، قامت خلافة الإنسان في الأرض، قال ابن جرير: «فكان تأويل الآية علىٰ هذا: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠) مني، يخلفني في الحكم بين خلقي، وإنَّ ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه. وأمَّا الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه»[2].

وبالنفخة الإلهية في آدم: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (ص: ٧٢)، حصل التكريم الإلهي للإنسان، فكان أشرف وأعظم

---

(١) نقلًا عن: كاملة الكواري، (قدم العالم وتسلسل الحوادث بين ابن تيمية والفلاسفة)، دار أسامة، عمان، (٢٠٠١م)، ص (١٥١).

(٢) ابن كثير، (تفسير القرآن العظيم)، (١/ ٢١٨).

مخلوقات الله، واستحق سجود الملائكة له تكريمًا للنفخة الإلهية التي وهبها الله إياه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء: ٧٠)، وبذا فقد تمَّ تسخير الكون كله للإنسان حتىٰ يستطيع أداء أمانته فيه ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية: ١٣).

وبعد حمل الإنسان للأمانة، أخبرنا الله ﷻ أنَّه أحضر جميع البشر قبل إيجادهم في الكون، وأشهدهم علىٰ وحدانيته - تبارك وتعالىٰ -: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ ﴾ (الأعراف: ١٧٢)، وهذا ما سمَّاه السلف بعهد أو ميثاق الذر.

س: لماذا لا أتذكر حمل الأمانة ولا عهد/ ميثاق الذر؟! أليس القرآن يُخبرنا بأنَّنا - البشر - ارتضينا بحمل الأمانة ويخبرنا بمشهد ميثاق الذر؟! فلماذا لا أتذكر هذين المشهدين الذين وقفت فيهما أمام الله - تعالىٰ - وسألني عن حمل أمانة التكليف فوافقت، ثم شهدت أنَّه لا إله إلَّا هو؟!

هذا من الأسئلة المشروعة جدًّا التي تطرح عند الاستدلال بهاتين الآيتين، وهو من الأسئلة الجيدة في رأيي.

وسبب عدم تذكرنا يتلخص ببساطة في أنَّه لو كان كل إنسان يتذكر أنَّه وقف أمام الله ﷻ، وشهد أنَّه لا إله إلَّا هو، ثم وُجد هذا الإنسان في الأرض في زمانٍ ومكان ما، لَـمَا كان هناك امتحان أصلًا، فجوهر الاختبار يتعلق بالإيمان وجوهر الإيمان يتعلَّق بالغيب، فلو كان الغيب مشهودًا ومحسوسًا وحاضرًا في ذهن الجميع لَـمَا كان الغيب غيبًا؛ وبالتالي لـم يكن هناك معنىٰ

للاختبار أصلًا، ولسقط مفهوم حرية الاختيار من الأساس، فإذا كانت الذات الإلهية والحق المطلق والدار الآخرة معلومة علم اليقين لجميع البشر، فأين يكون الاختبار؟!

ومثال ذلك: أنَّنا إذا افترضنا أنَّ مجموعة من الطلاب دخلت قاعة الامتحان، وبدأ الامتحان، لم يجز لأحد من الطلاب أن ينظر إلىٰ المرجع الذي ذاكر منه إلَّا بعد أن يفرغ من الامتحان، أمَّا خلال الامتحان، فلا يُمكنه النظر إلىٰ المرجع؛ لأنَّ النظر إلىٰ المرجع يلغي مفهوم الامتحان من الأساس.

لذلك «فإن عجزنا عن إدراك عالم ما وراء المحسوس ليس نقصًا عند إيمانويل كانط، بل هو شرطٌ ضروريٌّ لقيام الأخلاق، ولو كان الإنسان يطَّلع علىٰ المطلق مباشرة لَمَا كان حُرًّا ومختارًا في أفعاله»[1].

بالتالي لم يجز لنا أن نتذكر هذا المشهد الذي حدث في عالَم الذرّ حتىٰ يصبح للاختبار معنىٰ، وههنا نقطة مهمة؛ إذ إنَّ ميثاق الذر ليس - وحده - حجة مستلزمة للعقاب علىٰ من لم تبلغه الحجة الرسالية، فالحجة التي تستلزم التكليف والجزاء لا تقوم علىٰ الإنسان إلَّا ببلوغه رسالات الأنبياء التي تدعوه ليؤمن بالله وحده لا شريك له، فإذا أطاع أثيب، وإذا عصىٰ عوقب.

فالإيمان يقوم علىٰ الدليل. نعم؛ ربما تزيد الدلائل فيزيد الإيمان

---

(١) إلياس بلكا، (الغيب والعقل: دراسة في حدود المعرفة البشرية)، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (٢٠٠٨م)، ص (٦٠).

واليقين، لكن لن يكون أبدًا الغيب مشهودًا بالحواس، وإلَّا لسقط مفهوم الإيمان ذاته، وما أشبه من ينادون اليوم برؤية الغيب بحواسهم حتىٰ يؤمنوا به، بأقرانهم الذين قالوا لسيدنا محمد ﷺ وقبله سألوه لموسىٰ عليه السلام فذكرهم الله في القرآن: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ (النساء: ١٥٣)، وهؤلاء يطمعون في المستحيل، «**ولو أنَّهم عقلوا معنىٰ الألوهية لـما كان هناك محلّ لهذا السؤال**»[1].

س: لقد عرفنا أصل الوجود والخلق، فما هي الغاية من وجودنا كبشر؟!

هنا نستطيع أن نقول إنَّ الإنسان كونه جزءًا من خلق الله، ولكنَّه تم تفضيله من قبل الله - تعالىٰ - فوهبه - تعالىٰ - حرية الاختيار؛ فإنَّ الغاية من وجود الإنسان تتمثل في خضوعه لخالقه، كما يخضع جميع الخلق للخالق عز وجل، أي أن يدور الإنسان في فلك عبادة الله عز وجل في تناغم مع بقية الكون كله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ (الإسراء: ٤٤).

«فالرؤية الإسلامية للكون... تقف علىٰ أن الغاية من خلق الكون أن يملأه الإنسان بالقيمة الأخلاقية، وتلك هي رسالة الإنسان الكونية وسر تكريمه. والفلاح، وليس الخلاص، هو غاية الإنسان في هذه الحياة. ووزن الإنسان في الآخرة مرهون بمدىٰ إنجازه لرسالته الكونية في هذه الحياة... فالإنسان خلق لغاية واحدة هي: طاعة أوامر الله - تعالىٰ - التكليفية باختيار

---

(١) عبد المعطي بيومي، (أثر التيارات المادية في التصورات اليهودية والمسيحية)، حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية لجامعة قطر، (٣: ١٩٨٤م)، ص (١٣٧).

مسؤول. والتكليف الرباني هو أساس إنسانية الإنسان. وجوهر هذا التكليف هو الفعل الإنساني الأخلاقي. وهذا الفعل الإنساني الأخلاقي هو أساس الوظيفة الكونية للإنسان»[1].

والأمر كله كما يقول الله ﷻ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦).

ونختم هذه الجزئية ونقول: إنَّ الإنسان عندما يتحلل من المتجاوز، وينكر وجود الله أو الوحي، يصبح وجوده في العالم لا قيمة له، ويكون البحث عن غاية الوجود أمر مستحيل؛ **لذا** فقد صرح **ستيفن واينبرج** الفيزيائي الأمريكي الحائز علىٰ جائزة نوبل بأنَّه «كان متسرعًا حين صرح بإمكانية البحث عن هدف للعالم، فالعالم ليس إلَّا منظومة فيزيائية لا هدف لها»[2].

فالحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الهداية، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

س: كيف يمكن للبشر أن يدركوا غاية وجودهم؟!

إنَّ من كمال صفات الله ﷻ صفة الحكمة، ومن حكمة الله - تعالىٰ - أن خلقنا لغاية معينة، ومهمة البشر أن يدركوا هذه الغاية ويعملوا علىٰ

---

(١) إسماعيل راجي الفاروقي، **(التوحيد: مضامينه علىٰ الفكر والحياة)**، ترجمة: د. السيد عمر، ص (١٠ - ١٥).

(٢) ستيفين واينبرغ، **(أحلام الفيزيائيين بالحصول علىٰ نظرية نهائية)**، ترجمة: أدهم السمان، دار طلاس، دمشق، (٢٠٠٦م)، ص (١٩٩).

تحقيقها، ونظرًا لأنَّ الإنسان يحتاج إلىٰ إرشاد في إدراك غاية وجوده؛ لأنَّه لا يمكنه الاطلاع علىٰ الغيب مباشرة، ولأن العقل لا يمكنه أن يستقلّ بمعرفة الله معرفة كافية، إذ يعجز العقل عن الإحاطة بصفات الله وأسمائه، ولا يمكن للإنسان أن يحيط بهذا الكون علمًا، ولا يستطيع أن يتصرف في العالم تصرفًا صحيحًا بدون الاستعانة بالمنهج الإلهي، لذا فإنه من كمال صفة الحكمة أو الرعاية - التي ذكرناها من قبل - أن يبعث الله للإنسان رسلًا وأنبياء يذكرونه بغاية وقيمة وجوده في هذه الدنيا، كما يدلونه علىٰ طرائق معرفة الله وعبادته علىٰ الوجه الذي يرضيه، بالإضافة إلىٰ تأسيس المنهج المناسب للإنسان عبر الشرائع الإلهية حتىٰ يستقيم وجوده في هذا الكون.

فالله - تعالىٰ - لم يخلقنا عبثًا: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١٥)، ولم يخلق الكون عبثًا: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٦)، بل سخَّر الكون كله لنا: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية: ١٣)، حتىٰ نستطيع إتمام مهمتنا الأخلاقية فيه، فبعد أن هيأ الله - تعالىٰ - الكون لوجود الإنسان، تكتمل عنايته - تعالىٰ - بالبشر بتذكيرهم بالغاية التي خُلقوا من أجلها والهدف الذي تم إعداد الكون لاستقبالهم من الأساس، وهذا يتمُّ عبر تواصل الله ﷻ مع البشر عن طريق الرسل والأنبياء وإرسال الوحي معهم ليذكروا البشر بحقيقة دورهم في الحياة الدنيا؛ لذا كان بعث الله للرسل إلىٰ البشر مقتضىٰ من مقتضيات كمال صفاته ﷻ[1]: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ

---

(١) مستفاد من: مشاري الإبراهيم، (أربعة عقود من اليأس)، (٢٠١٥م)، ص (١٣٣).

عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ (النحل: ٢).

يقول الجاحظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو تُرِكَ الناس وقوىٰ عقولهم وغلبة شهواتهم وكثرة جهلهم وشدة نزوعهم إلىٰ ما يرديهم ويطغيهم، حتىٰ يكونوا هم الذين يحتجرون من كل ما أفسدهم بقدر قواهم، وحتىٰ يقفوا علىٰ الضار والنافع ويعرفوا فضل ما بين الداء والدواء والأغذية والسموم كان قد كلفهم شططا، وأسلمهم إلىٰ عدوهم، وشغلهم عن طاعته التي هي أجدىٰ الأمور عليهم وأنفعها لهم.. فإذا كانت عقول الناس لا تبلغ جميع مصالحهم في دنياهم فهم عن مصالح دينهم أعجز، فلما كان ذلك كذلك علمنا أنه لا بد للناس من إمامٍ يعرّفهم جميع مصالحهم وذلك هو (الرسول)، فالرسول هو الذي يشرّع الشريعة، ويبتدئ الملة، ويقيم الناس علىٰ حمل مراشدهم»[١].

يقول الدكتور أحمد الغريب: «ومعرفة العبد لمراد الرب لا يمكن أن تكون بلا وحي يعصم، إذ العقول عاجزة عن معرفة تفاصيل التكاليف، ولو افترضنا جدلا أن العقول كافية لبعض الخلق دون بعض، لما كان العقل حجة علىٰ الجميع، فالعقول تتفاوت والأفهام تختلف، فلم يصلح محاكمة العباد إلىٰ أمر مختلف في تقديره وقوته ووضوحه، **فالعقل لا يدرك تمام مراد الخالق من المخلوق**... ولاشك أن الرسالات والشرائع هي نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمنـًا، وليس المراد بالشرع التمييز بين الضارّ والنافع بالحسّ، فإن ذلك يحصل للحيوانات العجم؛ فإن الحمار

---

(١) نقلاً عن: محمد جمال الدين القاسمي، (**دلائل التوحيد**)، مرجع سابق، ص (١٤١).

والجمل يميّز بين الشعير والتراب، بل التمييز بين الأفعال التي تضرّ فاعلها في معاشه ومعاده، كنفع الإيمان والتوحيد والعدل والبر والتصديق والإحسان والأمانة والعفة والشجاعة والحلم والصبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصلة الأرحام، وبرّ الوالدين، والإحسان إلىٰ المماليك والجار، وأداء الحقوق، وإخلاص العمل لله.. ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلىٰ تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد»[1].

لذلك أرسل الله الرسل وأنزل الكتب بشارة ونذارة وهداية ونورًا للبشرية، ودلالة علىٰ الخالق وتذكيرًا بالميثاق واستثارة لفطرة التوحيد التي فطر الله الناس عليها، ولتكون هي المفزع عند اختلاف العقول، والحكم عند التنازع في مقاييس الأخلاق.

وإن من تمام حكمة الإله «أن لا يخلق خلقه عبثا، ولا يتركهم سدىٰ، لا يؤمرون ولا يُنهون، ولذلك نزه الله نفسه عن هذا في غير موضع من كتابه، وأخبر أن من أنكر الرسالة والنبوة وأن يكون ما أنزل علىٰ بشر من شيء فإنه ما عرفه حق معرفته، ولا عظّمه حق تعظيمه، ولا قدّره حق قدره، بل نسبه إلىٰ ما لا يليق به[2]»[3].

---

(١) ابن تيمية، (مجموع الفتاوىٰ)، مجمع الملك فهد، السعودية، (٢٠٠٤م)، (١٩/ ٩٩-١٠٠).

(٢) ابن القيم، (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين)، دار الكتاب العربي، بيروت، (١٩٩٦م)، (١/ ٩٠).

(٣) أحمد الغريب، (كيف تدعو لادينيا)، مجلة البشرىٰ، يناير ٢٠١٤م، الكويت، ص (٥٨).

س: إذا آمنت بوجود الله وببعض صفاته التي استنتجناها عقلًا، فلماذا أختار الدين الإسلامي بالذات لأتدين به عوضًا عن جميع الأديان الأخرىٰ؟!

نقول: إن ثمّة مجموعة من الشروط ينبغي توفّرها في الدين الذي نؤمن أنه قادمٌ من الله ﷻ وفي الرسل الذين يزعمون أنهم مرسلون من قبل الله تعالىٰ، ومن أهم هذه الشروط:

١) توافق مفهوم (الإله) وصفاته التي توصلنا إليها عبر النظر العقلي المجرّد مع مفهوم (الإله) الذي يقدّمه هذا الدين أو ذاك، إذ إن خالق العقل ومرسل الدين واحدٌ أحدٌ لا شريك له، فلا يُمكن تصور تعارض بينهما لأن مصدرهما مطلق العلم ومطلق الحكمة، فلا يُتصور مخالفة بين النقل الصحيح والعقل الصريح، «ولا غرابة في ذلك؛ لأن الله الذي خلق الكون وجعله دليلًا علىٰ وجوده هو الذي أنزل الكتاب مصدقًا لشهادة الكون ومفصلًا لها»[1].

٢) الاتساق الداخلي لمكوّنات الدين، فلا تتعارض نصوصه ولا تتضارب أحكامه، ولا يُدحض خبره ولا يختلف وحيه.

٣) إتيان الرسول المبعوث من الله - تعالىٰ - بالآيات الدالة علىٰ صحة رسالته وصدق دعوته، بالإضافة إلىٰ سموّ صفات الرسل.

٤) ظهور الدين وبقاء أحكامه، إذ إن فكرة أن الدين الحق ربما يكون قد اندثر فكرة محالة عقلًا، فالله - تعالىٰ - لم يخلقنا عبثًا ولم يتركنا هملًا، ومن ثمّ كان من الضروري أن يحفظ الله دينه ما دام البشر.

---

(١) جعفر شيخ إدريس، (الفيزياء ووجود الخالق)، مرجع سابق، ص (١٤٥).

٥) أن يكون الدين سماويًا أي مرسلًا من الله ﷻ وليس دينًا وضعيًّا من اختراع البشر.

وبناء علىٰ كل ما سبق، فإن اختياراتنا تنحصر في الأديان السماوية الثلاث الكبرىٰ: الإسلام والنصرانية واليهودية، فهل تتوافق النصرانية واليهودية مع الشروط السابقة؟!

إذا أخذنا نظرة سريعة إلىٰ العقائد النصرانية واليهودية فإننا سنجد العجب العجاب، فالإله - عند النصارىٰ - مركّب من أجزاء بسيطة، وقد تم تركيبه بعد أن لم يكن مركّبًا، أي إن الله يتصف بصفات ويتحدّ بذوات مخلوقة، وهذا ينافي ما علمناه عن الإله بداهةً؛ إذ قرّرنا أن مفهوم المفارقة يقتضي تنزيه المطلق عن النسبي، أما الإله عند اليهود فلا يختلف في حقيقته عن أي آدمي له ما له وعليه ما عليه!

إن مفهوم الإله عند النصارىٰ واليهود مشوّه تمامًا، فالرب عندهم كالذات البشرية في ماديّتها وانحطاطها ونسبيتها، بل وفي خطأها وجهلها وشهوتها! لذلك فإننا نجد في النصوص المقدسة في كلتا الديانتين أن الإله عندهم: يحمل كأسًا من الخمر[١]، وله أحشاء[٢]، وينخر كالوالدة[٣]،

(١) إرميا (٢٥/ ١٥-١٧).

(٢) إرميا (٣١/ ٢٠).

(٣) إشَعْيَاء (٤٢/ ١٤).

ويشتهي[1]، ويحزن ويتأسف[2]، ويندم ويتحسر[3]، ويخدع[4]، ويتعب ويحتاج إلىٰ الراحة[5]، ويصارع البشر بل ويُغلب[6]، ويزور الناس في بيتهم ويأكل من طعامهم![7] أما نسبة الابن إلىٰ الله وصلب الإله ونحو ذلك من الخرافات فأشهر من أن نورد عليها الدلائل.

هذا كله غيض من فيض، وكما نرىٰ «**فإن هذا التصور البشري لا يملك أي حجة علىٰ أي فكرة من أفكاره، بل كل أفكاره تسيء إلىٰ المعبود إساءة بالغة ولا تجعله أهلاً لأي تقديس**... فقد كان من الصعب أن تحتفظ اليهودية بنقائها التجريدي الذي ينزه الإله عن المادية من التشبيه والتجسيم، إذ لم يكن لدىٰ اليهود القدرة علىٰ التحرر من النزعة المادية التي تأصلت فيهم. أما بالنسبة للنصرانية.. فإن اليهود هم الذي أدخلوا التيار المادي إليها عن طريق تحول القديس بولس من اليهودية إلىٰ المسيحية بكل ما يحمل من عقيدته السابقة وثقافته الواسعة التي كانت متجمعة من ديانات وثنية ومادية»[8].

---

(١) مزمور (١٣٢/ ١٣-١٤).

(٢) تكوين (٦/ ٥-٧).

(٣) صموئيل الأول (١٥/ ٣٥) وخروج (٣٢/ ١٤).

(٤) إرميا (٤/ ١٠).

(٥) خروج (٣١/ ١٧).

(٦) تكوين (٣٢/ ٢٢-٣٢).

(٧) تكوين (٢١: ١).

(٨) عبد المعطي بيومي، (أثر التيارات المادية في التصورات اليهودية والمسيحية)، مرجع سابق، ص (١٤٠، ١٦٨).

وبناء علىٰ ما سبق، فإن الدينين النصراني واليهودي لا يصلحان كدين رباني، إذ إن الصفات المذكورة تتعارض والبدهيات المعلومة ضرورةً عن الذات الإلهية، فليت شعري كيف نقدس إلهًا ينخر وينسىٰ، وكيف نعبد إلهًا يزأر ويتعب، وكيف ندعو إلهًا يأكل معنا ويصارعنا ثم نغلبه؟! إن هذا ضربٌ من ضروب الجنون، ولا يُعقل أبدًا أن يكون هذا إلهًا يستحق التقديس فضلًا عن كونه معبودًا نتوجه إليه بالصلاة والدعاء والابتهال! وعليه: فإن الديانتين اليهودية والنصرانية - بأشكالهما الحالية - لا يصحّ نسبتهما إلىٰ الإله، بل هذا من جنس الافتراء والكذب علىٰ الله، وهذا أفسد أنواع الظلم، كما يقول الله تعالىٰ في القرآن: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ (مريم: ٨٨-٩٠).

وليس علىٰ وجه البسيطة كلها دينٌ أشد اتفاقًا مع العقل من دين الإسلام، وباستقراء بسيط يتبين أن الإسلام يوضح العقيدة الإلهية في نصوص الشريعة بشكل أوضح ما يكون وفي عبارات سهلة وألفاظ جليّة لا مواربة فيها ولا غموض، بل إن الرسالة القرآنية كلها من أولها وآخرها تؤكد علىٰ مفهوم التوحيد ومقتضياته، وكما قلنا فإن العقيدة الإسلامية تتفق وصفات الله التي توصلنا إليه بالعقل، وتفصيل ذلك كما يلي:

١) صفة الذاتية: فخالق الكون من العدم إما أن يكون ذاتًا (Personal being) أو شيئًا مجردًا (Abstract object) كالأعداد والمعاني والأفكار، ومن المحال أن يكون خالق الكون شيئًا مجردًا، إذ إن الأشياء المجردة لا تملك مشيئة ولا إرادة، ولا قدرة علىٰ الخلق، ولا وعي ولا علم، والقرآن

يقرّر دومًا بأن الله أرسل الرسل وأنزل الشرائع، وقدّر الأقدار وقسّم الأرزاق، وهو الذي يعطي ويمنع ويعفو ويرحم[1] ونحو ذلك.

٢) صفة الأحدية: فالدعوة إلىٰ التوحيد هي رسالة القرآن المركزية، بل هي رسالة كل الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

٣) صفة الخالقية: أي فعل الخلق، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ (الزمر: ٦٢).

٤) صفة الإرادة: أو المشيئة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (الحج: ١٤).

٥) صفة العلم: فالخالق هو المحيط علما لكل شيء، ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله، أوله وآخره، فاتحته وعاقبته، وهو العالم والكاشف بكل شيء، وهو الذي لا تخفىٰ عليه خافية، ولا يعزب عن علمه قاصية ولا دانية، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٩).

٦) صفة الحكمة: فالله له كمال العلم وإحسان الفعل وإتقانه، وهو الذي يعلم أجلّ الأشياء بأجلّ العلوم، وعلمه أزليٌ دائمٌ لا يُتصور زواله، ولا يتطرق إليه خفاء ولا شبهة، وهو الذي يكون مصيبًا في التقدير، ومحسنًا في التدبير، وليس له أغراض، ولا علىٰ فعله اعتراض، وصفة الحكمة جاءت في القرآن، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣٢).

---

(١) سامي عامري، **(فمن خلق الله؟)**، مرجع سابق، ص (١٨١-١٨٣).

٧) صفة القيومية: فقد قرّرنا أن الله هو مسبب الأسباب، وأن كل الموجودات تعتمد في وجودها عليه تعالىٰ، ولا يُتصور قيام للموجودات دون الاعتماد كليًا علىٰ مسبّب الأسباب، لا في بدء وجود الموجوات ولا في استمرار وجودها، كما أوحىٰ الله لنا في القرآن: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

٨) صفة القدرة: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ٤٠).

٩) صفة الأزلية والأبدية: كما في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ (الحديد:٣).

١٠) صفة التعالي علىٰ المادة والزمان والمكان، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ (الشورىٰ: ١١).

تلك عشرةٌ كاملة، وليس هناك دين في العالم أجمع يقدّم عقيدة تتوافق وهذه الصفات إلا الدين الإسلامي الحنيف، وحتىٰ الصفات الخبرية التي لا طريق لمعرفتها إلا السمع (أي الوحي)، فإنها لا تخالف معقولًا ولا تعارض منطقًا، فهذا دليلٌ علىٰ أن الإسلام هو الدين الحق الوحيد الموجود علىٰ وجه هذه البسيطة، وليس هذا بالطبع هو الدليل الوحيد علىٰ صحة الدين، وإنما هناك أدلة أخرىٰ كثيرة جدًا، منها: شهادة أهل زمان النبي ﷺ بما في ذلك ألدّ أعدائه بصدقه الكامل وأمانته التامة واستحالة كذبه لا علىٰ البشر ولا علىٰ الله، ومنها: شهادة صناديد اللغة وأعلم الناس بالأشعار وضروب البلاغة من قريش بأن القرآن الذي يأتي به محمد ليس من جنس كلام المخلوقين، ومنها: أمّيّة النبي ﷺ وعدم دراسته لأي من الكتب أو تعلمه علىٰ أيدي المعلمين، ومنها: إخبار النبي بالغيبيات التي حدثت أثناء حياته وبعد حياته، وغير ذلك

من الأدلة التي يصعب حصر أنواعها، ولكن ذلك ليس محل بحثنا[1].

ونختم هذه النقطة فنقول: إن إيماننا بالله - تعالىٰ -، وبالكتاب، وبنبوة محمد ﷺ، بالأدلة الجازمة والبراهين القاطعة، يقتضي بالضرورة الالتزام بالأصول التي يقوم عليها هذا الإيمان، ومن أهمها مبدأ التسليم، يقول الإمام الأوزاعي: «**من الله تعالىٰ التنزيل، وعلىٰ رسوله التبليغ، وعلينا التسليم**»[2]، ومعنىٰ ذلك مثلًا أننا مؤمنون بأن الأصل في تقدير الله تعالىٰ هو الحكمة، لأن من أسماء الله (الحكيم)، فإذا افترضنا أننا وجدنا حادثة لم نعرف علّتها ولم ندرك غايتها، فإننا لا ندّعي عدم الإيمان بها حتىٰ نكتشف الحكمة من ورائها، ولا نقول بأن الحكمة غائبة عن هذه الحادثة بعينها، فهذا ضلالٌ مبين وعبادة للهوىٰ لا عبادة للشرع، وإنما نردّ ما لا نعلمه من الفروع وأفراد الحوادث إلىٰ الأصول التي يقوم عليها إيماننا ابتداءً، فنقول: إن هذه الحادثة خلقها الله ﷻ، والله هو الحكيم الذي جعل من وراء كل شيء حكمة، إذن فهذه الحادثة لها حكمة غائية، ولكننا لم ندركها بعد، وكذلك الأمر علىٰ الحوادث الغيبية سواء الماضية أو المستقبلية، فإذا ثبت قطعًا نصٌّ فيه خبر علىٰ حدوث حدث

---

(١) للاطلاع علىٰ بعض الأدلة علىٰ صدق النبوة وصحة الرسالة القرآنية، انظر: محمد عبد الله دراز، (**النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن**)، دار الثقافة، الدوحة، (١٩٨٥م). و سامية بنت ياسين البدري، (**أفي النبوءة شك؟! الأدلة العقلية النقلية علىٰ نبوءة محمد ﷺ**)، مركز دلائل، الرياض، (٢٠١٦م).

(٢) ابن عبد البر، (**التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**)، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، (١٣٨٧هـ)، (٦/ ١٤).

ما سواء في الماضي أو في المستقبل، فإننا لا نهمل هذه الأخبار حتىٰ نتحقق من وجودها تاريخيًا، بل نسلّم بالخبر تصديقًا للمولىٰ - تبارك وتعالىٰ - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإلا كان إيماننا إيمانًا لهوىٰ النفس واتباعًا للعقل وليس إيمانًا بالله وتسليمًا لرسالته.

ولذا لما سألت قريش أبا بكر الصدّيق - ﷺ وأرضاه -: «أوَ تصدقه - أي النبي - أنه ذهب الليلة إلىٰ بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟» قال: «نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة» ثم قال مقولته العظيمة: «لئن قال ذلك فقد صدق». وعبارة أبي بكر هذه «عبارة منهجية مهمة تدل علىٰ عميق فقه الصدّيق ﷺ لحقيقة الدين والتدين في مرحلة متقدمة من تاريخ الدعوة، وما حباه الله من عظيم الهداية لهذا الأصل الجليل.. وترسّخ هذه الخصلة في النفس هو ما جعل من الانقياد والإذعان للوحي ملكة لا تستعدي منه تلك الكلفة والمجاهدة والمغالبة والتي قد يعانيها غيره، بل تأتي منه طبعًا.. فالمرء متىٰ كمل مقام التسليم في نفسه فقد انفتح له باب الانشراح للوحي إذعانًا وانقيادًا وقبولًا، وتحقق فيه معنىٰ الرضىٰ بأمر الله تعالىٰ»[1].

والحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(١) عبد الله بن صالح العجيري، (ينبوع الغواية الفكرية: غلبة المزاج الليبرالي وأثره في تشكيل الفكر والتصورات)، مجلة البيان، الرياض، (١٤٣٤هـ)، ص (٧٣-٧٤).

الْفَصْلُ الثَّانِي:
سُؤَالُ الشَّرِّ

الْفَصْلُ الثَّانِي: سُؤَالُ الشَّرِّ...

سؤال الشر هو السؤال الأشهر لدىٰ الملاحدة، والشَّكُّ الأعظم الذي يتسرب إلىٰ قلوب الشباب المعاصرين، وهو من أخطر التساؤلات - إن لم يكن أخطرها وأشدها - شيوعًا بين الناس، مسلمين كانوا أو غير مسلمين، **«ومن المحتمل أن يكون سؤال الشَّرِّ هو أقوىٰ دليل يمكن أن يستحضره الملحد ضد المعتقد الألوهي»**[1]، والسؤال ببساطة يُطرح عندما يلاحظ الإنسان مدىٰ المعاناة البشرية والكوارث والمصائب التي تعصف بالحياة الإنسانية يومًا وراء يوم، فيبدأ في التساؤل حول هذا الكمّ المروّع من الآلام والأوجاع، ومدىٰ علاقة الإله به.

وتتميز مشكلة الشر عن جميع أسئلة الإلحاد بأنها «لا تطيّب نفسا بجواب واحد سريع، فالتفصيل فيها واجب، والتأني في العرض والنقد حتمٌ، خاصة أنها قائمة في الغالب علىٰ القرائن لا علىٰ الدلائل المباشرة»[2].

---

(١) مقابلة مع ألفن بلانتنجا، (هل الإلحاد لا عقلاني؟)، مركز براهين، (٢٠١٤م)، ص (٣).

(٢) سامي عامري، (مشكلة الشر ووجود الله: الرد علىٰ أبرز شبهات الملاحدة)، مركز تكوين، لندن، (٢٠١٦م)، ص (٣١).

ولعل من أوائل - إن لم يكن أول - من طرح فكرة الشر للنقاش هو الفيلسوف اليوناني إبيقور، وقد تم تطوير محاججته علىٰ مرّ الأزمنة، ويمكن تلخيص المحاججة فيما يلي: لو افترضنا وجود إله كليّ الخير ومطلق الكمال والحكمة والقدرة، فإن الشر لن يكون موجودا في العالم، لأن الإله كليّ الخير، ومن ثمّ فإنه لن يقدّر الشر لمخلوقاته، ولكن هناك شر كثير موجود بالفعل في عالمنا، معنىٰ ذلك أن:

(١) الإله مطلق الخير، وكليّ القدرة، وكامل العلم، وعليه: فالإله الخيّر لن يقدّر الشر لمخلوقاته.

(٢) الشر موجود.

وعليه:

(١) فإما أنَّ الشر الموجود في العالم معناه أنَّ الإله خالق الكون يعلم بوجود الشَّرِّ، ولكنَّه لا يريد إزالته؛ **فهو إذن**: إله شرير يريد الشر لخلقه، وخلقنا كي يعذبنا.

(٢) وإما أنَّ الإله خالق الكون عالم بالشَّرِّ، ولكنَّه لا يقدر علىٰ إزالته؛ فهو إذن إله ضعيف وناقص، ومن ثَمَّ: فهو ليس إلهًا بالمعنىٰ المطلق للكلمة[1].

---

(١) هذا القول ذهب إليه بعض النصارىٰ المعاصرين فجادلوا بأن إلههم ليس مطلقا في صفاته، فهو - عندهم - ليس مطلق القدرة أو ليس مطلق الخيرية، تبريراً لسؤال الشر، ولا داع لمناقشة هذا الطرح العجيب إذ أنه يسلب صفات الكمال من الإله ومن ثمّ يسقط فكرة الإله أصلاً.

(٣) وإما أنه ليس هناك إله من الأساس.

وجدير بالذكر أن ثمة فريق من الفلاسفة والعلماء الغربيين واجهوا مشكلة الشر واحتاروا في تعليلها بسبب غياب النصوص الشرعية المتسقة في العقيدتين اليهودية والنصرانية، فلجأوا إلىٰ القول بأنَّ الإله كليّ الخير والقدرة، ولكنه خلق الكون، وخلق قوانينه المستودعة فيه، ثم تركه ولم يعد يأبه به، كصانع الساعة الذي صنع الساعة، ثم تركها تعمل، ولم يعد يتدخل فيها، وهذا الاعتقاد يُسمَّىٰ بـ(الربوبية)، ومن أهم الأسباب التي دفعتهم لذلك اللون من الإيمان هو الهروب من معضلة الشر والتناقض الناتج عنها - زعموا -، والربوبية هو المذهب الذي اعتنقه إمام الملاحدة في القرن العشرين (أنتوني فلو) بعدما قرّر أن يؤمن بالخالق، هروبا من سؤال الشر أيضا.

وغنيٌ عن القول أن هذا اللون من الإيمان (الربوبية) لم يكن مطروحا في التاريخ الإسلامي، وكذا فكرة الإله ناقص الصفات الذي يروّج له بعض فلاسفة النصارىٰ المعاصرين لم يطرحها واحدٌ من المسلمين من قبل، إذ إن الإسلام يقدّم طرحًا متسقًا ومنسجمًا مع العقل الصريح والنقل الصحيح، وعرض إجابات المسألة بين ثنايا نصوص الشريعة بكل موضوعية واتساق، ملخصها: إن أفعال الله كلها خير، وإنه - تعالىٰ - لا يفعل شيئًا إلا لحكمة، والشرّ الطبيعي (غير الناتج عن الفعل الإنساني) له حكمة غائية لا يستقيم وجود الإنسان إلَّا بوجودها، سواء علم الإنسان هذه الحكمة أم لا، أما الشرّ الإنساني (الناتج عن الفعل الإنساني) فالسبب فيه هو الإنسان، ولا يمكن إزالة

الشرّ الإنساني لأن زواله يعني زوال الإرادة الإنسانية بالكلية، ومن ثمّ لم يجد علماء أهل السنة حاجة للالتفاف والاختراع والابتداع، بل كانت المؤلفات في هذا الموضوع شديدة الندرة في التاريخ الإسلامي عند أهل السنة خصوصا، نظرًا لغياب المشكلة أصلا.

وإشكال السؤال لا يكمن في صعوبته وإنَّما في قواعده التأسيسية، فالفلسفة المادية لا تستطيع أن تُقدِّم جوابًا كافيًا حول هذا السؤال؛ لأنَّها - الفلسفة المادية - تقوم علىٰ مركزية الإنسان في الكون واعتبار الإنسان من حيث هو إنسان المرجعية النهائية للكون والوجود والأشياء، وتتجلَّىٰ تلك المركزية الإنسانية في بعض مقولات الغربيين مثل (الإنسان مقياس كل شيء) لبروتاجوراس، و(من العقل ينبغي أن ننطلق) لاسبينوزا، و(أنا أشكُّ إذن أنا موجود) لديكارت، ونحو ذلك من أنماط التفكير التي تموضع الإنسان كمصدر للمعرفة والقيم، وتهمّش الوحي أو المتجاوز للمادة عمومًا، ومن ثَمَّ: لا يستقيم الجواب أبدًا عن تلك المسألة؛ لأنَّ الإجابات والتقديرات ستختلف من شخص لآخر، ولن يمكننا تحديد مرجعية نهائية تحسم لنا الخلاف، فما يعتبره إنسان شرًا يعتبره إنسان آخر خيرًا، وما يقدّره إنسان حقًا يقدّره آخر باطلا.. وهكذا. لذلك «**ففي رواية الإخوة كارامازوف، يعلن إيفان كارامازوف أنه إذا كان الإله غير موجود، فكلّ شيء مباحٌ**.. فإذا لم تكن الواجبات الأخلاقية مأمورة بإرادة الله، ولم تكن في الوقت ذاته مطلقة، فإن ما ينبغي أن يكون هو ببساطة ما يقرره الرجال والنساء. لا يوجد مصدر آخر

للحكم. وهل هذه إلا طريقة أخرىٰ للقول بأنه طالما أن الإله غير موجود، فكل شيءٍ مباح؟»[1].

بل إن العقل الذي يستند عليه الماديون في تقرير الأوصاف وإجراء الأحكام، هو نفسه مفهوم غامض لم يُستقر علىٰ معنىٰ محدد أو تعريف معين له حتىٰ يمكن الجزم بصحة حكمه، ولذلك فقد ظهرت مجموعة من (العقلانيات) عند الغربيين وليس عقلانية واحدة، فهناك العقلانية الأداتية الشكلية Instrumental، والعقلانية الموضوعية الغائية Substantive، والعقلانية التصحيحية الناقدة، وغيرَ ذلك من العقلانيات المتعددة؛ حيث تعترف كل عقلانية مستقلة بأنها هي المعيار والمرجعية التي تقاس عليها العقلانيات الأخرىٰ باعتبار العقلانيات المخالفة (لاعقلانيات)[2].

أمَّا بالنسبة إلىٰ الدين الإسلامي كما ذكرنا سلفًا، فإنَّ الله ﷻ يخبرنا أنه خالق كل شيء، وما مُنح الإنسان الكرامة إلَّا بسبب الهبة الإلهية الممنوحة له، فالوحي هو الركيزة النهائية الثابتة التي لا يمكن أن تقوم رؤية العالم دونها، وعليه: فإن الجواب علىٰ سؤال الشر لا بُدَّ أن يتم تأسيسه علىٰ مركزية الوحي لا علىٰ مركزية غيره؛ لأنَّ الفلسفة التي تنطلق من اعتبار الإنسان هو المطلق الذي ترد إليه جميع الأحكام والتصورات لا تقدم لنا إجابة كافية حول هذا الموضوع؛ ولهذا فقد أخَّرنا سؤال الشر رغم أهميته الشديدة إلىٰ

---

(1) David Berlinski: The Devil's Delusion: Atheism and It's Scientific Pretensions, Basic Books, 2009, P. 19, 40.

(٢) عبد الله الشهري، (ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان)، مرجع سابق، ص (٩٩-١٠٠).

الفصل الثاني من هذا البحث حتىٰ يتسنَّىٰ لنا أوَّلًا تأسيس الأرضية التي نبني عليها النقاش، ثم نستعرض سؤال الشر بناءً علىٰ تلك الأرضية، فنقول مستعينين بالله:

إنَّ الشر الموجود في العالم ينقسم إلىٰ نوعين:

الأول: شرٌّ طبيعي خارج عن الإمكان الإنساني، فلا مجال للإنسان فيه، كالزلازل والبراكين والأوبئة والعواصف ونحو ذلك.

الثاني: الشر الناتج عن التدخل الإنساني وفعله الأخلاقي، وعلىٰ رأسه الحروب والمجاعات والفقر ونحوه.

والجواب علىٰ الإشكال يمكن إجماله في ثلاث نقاط:

(١) الشرّ الطبيعي والشر الإنساني: ما معيار الشرّ؟!

ثمة سؤال يجب أن نطرحه أولًا، وهو: من يحدد أنَّ هذه الأمور هي (شرٌّ) من الأساس؟! بمعنىٰ أنَّه ليس هناك مقياسٌ محددٌ لقياس وحدة (الشر)، حتىٰ نقول إنَّ هذا الأمر عشرين كيلو من الشر، أو إنَّ ذاك الأمر ثلاثين كيلو من الشر مثلًا، هذا مقياس غير موجود، فلا يوجد في الحقيقة معيار موضوعي يمكن قياس الشر عليه بعيدًا عن إدراكنا له، فالشر (وصف) وليس (وجود) قائم بذاته، ومن ثَمَّ فإنَّ مفهوم الشر نفسه مفهومٌ نسبيٌ يختلف من إنسان لآخر، فما يراه إنسان شرًّا يعتبره آخر خيرًا، وما يراه إنسان خيرًا قد يعتبره آخر شرًّا.

وعلىٰ هذا الأساس تظهر المشكلة الكبرىٰ: فمن يخوض في سؤال الشر دون الرجوع إلىٰ الإله ومعيارية الوحي معتبرًا أنَّ الإنسان هو مركز الكون؛ فإنَّه لا محالة سيقع في حالة نسبية وسيولة دائمة لن يستطيع من خلالها أن يجزم أبدًا بوصف الشر (أو الخير) لأي موجود من الموجودات حتىٰ في تلك الأمور التي يظن الناس أنَّه لا اختلاف عليها، فالأوصاف والأحكام القيمية تتباين بتباين وجهات النظر، والإشكال الأكبر لدىٰ الملحد هو افتقاره لمرجعية نهائية مطلقة يمكن الرجوع إليها حال الاختلاف في وجهات النظر القيمية، ومفهوم النسبية وفقًا للملحد **«يُعدّ - من ناحية منطقية - متماسكًا لا سبيل إلىٰ دحضه»**[1].

---

(١) علي عبد الرحيم، **(أصحاب الحق: دراسة في نقد التنظيمات الإسلامية)**، مركز الجزيرة للدراسات، قطر، الطبعة الأولىٰ، (٢٠١٤م)، ص (٩٦).
وقد حاولتْ عدة مدارس فلسفية صياغة محتوىٰ نظري لحقيقة مطلقة ثابتة، حتىٰ لا تقع البشرية في حالة سيولة كاملة؛ فظهرت: **(مدرسة نظرية المطابقة)**، (Correspondence theory)، **ومن أنصارها**:أفلاطون، وأرسطو، وابن سينا، وابن رشد، وتوماس الأكويني، وبرتارند راسل، الذين يفترضون وجود حقيقة مثالية مطلقة، ومن ثَمَّ تُعرَّف الحقيقة بأنَّها مطابقة الفكرة للواقع. كما ظهرت **(المدرسة الجدلية)** التي قادها هيجل، وتفترض بأنَّ الحقيقة في صيرورة وتغير، وليس ثَمَّ حقيقة مطلقة صادقة صدقًا كُلِّيًا في الزمان والمكان؛ إلَّا إذا وصلت الصيرورة إلىٰ خاتمة مطافها، وأنَّىٰ لها أن تبلغ ذلك أبدًا. و**(مدرسة براجماتية)** ترىٰ أنَّ تعريف الحقيقة ينبغي أن يكون بواسطة نتائجها العملية، أي: إنَّ الحق عندهم هو ما ينجح، وهو المفيد وهو الناجح، بالإضافة إلىٰ **(المدرسة التوفيقية)**، التي ترىٰ أنَّ الحقيقة هي ما توافق عليه الناس، إلىٰ آخر هذه النظريات والمدارس.
انظر: نفس المصدر، ص (٩٥).

وعليه: فجميع الأوصاف كالخير والشر وغير ذلك تصبح - وفقًا للنظرة الإلحادية المنكرة للوحي - أوصافًا ذاتية وليست موضوعية، أي إنَّها تلزم قائلها أو معتنقها فحسب دون غيره من الناس؛ لذلك فإنَّنا نجد أنَّ الفيلسوف الوجودي الملحد جون بول سارتر يعترف بهذه المشكلة فيقول: «يجد الوجودي حرجًا بالغًا في ألّا يكون الله موجودًا، لأنه بعدم وجوده تنعدم كل إمكانية للعثور على قيم في عالم واضح»[1]، كما يتسق ريتشارد دوكنز مع إلحاده ويرفض صبغ الوجود بأية صفة قيمية على الإطلاق، فيقول: «في هذا العالم، لا يوجد شرٌّ ولا يوجد خير، لا يوجد سوى لامبالاة عمياء وعديمة الرحمة»[2]، وعليه فلا يصحّ الاحتجاج بمفهوم نسبي قائم على الظن على مفهوم مطلق قائم على اليقين، فما تطرّق إليه الاحتمال بطل به الاستدلال[3]، «وعندما يكون الشرّ محلّ خلاف ذوقي، فإنه بذلك يغدو مجرد رأي وليس حقيقة يُعترض بها على وجود الله»[4].

وتأتي مشكلة أكبر عندما يقيس أحدهم وصفه للشر على تقدير الله - تعالى - للأمور، فيقول: إن هذا الأمر شرٌّ من الناحية كذا، وبما أنه شرّ مقدّر من الله فهذا إله شرير! - حاشا لله -. والماديّ يفعل ذلك دون أن يدري

---

(1) Jean-Paul Sarte, Jean-Paul Sartre: Basic writings, New York, Routledge, 2001, P. 32.

(2) Richard Dawkins, River Out of Eden: A Darwinian View of Life, Basic Books, 1995, P. 133.

(٣) سعود العريفي، (منهج الاستدلال بالمكتشفات العلمية على النبوة والربوبية)، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، (١٤٢٨هـ)، ج١٩، ع٤٣.

(٤) سامي عامري، (مشكلة الشر ووجود الله)، مرجع سابق، ص (٦٤).

أن ثمة وجوه أخرىٰ لنفس الأمر قد يُرىٰ فيها خيرًا كثيرًا لم تتكشف له بسبب قصور فهمه وضآلة إدراكه، بل نقول: إنه من المحال عقلًا أن يدرك المرء - مهما بلغ نضجه وتفوقه - تفصيلات كل مسألة علىٰ حدة، ويستحيل علىٰ الإنسان أن يحيط بكافة جوانب مسألة واحدة فقط إحاطةً تكفيه لوصف المسألة بأنها (خير) أو (شر) بشكل حاسم ونهائي، فالتعقيد الموجود في الحياة أكبر من طاقة إدراكنا مجتمعة، أضف إلىٰ ذلك قصور المعلومات، والجهل بالممكنات، وحدود تجاربنا وخبراتنا، كل ذلك يدفعنا إلىٰ التواضع وعدم التجرؤ علىٰ قياس رأينا النسبي علىٰ تقدير الإله المطلق في الكون[1].

ورغم ذلك يبدأ المادي في حجته ومعارضته للتقدير الإلهي بهذا الفهم المعلول للواقع، وهذا لا يصحّ، إذ إنه لو افترضنا أن لكل إنسان علىٰ حدة رؤية خاصة به يحاجج بها الإلهيين علىٰ عدم وجود الله، إذن لكان هوىٰ كل آدمي علىٰ حدة هو المعيار الذي يحاكم به المسألة، ولصار الإله «**مجرّد صندوق يضع فيه كل مخلوق قائمة رغباته**»[2].

والدليل البيّن علىٰ قصور فهمنا ومحدودية إدراكنا للشرور الطبيعية (أي الشرور الخارجة عن التدخل الإنساني): ما يمكننا ملاحظته في كثير من الأمور التي نعتبرها شرورًا مع أنها في الحقيقة خيرٌ من وجوه أخرىٰ، فمثلًا، إن سمّ العقرب الذي يعتبره الإنسان شرًا لأنه يقتله، هو في الحقيقة خيرٌ للعقرب نفسه، كما أنَّ الزلازل والبراكين ونحو ذلك من الحوادث التي ينظر

---

(١) انظر: المرجع نفسه، ص (١٥٤-١٥٥).

(٢) المرجع نفسه، ص (٧٩).

الإنسان إليها كشرّ فإنه لولا حدوثها لكانت الحياة علىٰ الأرض مستحيلة، أي أنها في حقيقتها خيرٌ للإنسان وللأرض، بل إن الألم الذي يعتبره الإنسان المادي شر الشرور كلها، فإنه يصبح في كثير من الأحيان مفيدًا للجسم، بل أحيانًا لا تصح حياة الجسم بدونه، «وقد اهتم الدكتور (بول براند) المتخصص العالمي في مرض (البرص) بصناعة آلة تنبّه مريض البرص إلىٰ خطر تلف أعضائه بعد فقدانه الإحساس بالألم، ثم قال: «لقد قبلت بيسر أن سنوات عملي بين المفتقدين للشعور بالألم أعطتني رؤية منحرفة. وأنا الآن أنظر إلىٰ الألم كواحد من أعظم الميزات الرائعة لتصميم الجسم البشري، وإذا أمكنني أن اختار هدية لمرضىٰ البرص عندي فتسكون هدية الألم. في الحقيقة، لقد أشرفت علىٰ فريق علمي أنفق مليون دولار لمحاولة تصميم منظومة صناعية للألم. أهملنا المشروع عندما أصبح من الواضح جدًا أنه ليس بإمكاننا أن ننشئ منظومة هندسية معقدة تحمي الإنسان». وختم براند خاطرته عن تجربته الطويلة مع الألم بقوله: «**أحمد الله لأنه اخترع الألم، لا أعتقد أنه فعل شيئًا أفضل من ذلك**»[1].

وحتىٰ في الأمور الواضحة التي قد يظن المرء أنّه لا خلاف عليها بين جميع البشر؛ فإنَّ عدم الاستناد إلىٰ مرجعية متجاوزة مطلقة سيسقطنا لا محالة في حالة السيولة القيمية والنسبية الدائمة، ولن يمكن التثبت أبدًا من

---

(١) المرجع نفسه، ص (٧١). والاقتباس نقلًا عن:

Paul Brand and Philip Yancey, The Gift of Pain: Why we hurt and what we can do about it, P. 12.

قيمة مطلقة واحدة، فمثلًا، قد يقول أحدهم أن حقوق الإنسان هي حقوق عالمية لا يمكن دحضها بسبيل، ولكن في الوقت نفسه امتنعت ثماني دول عن التصويت علىٰ ميثاق الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، ومعلوم أنَّ المسلمين يرون أنَّ هذا الميثاق فيه عيوب كثيرة، بل إن رئيسة وزراء بريطانيا تيريزا ماي أعلنت بكل صراحة أنها علىٰ استعداد لإعطاء أمر بتوجيه ضربة نووية حتىٰ لو قتلت مائة ألف بريئا من المدنيين والأطفال والنساء[1]، فما الذي يجعل هذا الميثاق (خيرًا مطلقا) إذا كان هناك من يرىٰ أنَّ هذا الميثاق معلول ويمكن ردّه أو استثناؤه؟!

ولنعطِ مثالًا آخر، يزعم البعض أنَّ قتل الأطفال هو عملية لا إنسانية لا يختلف علىٰ بشاعتها أحد، ولكن هل هذا أمر صحيح؟ لقد أصدرت دولة ميانمار منذ عدة أشهر قانونًا بتجريم كل مسلم يلد ولدين اثنين في مدة أقل من ثلاث سنوات، فالدولة تعتبر ولادة الطفل المسلم (شرًّا) لا بُدَّ التخلص منه، فإذا كان الإنسان هو المركز والمطلق الذي يرد إليه كل شيء، فلمَ لا يكون هذا شرًّا بالفعل؟!

وفي نفس السياق؛ فقد منعت القوات الأمريكية أثناء غزوها للعراق عام (٢٠٠٣م) منتجات الحاجات المعيشية الأساسية من الدخول إلىٰ الأسواق العراقية لتوفير الطعام والعلاج للأمراض والأوبئة المنتشرة، بعدما فرضت الولايات المتحدة العقوبات علىٰ العراق منذ التسعينات، وتسبب ذلك

---

(1) http://www.independent.co.uk/news/uk/politics/theresa-may-trident-debate-nuclear-bomb-yes-live-latest-news-a7143386.html

الحصار الاقتصادي في وفاة أكثر من مليون طفل عراقي بسبب سوء التغذية، وهو ما كان (خيرًا) في نظر القوات الأمريكية الغازية![1].

وبالمثل؛ فإنَّه في مجزرة حماة بسورية في الثمانينات كان جنود النظام يقتحمون المستشفيات والبيوت ويبقرون بطون الأمهات ويقتلون الأطفال الرضع بحجة أنَّ والديهم سيربونهم ليصبحوا إرهابيين؛ وبالتالي: فإنَّ قتل الأطفال الآن هو في الحقيقة رحمة و(خير) لهم وللوطن السوري![2] وفي عام (٢٠١٤م) تم قصف أحد المدن السورية من قبل قوات الجيش النظامي السوري بالقنابل الكيميائية وتسببت في وفاة حوالي ألف طفل سوري، ولا مانع من قتل المزيد والمزيد من أجل الحفاظ علىٰ وحدة الوطن السوري، والحديث عن القضية السورية حديث ذو شجون!

وأخيرًا، رغم وفاة ثلاثة ملايين طفل سنويًا نتيجة للأمراض وسوء التغذية[3]؛ فإنَّ بعض الاقتصاديين يعتبرون هذا (خيرًا) للبشرية لأنَّ الموارد الاقتصادية نادرة وكلما تقلص عدد البشر الأحياء ازدادت فرص نجاة البشر الباقين!

وعلىٰ ما في هذه الأمثلة من فجاجة؛ فإنِّي ذكرتها لأؤكد أنَّ مفهوم الشرِّ هو مفهومٌ نسبي يختلف وصفه من إنسان لآخر حتىٰ في تلك الأمور التي يظن

(1) Nafeez Ahmed, Behind the war on terror: Western Secret Strategy and the Struggle for Iraq, Clairview Books, UK, 2003, P. 114.

(٢) الشهادات الحيّة علىٰ هذه المجزرة في غاية القسوة، انظر قبسًا يسيرًا منها في وثائقي: (صندوق حماة الأسود)، من إنتاج قناة الجزيرة.

(3) http://www.worldhunger.org/articles/Learn/world%20hunger%20facts%202002.htm

الناس أنَّه لا خلاف عليها.

وأذيّل هاهنا بتساؤل طرحه أحد الفلاسفة تعليقا على الملحد برتانرد راسل عندما قال أنه يميّز بين الخير والشر بمشاعره: «وأنا أسأل راسل: تدعو بعض الحضارات إلى أن نحبّ جيراننا، وتدعو أخرى إلى أن نأكلهم، والاختيار قائمٌ في كلٍ منهما على المشاعر، هل عندك تفضيل لأيّ منهما؟»[1].

لذلك فإن الاحتجاج بوجود الشر في العالم كدليل على عدم وجود الله لهو احتجاجٌ باطل، لأن بدون الإله تسقط البشرية في حالة سيولة قيمية لا يمكن الجزم عندها بأية قيمة للوجود على الإطلاق، فلا خير ولا شر، ولا هدف ولا غاية، ومن ثمّ يسقط الاحتجاج[2]، بل نزيد ونقول: إن الاحتجاج بوجود الشرور في العالم هي من جنس برهاننا على حكمة الله، وسنأتي للتفصيل في الأسطر القادمة بإذن الله.

وعليه؛ فيمكننا إجمال هذه النقطة فيما يلي:

(١) مفهوم الشرّ مفهوم وصفي لا يمكن عدّه وجودًا حقيقيًا يُستدل به على عدم وجود الله، كما يقول ابن القيم رحمه الله: «فدخول الشرّ في الأمور الوجودية إنما هو بالنسبة والإضافة، لا أنّها من حيث وجودها وذواتها شرّ»[3].

---

(1) Ravi Zacharias, The End of Reason: A response to the new atheists, Grand Rapids, Mich: Zondervn, 2009, P. 53 - 54.

(٢) وغاية ما هنالك: أن يكون الاحتجاج بالشرّ متعلقًا ببعض صفات الخالق، لا بمسألة وجود الخالق.

(٣) ابن القيم، (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل)، دار التراث،=

(٢) إذا افتقر الشخص إلىٰ مرجعية متعالية علىٰ المادة، لم يستطع الجزم أبدًا بأي وصف قيمي للوقائع والأمور، فلا خير ولا شر، وذلك حتىٰ في الأمور التي يُظن أنها شرور مطلقة ولا سبيل للخلاف حولها.

(٣) لا يصحّ تقييم الخير أو الشر بمعيارية عقولنا القاصرة التي لا تدرك جميع الجزئيات ثم نقيس بها التقدير الإلهي الكامل للأمور، كما يقول ابن تيمية رحمه الله: «ونحن لا نحصر حكمته تعالىٰ في الثواب والعوض، **فإن هذا قياسٌ لله تعالىٰ علىٰ الواحد من الناس**، وتمثيل لحكمة الله وعدله بحكمة الواحد من الناس وعدله»[1].

(٤) الشرّ الطبيعي هو في حقيقته خيرٌ من وجوه كثيرة، بل قد لا تستقيم حياة الإنسان بدون ذلك الوجه من الشر.

(٥) وأخيرًا نقول: إن الأصل لدىٰ المسلم أنه ما من شيء إلا وخلقه الله لحكمة، سواء علمها الإنسان أم لم يعلمها، فعلىٰ فرض أننا لم نتبين الحكمة من مسألة طبيعية بعينها، فإن ذلك فرعٌ يُرد إلىٰ الأصل أي إلىٰ حكمة الله تعالىٰ المطلقة، فنسلّم بها وبجهلنا بتفصيلاتها، وفي ذلك يقول ابن تيمية رحمه الله: «فكل ما فعله [الله] عَلمنا أن له فيه حكمة، وهذا يكفينا من حيث الجملة، وإن لم نعرف التفصيل، وعدم علمنا بتفصيل حكمته بمنزلة عدم علمنا بكيفية ذاته، وكما أن ثبوت صفات الكمال له معلوم لنا وأمّا كُنه - أي حقيقة - ذاته فغير معلومة لنا، فلا نكذّب بما علمناه [أي من كماله] ما لم

=القاهرة، ص (٣٦٥).

(١) ابن تيمية، **(مجموع الفتاوىٰ)**، (٥/ ١٢٤).

نعلمه [أي من تفاصيل هذا الكمال]، وكذلك نحن نعلم أنه حكيمٌ فيما يفعله ويأمر به، وعدم علْمنا بالحكمة فىٰ بعض الجزئيات لا يقدح فيما علمناه من أصل حكمته، فلا نكذّب بما علمناه من حكمته ما لم نعلمه من تفصيلها، ونحن نعلم أن مَن علم حذق أهل الحساب والطب والنحو ولم يكن متصفًا بصفاتهم التىٰ استحقوا بها أن يكونوا من أهل الحساب والطب والنحو لم يمكنه أن يقدح فيما قالوه لعدم علمه بتوجيهه، والعباد أبعد عن معرفة الله وحكمته فىٰ خلقه من معرفة عوامهم بالحساب والطب والنحو، فاعتراضهم علىٰ حكمته أعظم جهلا وتكلفًا للقول بلا علم من العامي المحض إذا قدح فىٰ الحساب والطب والنحو بغير علمٍ بشيءٍ من ذلك»[1].

بل إنه من المحال أن نعلم الحكمة من وراء كل حادثة يغلب علىٰ ظننا بأنها شرّ، إذ إننا لو علمنا كل حكمة إلهية وراء كل شر طبيعي أو إنساني، فأين يكون الاختبار الإنساني إذن؟! وأين يكون التسليم لله والإيمان بالقضاء والقدر؟ كما يقول علاء الدين البخاري: «وهذا هو المعنىٰ في الابتلاء، فإن الكلّ لو كان ظاهرًا جليًّا بطل معنىٰ الامتحان.. ولو كان الكل مشكلًا خفيًّا لم يُعلم من شيء حقيقة، فجعل بعض [الأمور] جليًّا ظاهرًا وبعضها خفيًّا، ليُتوسّل بالجليّ إلىٰ معرفة الخفيّ بالاجتهاد وإتعاب النفس وإعمال الفكر، فيتبيّن المجدّ من المقصّر والمجتهد من المفرّط، فيكون ثوابهم بقدر

---

(١) المرجع نفسه، (٦/ ١٢٨).

اجتهادهم ومراتبهم علىٰ قدر علومهم»[1].

لذلك يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: «إن الله جعل للعقول في إدراكها حدًا تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلًا إلىٰ الإدراك في كل مطلوب. ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالىٰ في إدراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون»[2].

(٢) الشر الإنساني: سبب الشر هو الإنسان..

قدّر الله - تعالىٰ - أن يمنح للإنسان حرية الإرادة، وبامتلاك الإنسان لحرية الاختيار بين الخير والشر، عُلم بالضرورة أن الناس سينقسمون إلىٰ قسمين: **قسم**: يختار الخير، ويُؤدِّي ما فرضه الله من تكاليف شرعية، ويلتزم منهاج الله - تعالىٰ -، **وقسم آخر** لا يختار الخير ويفضل الظلم علىٰ العدل، ويقدم الهوىٰ علىٰ الحق، فيرتكب المعاصي والكبائر والشرك والعياذ بالله، بل إنَّ القسم الذي سيختار طاعة الله فهو حتمًا سيقع في الخطأ والمعصية المرة تلو المرة؛ لأنَّه بطبيعته مخلوق، والمخلوق كائنٌ ناقصٌ، فلا بُدَّ أن يعتريه دومًا القصور مهما أراد أن يبلغ الكمال.

فوجود الشر الإنساني أمرٌ ضروريٌ عقلًا وشرعًا وقدرًا وقديم قدم امتلاك

---

(١) علاء الدين البخاري، **(كشف الأسرار عن أصول فخر الدين البزدوي)**، بيروت، دار الكتب العلمية، (١٩٩٧م)، (١/ ٩٠-٩١).

(٢) الشاطبي، **(الاعتصام)**، تحقيق: مشهور آل سلمان، مكتبة التوحيد، البحرين، (١٤٢١هـ)، (٣/ ٣٩٦).

الإنسان لحرية الإرادة التي ستميزه بالضرورة إلىٰ بشر أخيار وبشر أشرار، فمعنىٰ وجود حرية (الاختيار) يعنىٰ ببساطة أنَّه يجب أن يكون الاختيار قائمًا علىٰ الحرية بالفعل، أي أن يستطيع الإنسان أن يختار بكامل حريته بين الخير وبين الشر، بين الحق وبين الباطل، بين الإصلاح وبين الإفساد، مع التذكير أن الإنسان لا محالة واقعٌ في الخطأ، سواء قصد أم لم يقصد.

والله ﷻ ربط الأسباب بمسبباتها، فقد خلق الله كل شيء وكل الأفعال ثم وهب الإنسان حرية الاختيار داخل التاريخ، ولو أراد الله ﷻ لكان جميع الخلق مؤمنًا بالله متبعًا لأوامره: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩)، ولكن مفهوم الاختيار أصلًا يستلزم إيجاد قدرة الإنسان علىٰ فعل الخير والشر والحق والباطل، حتىٰ يختار الإنسان ما يشاء، ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان: ٣)، مَّا يعني بالضرورة أنَّ البشر سينقسمون إلىٰ جهتين مختلفتين متصارعتين ذات أهداف ومنطلقات وعقائد مختلفة، فمنهم من أخلد إلىٰ الأرض واتبع هواه فكان أمره فرطًا، ومنهم رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، والقرار بيد الإنسان، وفقًا لما علمه الله وكتبه في اللوح المحفوظ وأراده كونًا وقدرًا.

وهذا جوهر فهمنا للقسم الثاني من الشر، أي القسم الناتج عن التدخل الإنساني، فينتج عنه الحروب والمجاعات ونحو ذلك، **فحقيقة الأمر أنَّ الشر المزعوم، كالمجاعات، والمعاناة الإنسانية، وفقدان الأحباب في الحروب والنزاعات.. إلىٰ آخره، إنَّما هو ناتجٌ عن اختيار الإنسان الحرِّ بأن يقيم الحروب، ويهلك الحرث والنسل، ويعيث في الأرض فسادًا وإفسادًا**، بل إنَّ

مجاعات العالـم كلها يمكـن القـضاء عليها بحفنـة يـسيرة مـن أمـوال أثريـاء العالـم، فبينما نجد الـشعوب تعـاني وتظلـم وتـستعبد وتقهـر وتمـوت بـردًا وجوعًـا وعطـشًا، نجـد أنَّ الطبقـات الأوليجارشـية الحاكمـة تـستأثر بـأموال وثروات لا حصر لها.

وقد أثبتت تقـارير صـحفية عديـدة بـأنَّ أغنـىٰ (١٠٠) شـخص في العالـم - فقط مائة شخص - لو وزعوا جزءًا مـن أمـوالهم علىٰ العالـم لانتهـت كـل المجاعات في غضون سويعات قليلة، بـل تـستطيع ثـرواتهم القـضاء علىٰ فقـر العالـم بأربعة أضعاف![1].

ولكن ليس هكذا تدير المنظومة الرأسمالية حركة العولمة، ففـي الوقـت الذي يموت فيه (٣ ملايين) طفـل جـراء الجـوع سـنويًا، ويُقتـل نـصف مليـون طفل عراقي بسبب غياب الأدوية، ويعـاني الملايين مـن العبوديـة الجنسية في آسيا نتيجة للفقر، ويـذوق فيـه ملايـين الأفارقـة ويـلات الحـروب الأهليـة، في الوقت الذي تُستعبد فيه الشعوب وتقهر وتذل، ثم تسعىٰ للتحرر مـن استبداد الأنظمة الطاغوتية، فيموت منها في سبيل التحرر من حياة البهـائم تلـك مئـات الآلاف ناهيـك عـن تفكيـك الأسـر وهجـرة الأهلـين والمـوت نتيجـة للجـوع وللبرد القارص وغير ذلك من الأوضاع المزرية.

في الوقت الذي يحدث في كل ذلك، تجد أنَّ أثرياء العالـم يتنافسون علىٰ امتلاك أكـبر قـصر مُكـوَّن مـن الفـضة، وأضـخم طـائرة مكونـة مـن الـذهب

(1) http://beforeitsnews.com/blogging-citizen-journalism/2013/01/top-100-billionaires-could-end-world-poverty-tomorrow-four-times-over-wealth-inequality-destroying-economy-warns-report-2445166.html

الخالص، وأطول عقد مصنوع من الألماس النقي، وأكثر عدد من السيارات الفارهة، وأضخم عدد من الجزر المملوكة شخصيًّا، وتحتوي أرصدة البنوك لدىٰ بعض الأفراد ما يتجاوز الناتج القومي لعدة دول مجتمعة، كما يتمُّ إنفاق المليارات من الدولارات علىٰ صالات القمار وتجارة المخدرات والأفلام الهوليوودية وألعاب الفيديو ومستحضرات التجميل وملاعب الجولف وطعام القطط وفنادق استقبال الكلاب ونحو ذلك من أمور لو تم توجيه الأموال التي تُصرف عليها نحو القضاء علىٰ المعاناة الإنسانية لانتهت كل مجاعات العالم في يوم واحد.

هذا هو الإنسان الكائن المختار الحر المسئول، الذي اختار بكامل إرادته أن يظلم المستضعفين، وأن يعيث في الأرض فسادًا، وأن يحتكر الأسواق لينهب الشعوب، وأن يستغل المستضعفين، إلىٰ آخر فسادات الإنسان الظالم.

وهذا مفهوم الآية الكريمة: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم: ٤١).

وعليه: «فكون الله خلقنا أحرارًا فتلك نعمةٌ بحد ذاتها، ونعمة الاختيار والإرادة من أعظم النعم، فلو أساء أحدهم استخدام هذه الحرية، فهي لا تلغي قيمة النعمة، الملامة يجب أن تكون علىٰ من أساء»[1].

فالله تعالىٰ قد خلق للإنسان القدرة علىٰ الاختيار، وهذا الخلق خيرٌ في ذاته؛ لأن أفعال الله تعالىٰ كلها خير، أما المفعول، وهو المعاصي والذنوب

(١) مشاري الإبراهيم، **(أربعة عقود من اليأس)**، مرجع سابق، ص (٢١٣).

التي يرتكبها الإنسان، فهي شر تسبب فيها الإنسان، ونورد هنا اقتباسًا نفيسًا للإمام ابن القيم ﷺ حيث يقول: «فإن تصرف الله تعالىٰ دائرٌ بين العدل والفضل، والحكمة والمصلحة، لا يخرج عن ذلك، وهذا كله خيرٌ يُحمد عليه الرب ويُثنىٰ عليه به، كما يحمد ويثني عليه بتنزيهه عن الشر، وأنه ليس إليه، كما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان يثني علىٰ ربه بذلك في دعاء الاستفتاح في قوله: «**لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت**» فتبارك وتعالىٰ عن نسبة الشر إليه، بل كل ما نسب إليه فهو خير، والشر إنما صار شراً **لانقطاع نسبته وإضافته إليه**، فلو أضيف إليه لم يكن شرا..

وهو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله، وخلقه وفعله وقضاؤه وقدره خير كله. ولهذا تنزه سبحانه عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، وذلك خير كله. والشر وضع الشيء في غير محله، فإذا وضع في محله لم يكن شرا، فعلم أن الشر ليس إليه... فأسماؤه الحسنىٰ تمنع نسبة الشر والسوء والظلم إليه، مع أنه سبحانه الخالق لكل شيء، فهو الخالق للعباد وأفعالهم وحركاتهم وأقوالهم. والعبد إذا فعل القبيح المنهي عنه كان قد فعل الشر والسوء. والرب سبحانه هو الذي جعله فاعلا لذلك، وهذا الجَعْل منه عدلٌ وحكمة وصواب، فجعْلُه فاعلاً خيرٌ، والمفعول شرٌ قبيح»[1].

---

(١) ابن القيم، (**شفاء العليل**)، مرجع سابق، ص (٣٥٩-٣٦٣).

فالشر الإنساني سببه إرادة الإنسان، والله - سبحانه - هو خالق الإرادة، أي إنه خلق إمكانية وجود الشرّ لا الشر ذاته، يقول ابن القيم: «والعبد إذا فعل القبيح المنهيّ عنه، كان قد فعل الشر والسوء، والرب سبحانه هو الذي جعله فاعلًا لذلك، وهذا الجَعْل منه عدلٌ وحكمة وصواب، فجَعْله فاعلًا خيرٌ، والمفعول شرٌ قبيح، فهو سبحانه بهذا الجَعْل قد وضع الشيء موضعه لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يُحمد عليها، فهو خيرٌ وحكمة ومصلحة، وإن كان وقوعه من العبد عيبًا ونقصًا وشرًا، وهذا أمرٌ معقول في الشاهد، فإن الصانع الخبير إذا أخذ الخشبة العوجاء والحجر المكسور واللبنة الناقصة فوضع ذلك في موضع يليق به ويناسبه كان ذلك منه عدلًا وصوابًا يُمدح به، وإن كان في المحل عوجٌ ونقص وعيب يُذم به المحل، ومن وضع الخبائث في موضعها ومحلها اللائق بها كان ذلك حكمة وعدلًا وصوابًا، وإنما السفه والظلم أن يضعها في غير موضعها»[1].

س: فلماذا لا يتدخل الله لإنقاذ المستضعفين والمحرومين والمساكين؟! لماذا لا ينقذ الله الأبرياء والأطفال؟! لماذا يسمح بجرائم القتل والاغتصاب والتهجير وسائر أنواع ظلم الإنسان للإنسان، وهو القائل - سبحانه - في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي فَلَا تَظَالَمُوا»؟[2].

(١) المرجع نفسه، ص (٣٦١).

(٢) رواه مسلم.

مربط الفرس هنا في فهمنا لهذه النقطة هو استيعابنا بأنَّ القانون الذي خلقه الله - تعالىٰ - ليحكم الخلق هو قانون (السببية) الذي ذكرناه في الفصل الأول بمعنىٰ أنَّ لكل سبب مسبب، ولكل معلول علة، **وعلىٰ ذلك فإنَّ** حوادث الاغتصاب والنهب والقتل سببها ظلم الإنسان، وطغيانه واستبداده واتباعه لهواه وخلوده إلىٰ الأرض، وقد وضّحنا أن الظلم الواقع سببه اختيار الإنسان الحر المسئول.

ولكن لنفترض أنَّ الله ﷻ تدخل لإنقاذ المستضعفين والمظلومين في مكان أو زمان معين، هل سيكون ذلك التدخل لمرة واحدة فقط أم سيكون تدخلًا بشكل دائم؟ نقول: إذا تدخّل الله لمنع حرب أو لإيقاف حادثة أو غير ذلك، للزم ذلك أن ينقذ الله جميع المستضعفين والمظلومين؛ إذ إنَّ إنقاذ حفنة معينة من البشر سيُؤدِّي إلىٰ تساؤل البشر الباقين: لماذا لم ينقذنا الله معهم رغم أنَّه كامل العدل؟! بالتالي يقع البشر هؤلاء في سؤال الشر مرة أخرىٰ، وهكذا. وبالتالي: **لو تدخل الله لإنقاذ المظلومين في واقعة بعينها للزم ذلك أن ينقذ جميع المظلومين والمتألمين والمستضعفين وأصحاب الأمراض والبلاءات... إلخ؛ ومعنىٰ ذلك أنه سيختفي الظلم والشر من العالم تمامًا.**

المشكلة هنا أنَّه لو اختفىٰ حدوث الظلم أو الشرور لسقطت حرية الاختيار، ولسقط معها مفهوم الاختبار ذاته من الأساس، فلو افترضنا - جدلًا - أنَّ الله ﷻ تدخل بصورة إعجازية لإنقاذ المظلومين ولاستئصال جميع الشرور والبلاءات، للزم ذلك أن يختفي المرض والظلم والألم من العالم، **ومعنىٰ ذلك أن العالم سيصبح قطعة من الجنة لا شقاء فيه ولا بلاء ولا**

مرض، ومن ثمّ يفقد اختبار الدنيا مضمونه، ويصبح بلا معنىٰ حقيقي، فما معنىٰ اختيار الإنسان إذا كان الظلم ممنوعًا؟! وما قيمة الاختبار إذا لم يكن ثمة صعوبات؟! وما حقيقة الثواب والعقاب إذا غاب الجهد والاجتهاد؟!

وفي ذلك يقول الجاحظ رحمه الله كلامًا غاية في الروعة: «إنَّ المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلىٰ انقضاء مدتها، امتزاج الخير بالشر، والضار بالنافع، والمكروه بالسار، والضعة بالرفعة، والكثرة بالقلة... ولو كان الشرُّ صرفًا لهلك الخلق، أو كان خيرًا محضًا لسقطت المحنة، وتقطعت أسباب الفكرة، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة، ومتىٰ ذهب التخيير ذهب التمييز»[1].

لذا: فإنَّ اختيار الإنسان الأخلاقي يتحقق من خلال مواجهته للتحديات، وبدون التحديات تسقط أخلاقية الإنسان بالكلية، «فوجود عالم بدون مشاكل، أو صعوبات، أو مخاطر، أو معاناة، سيجعله عالمًا ساكنًا أخلاقيًّا؛ لأنَّ التعبير الأخلاقي والروحي يأتي من خلال الاستجابة للتحديات»[2].

يقول الدكتور سامي عامري: «فإن سماح الله للشرّ أن يوجد في ملكه لا يلزم منه الطعن في قدرته؛ لأن منعه الشرّ غير ممكن منطقيًا، إذ يلزم من القول بوجوب زواله تناقض منطقي، فإن الله قد سمح للشرّ بالوجود لأسباب منها أنه وهب البشر حرية الإرادة للاختيار بين فعل الخير والشر في امتحان إلهي لنيّاتهم وأفعالهم، ولا تتعلق قدرة الإله - علىٰ كمالها - بإزالة هذا الشرّ لأنه من غير

---

(١) الجاحظ، (كتاب الحيوان)، مرجع سابق، (١/ ٢٠٤).

(2) John Hick, Evil and the God of love, Palgrave Macmillian, London, 1977, P. 336.

المنطقي أن يمتحن الله عباده بالخير والشرّ دون أن يكون هناك شرّ»[1].

ومن الملفت أنَّنا نجد سورة كاملة في القرآن (سورة البروج) تخبرنا أنَّ هناك قوم بأكملهم حُرِّقوا نتيجة ظلم ملكهم، ولم يكن هناك معجزة لإنقاذهم، بل أُبيدوا جميعًا عن بكرة أبيهم، في بيان قرآني جليٍّ يوضح لنا سريان قانون السببية علىٰ جميع الخلق في الدنيا حتىٰ لو كانوا أهل الله وخاصته أنفسهم: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ (البروج: ٥ - ٨).

حتىٰ إنَّ بعض الأنبياء يبعثون يوم القيامة وليس معهم مؤمن واحد اتبعهم في الدنيا! كما قال النبي ﷺ: «وَيَأْتِي النَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»[2]، وكان الأنبياء يبعثون في بني إسرائيل أول النهار، فيقتلونه في آخره، ورغم ذلك لم يكن الله ﷻ يتدخل بصورة إعجازية لإنقاذ هؤلاء الأنبياء من القتل.

وعليه: فإنَّ الله ﷻ لم يخبر أمة الإسلام أنَّ النصر سيتنزل عليها عن طريق الدعاء والالتجاء إلىٰ الله فحسب، وإنَّما من خلال الأخذ بالأسباب قدر الاستطاعة، أي تحقيق قانون السببية، ويأتي معه وقبله وبعده التوكل علىٰ الله، ونحو ذلك: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ (الأنفال: ٦٠).

لذلك فإنَّ الله ﷻ يخبرنا بأنَّ المؤمنين لـمَّا دعوا الله لينصرهم ويحقق لهم التمكين: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ (آل عمران: ١٩٤) لم يخبرهم الله - تعالىٰ - بأنَّه قد استجاب لهم الدعاء بشكل مجرَّد وفوري، وإنَّما ربط

---

(١) سامي عامري، (مشكلة الشر ووجود الله)، مرجع سابق، ص (١١٥).

(٢) رواه مسلم.

إجابة الدعاء بالعمل والسعي من أجل تحصيل التفوق والنصر، ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

حتىٰ إنَّ بعض الأنبياء يبعثون يوم القيامة وليس معهم مؤمن واحد اتبعهم في الدنيا! كما قال النبي ﷺ: «**وَيَأْتِي النَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ**»(١)، وكان الأنبياء يبعثون في بني إسرائيل أول النهار، فيقتلونه في آخره، ورغم ذلك لم يكن الله ﷻ يتدخل بصورة إعجازية لإنقاذ هؤلاء الأنبياء من القتل.

وعليه: فإنَّ الله ﷻ لم يخبر أمة الإسلام أنَّ النصر سيتنزل عليها عن طريق الدعاء والالتجاء إلىٰ الله فحسب، وإنَّما من خلال الأخذ بالأسباب قدر الاستطاعة، **أي:** تحقيق قانون السببية، ويأتي معه وقبله وبعده التوكل علىٰ الله، ونحو ذلك: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ (الأنفال: ٦٠).

ولذلك: فإنَّ الله ﷻ يخبرنا بأنَّ المؤمنين لـمَّا دعوا الله لينصرهم ويحقق لهم التمكين: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٩٤) لم يخبرهم الله - تعالىٰ - بأنَّه قد استجاب لهم الدعاء بشكل مجرَّد وفوري، وإنَّما ربط إجابة الدعاء بالعمل والسعي من أجل تحصيل التفوق والنصر، ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

وها هنا أمرٌ جديرٌ بالإيضاح، إذ أن ثمّة سؤال غلط منتشر لدىٰ الناس وهو أن الله - تعالىٰ - قد أحدث المعجزات في الأمم السابقة لإنقاذ المستضعفين، فلمَ لا يحدث المعجزات لإنقاذ المظلومين الآن؟

---

(١) رواه مسلم.

والمقدمة التي بُني عليها السؤال غلط وبالتالي فالسؤال غلط أيضًا، إذ أنّ تعريف المعجزة في الاصطلاح هو «ما خرَقَ العادةَ من قولٍ أو فعلٍ إذا وافَق دعوَىٰ الرِّسالةِ وقارنَها، علىٰ جهةِ التَّحدِّي ابتداءً، بحيثُ لا يقدِرُ أحدٌ علىٰ مثلِها، ولا علىٰ ما يقارِبُها»[1] أي أن هدف المعجزة ابتداءً هو الهداية وإثبات صدق النبوّة، وليس هدفها هو إنقاذ الستضعفين ورفع الظلم عن الناس، والدليل علىٰ ذلك أن المعجزات التي أخبرنا عنها القرآن في أغلبها لم تكن بالأساس لإنقاذ المظلومين ولا لتحقيق التمكين لقومٍ معيّنين، بل كانت أهداف المعجزات جُلّها هي إثبات نبوّة الأنبياء وصدق رسالتهم، كإخراج إبراهيم من النار، وعصا موسىٰ، وناقة صالح، وحوت يونس، وغير ذلك.

ولا يعني ذلك أن المعجزة لا تحقّق بالضرورة نصرًا للمستضعفين، بل قد يحدث في وقتٍ من الأوقات أنّ المعجزة تقوم فتهلك الكافرين لهداية المؤمنين، كما حصل في حادثة طوفان نوح أو حادثة شق البحر بعصا موسىٰ، لكن جدير بالذكر أن الناظر المتأمل لقصة موسىٰ -عليه الصلاة والسلام- في القرآن بتفصيلها وإجمالها من خلال السور والآيات المختلفة يجدُ أن موسىٰ قد حارب فرعون واستنفذ كل الأدوات الممكنة وأخذ بكل الأسباب المُشاهَدة في معركته معه، تارة بالدعوة وأخرىٰ بالجهر بالحق وثالثة بالمناظرة أمام جموع الناس ورابعة بالتوعد والترهيب وخامسة بتأجيج القوم

---

(١) عمر الأشقر، «الرسل والرسالات»، الكويت، مكتبة الفلاح، الطبعة الرابعة، (١٩٨٩م)، (ص١٢١).

عليه وسادسة بالمواجهات المباشرة وسابعة بالفرار والهجرة وثامنة بالدعاء عليه... حتىٰ إذا انقطعت الأسباب وضاقت السبل أتىٰ النصر الإلهي المؤيد للحق وحدثت المعجزة الخارقة للعادة ففرق اللهُ البحرَ وأغرق فرعونَ وجنوده[1]. وكذا كان الأمر مع سيدنا نوح ﷺ الذي دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا فاستنفذ الأسباب كلّها، ثم أتت المعجزة التي أهلكت أهل الباطل والكفر وحقّقت النصر الإلهي.

وكما أن الله ﷻ أخبرنا أن المعجزات قد خلت في الأمم السابقة، إلا أن هناك معجزة خالدة إلىٰ قيام الساعة بين أيدينا وهي القرآن الكريم، التي تحدّىٰ الله بها الأجيال السابقة واللاحقة إلىٰ قيام الساعة، وتحدّىٰ بها العرب الذين هم أفصح الناس وأهل البلاغة والبيان، ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾ (الطور: ٣٣-٣٤). لذا عندما طلب الكفّار آية من النبي ﷺ تدلّ علىٰ صدقه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (العنكبوت: ٥٠) كان الردّ أن القرآن هو أسمىٰ الآيات وأوضحها وأعظمها أثرًا وأصدقها دلالةً علىٰ صحة الرسالة ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ (العنكبوت: ٥١).

كما أن الله – تعالىٰ – أخبرنا أن الآيات مازالت مستمرّة بهدف هداية الناس إلىٰ الحقّ لا بهدف تحقيق السلم والرخاء الدنيوي. ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾ (فصلت: ٥٣).

---

(١) هذه الفقرة منقولة من أحد المنشورات علىٰ موقع الفيسبوك، ولم أستطع الوصول لصاحبها، فجزاه الله خيرًا.

وعليه فإننا نقول: أن هدف الرسالة بالأصل هو هداية الناس، وكذا كان القرآن ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: ١) وكذا كانت جميع الآيات والمعجزات، وفكرة أن المعجزات هدفها تحقيق الرخاء الأرضي أو السلام الاجتماعي بين الناس هي فكرة خاطئة لا يجوز الاستدلال بها علىٰ إمكانية إحداث المعجزات الآن بغرض إنقاذ المظلومين والمستضعفين لأن هذا لم يكن غرض المعجزات يومًا، والله المستعان.

س: لقد فهمت أنَّ وجود الإنسان ذي الإرادة الحرة يقتضي وجود الخير والشر في أفعاله التي نرىٰ نتائجها، كما يرتبط السبب بالمسبب، ولكن إذا كان الله الخالق كليَّ العلم ومطلق القدرة، ألم يكن يعلم أنَّ الإنسان سيرتكب تلك الأفعال؟! ألم يكن يعلم أنَّ الإنسان سيكفر بالله وسيعيث في الأرض فسادًا؟! فلماذا لـم يمنع الله الإنسان من ذلك؟! لـماذا يستمر الإنسان في الكفر بخالقه، وفي تعذيب البشر رغم أنَّ الله قادر علىٰ إيقاف ذلك؟! بل هو - تعالىٰ - قادر علىٰ خلق كل البشر أخيارًا ليعيشوا في تناغم وسعادة وسلام دون حروب ودون صراعات، فلماذا لـم يفعل ذلك؟!

كما ذكرنا في الفصل السابق؛ فإنَّ وجود الإنسان علىٰ الأرض، واختيار الله ﷻ للإنسان ليحمل الأمانة ويهبه - سبحانه - نعمة التعقل وحرية الاختيار ليس أمرًا عبثيًّا أراده الله بلا حكمة، حاشا لله - تعالىٰ - ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١٥)، ويسري هذا علىٰ

الإنسان كما يسري على الخلق كله الذي سخره الله ﷻ لوجود وخدمة الإنسان حتى يتسنى له أداء أمانته فيه: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٦)، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية: ١٣).

وكما ذكرنا آنفًا فإنَّ وجود التباين بين الخير والشر أمرٌ ضروري ليستقيم الاختبار، ولنعطي مثالًا يقرب لنا هذا المعنى، فلنفترض - مثلًا - أنَّ هناك اختبارًا جامعيًا لمجموعة من الطلاب، أليس الاختبار يتطلب المذاكرة والاجتهاد حتى ينجح الطلاب؟ هذا ضروري بالتأكيد، ولكن ماذا لو أنَّ إدارة الجامعة أعلنت للطلاب أنَّ الاختبار سينجح فيه الجميع، هل سيذاكر أحد؟ بالتأكيد لا، فإذا كان جميع الطلاب ناجحين فلمَ المذاكرة والاجتهاد والسهر من الأساس؟

ولله المثل الأعلى، تلك هي الدنيا؛ فالله ﷻ أخبرنا أنَّ هذه الدنيا هي دار ابتلاء واختبار ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الكهف: ٧)، وكما خلق الله ﷻ الحياة خلق الموت، ولقد أخبرنا الله ﷻ بحكمة ذلك، فأخبرنا أنَّ وجود الشر أمرٌ لازم وحتمي حتى يستقيم الاختبار للإنسان، ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الملك: ٢)، ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٥).

فلا يعقل أبدًا أن يكون هناك اختبار ينجح فيه الجميع، أو أن يكون هناك اختبار بلا أسئلة! لأنَّ غياب الأسئلة يعني غياب الاختبار من الأساس، والأسئلة في هذا الدنيا هي الصعوبات والآلام والفتن ونحو ذلك من

(الشرور)، أمَّا المذاكرة؛ فهي الإيمان، والتسليم، وأداء التكاليف الشرعية كما أمرنا الله ﷻ بها، ولا تستقيم المذاكرة إلَّا باختبار حتىٰ يكون هناك معنىٰ للثواب والعقاب.

وبسبب خيانة الإنسان للرسالة، وتغافله عن حمل الأمانة، وقع الظلم، وتمايز البشر واختلفوا، فكانت الحكمة في اختلاف البشر هو الاختبار ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ (المائدة: ٤٨)، وردّ البشر إلىٰ غايتهم التي خلقوا من أجلها ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ (الفرقان: ٢٠). يقول الإمام القرطبي: «ومعنىٰ هذا: أنَّ كل واحد مختبرٌ بصاحبه، فالغني ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه، ولا يسخر منه، والفقير ممتحن بالغنىٰ عليه أن لا يحسده، ولا يأخذ منه إلَّا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما علىٰ الحق، كما قال الضحاك في معنىٰ ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾، أي: علىٰ الحق. وأصحاب البلايا يقولون: لِمَ لَمْ نُعافَ، والأعمىٰ يقول: لِمَ لَمْ أُجعل كالبصير؟ وهكذا صاحب كل آفة... فالفتنة أن يحسد المبتلىٰ المعافىٰ، ويحقر المعافىٰ المبتلىٰ، والصبر أن يحبس كلاهما نفسه، هذا عن البطر، وذلك عن الضجر»[1].

لذلك: فإنَّ الصراع في حقيقة الأمر قائم منذ وُجد آدم علىٰ الأرض، وهذا ما أثبتته عدة دراسات منها واحدة بعنوان (The paradox of war)[2]، وأخرىٰ بعنوان (**صناعة العدو: كيف تقتل بضمير مرتاح**)، وثالثة بعنوان (**لماذا**

---

(١) القرطبي، (**الجامع لأحكام القرآن**)، (١٨/ ١٣).

(٢) المادة متوفرة علىٰ موقع (Coursera).

تنشأ الحروب).. وغيرهم، ممَّا يوضح أنَّ الميل إلىٰ النزاع والحرب هو نزعة بشرية مؤصلة في الإنسان من حيث هو إنسان، وقد أخبرنا القرآن بأنَّ الصراع الإنساني - الإنساني ضروري حتىٰ يصحَّ الاختبار ويستقيم الوجود، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ (البقرة: ٢٥١).

ولذا لـم يأتِ الإسلام ليعدنا بالطوبيا البشرية، والفردوس الأرضي، حيث السلام الدائم والراحة الأبدية؛ لأنَّ الإسلام جاء ليتعامل مع الطبيعة البشرية لا ليستعلي عليها، ومن ثَمَّ فإنَّنا كما نجد أنَّ هناك بلاء وجهاد وصبر وجزاء وألم وحزن في الإسلام، كما هناك عزة وتمكين وقوة وقتال وأسر وإثخان وإعداد وانبعاث ونفير ورباط وغير ذلك ممَّا هو متعلق بالبلاءات والحروب والصراعات البشرية؛ **لأنَّ الإسلام جاء ليرشّد الأفعال الإنسانية من حيث هي إنسانية لا من حيث هي سماوية.**

س: هل معنىٰ ذلك أنَّ الإنسان الذي يكفر بالله يفعل ذلك جبرًا علىٰ الله - تعالىٰ -؟! أم أنَّه - سبحانه - أراد لهذا العبد في الأزل أن يكفر به فخلقه وهو يعلم أنَّه سيكفر به، ومن ثَمَّ سيخلد في النار؟! هل معنىٰ ذلك أنَّ الله خلق الكافرين كي يعذبهم؟! ما وجه العلاقة بين القدر وبين اختيار العبد وبين الثواب والعقاب؟!

هذا المشكل يمكن حلُّه من خلال الآتي..

للقدر أربعة مراتب:

(١) العلم. (٢) الكتابة. (٣) المشيئة. (٤) الخلق.

(١) **فالعلم:** يعني أنَّ الله بكل شيء عليم، وقد أحاط بكل شيء علمًا، يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، بعلمه الأزلي الأبدي، فلا يتجدد له علم بعد جهل ولا يلحقه نسيان بعد علم، ولا يغيب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض.

(٢) **أمَّا الكتابة:** فتعني أنَّ الله ﷻ كتب في اللوح المحفوظ كل ما هو كائنٌ إلىٰ يوم القيامة قبل أن يخلق السماوات والأرض، كما قال رسول الله ﷺ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»[١].

ومثال تلك النقطتين للتدليل علىٰ أنَّ العلم المسبق لا ينفي التخيير في الفعل، ولله المثل الأعلىٰ؛ لنفترض أنَّ والدًا اصطحب ابنه إلىٰ مطعم، ومن خلال علم الوالد بطفله عرف أنَّه سيطلب طعام كذا ودوَّنه في ورقة، ولم يطلع ابنه عليها، ثم جاءت لحظة اختيار الطعام فاختار الابن ما علمه وكتبه والده في الورقة بالفعل، فهل هذا يعني أنَّ الوالد سلب ابنه حرية الاختيار لما يريده؟ بالتأكيد لا.

ولله المثل الأعلىٰ؛ فالله ﷻ هو خالقنا، ويعلم وجودنا أكثر ممَّا نعلمه نحن، وعلمه الأزلي الكلي - سبحانه - لا يتعارض مع التخيير الذي وهبه الله لنا وترك لنا حرية الاختيار بين الكفر والإيمان: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)، وكونه علم ما سنختار لا يتعارض مع حرية اختيارنا؛

---

(١) رواه مسلم.

وعليه فليس هناك ما يتعارض مع الثواب والعقاب في الآخرة.

(٣) أمَّا المشيئة: فتعني أنَّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يحدث في كون الله شيء رغمًا عنه - حاشا لله تعالىٰ -، بل كل شيء يحدث بمشيئته، فلو شاء ما كفر الكافر، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ (يونس: ٩٩)، لكنَّه شاء أن يعطي للكافر حرية الاختيار، حتىٰ إذا اختار الكفر أعطاه له وليتحمل هو نتيجة اختياره.

والمشيئة تأتي بمعنىٰ الإرادة، والإرادة تنقسم إلىٰ قسمين: (الإرادة الكونية، والإرادة الشرعية).

أمَّا الإرادة الكونية: فهي كل ما أراده الله ﷻ في الوجود، خيره وشره، قديمه وحديثه، ما يحبه الله وما يبغضه، فكما يوجد الشيطان والهوىٰ والألم والمعاصي، وجد أيضًا الملائكة والضمير والروح والطاعات، وهي قول الله - تعالىٰ -: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (التكوير: ٢٩).

أمَّا الإردة الشرعية: فهي ما يحبه ويرضاه الله ﷻ سواء وجد أم لم يوجد، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٢٧)، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ (الزمر: ٧)، فالله يريد من جميع الناس أن تؤمن وأن تتوب، ولكنَّها ليست إرادة كونية، وإنَّما إرادة شرعية في مساحة اختيار الإنسان الذي يختار أن يتوب أو ألا يتوب.

ومهما كان اختيار الإنسان؛ فإنَّ ذلك أمرٌ أراده الله ﷻ كونيًّا وكتبه في اللوح المحفوظ في الأزل، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (التكوير: ٢٧ - ٢٩)، وقد أراده الله

كونًا وقدرًا تبعًا لعلمه الأزلي القديم.

(٤) أمَّا الخلق: فيعني أنَّ الله ﷻ هو خالق كل شيء، بما في ذلك أفعال العباد كلها بما فيها الكفر والإيمان والطاعات والمعاصي... إلخ، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ (الأنعام: ١٠٢)، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٦)، والثواب والعقاب يتحددان علىٰ أساس اختيار الإنسان لأفعاله كونه مخيرًا بين الإيمان والكفر وما يترتب عليهما من طاعة وعصيان عمومًا، «فالله تعالىٰ هو الذي خلق قدرة العبد وإرادة العبد... وهو خالق أفعال العباد، والعباد هم الفاعلون حقيقة»[1].

ولنورد مثالًا للتقريب؛ لنفترض أنَّ صيدليًّا افتتح صيدلية، ثم شرع في شراء واستيراد الأدوية من الشركات المختلفة، ثم فتح صيدليته للجمهور، فجاءه في يوم أحد المرضىٰ يشتكي من ألم في المعدة، فأخطأ الطبيب الصيدلي في اختيار الدواء للمريض، فاختار له أحد الأدوية لعلاج بعض الأمراض في المخ فتوفي المريض جراء ذلك.

السؤال هنا: إذا أراد أهل المريض أن يتحاكموا إلىٰ القضاء، من سيعتبر الجاني؟ الصيدلي الذي اختار بكامل إرادته الدواء الخاطئ للمريض، أم شركة الدواء التي أصدرت الدواء وباعته للصيدلي؟ بكل تأكيد سيكون الصيدلي الذي اختار الدواء بشكل خاطئ.

---

(١) عبد الرحمن السعدي، **(شرح القصيدة التائية)**، مكتبة أضواء السلف، الرياض، (١٩٩٨م)، ص (١٢).

ولله المثل الأعلىٰ؛ فإنَّ الله ﷻ خلق الأفعال كلها، وخلق قدرة الإنسان علىٰ الاختيار، فعندما يختار الإنسان؛ فإنَّ الثواب والعقاب يرجعان إلىٰ اختيار الإنسان للأفعال لا إلىٰ خالق الأفعال ﷻ.

من خلال هذا العرض الموجز لقضية القدر؛ فإنَّنا نستطيع أن نحل جميع الإشكالات حول النصوص الشرعية الخاصة بمسألة القدر، ومنها الحديث المشهور: «كُنَّا جُلُوسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، وَقَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا قَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، أَوْ مِنَ الْجَنَّةِ**»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: «أَلَا نَتَّكِلَ يَا رَسُولَ اللهِ؟»، قَالَ: «**لَا، اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ**»، ثُمَّ قَرَأَ: **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ**.. الآية»[1].

س: فلماذا خلق الله النار؟!

الجواب علىٰ هذا التساؤل من وجهين:

الوجه الأول: خلق النار من عدل الله ﷻ، فكما أنَّ الجنة هي المآل والثواب للمؤمنين والصالحين والصابرين؛ فإنَّ النار هي النتيجة والعقاب لعصيان الإنسان وإهماله للتكاليف الشرعية وجحوده بالله - تعالىٰ -، وبدون الجزاء فما فائدة الاختبار؟

ولنعطي مثالًا لفهم هذه النقطة؛ فلو افترضنا أنَّ هناك اختبارًا جامعيًّا سيخوضه الطلاب بعد شهرين، فانقسم الطلاب إلىٰ ثلاثة أقسام: **القسم الأول:** اجتهد اجتهادًا شديدًا في تحصيل المواد وفي مذاكرتها

(١) رواه البخاري.

وسهر وتعب وجد من أجل التفوق في الامتحان. **والقسم الثاني**: لم يستعد جيدًا للاختبار، ولكنَّه ذاكر قدر من المذاكرة يسمح له بمجرد تجاوز الاختبار. **والقسم الثالث**: لم يذاكر وظل طوال الشهرين يلعب ويلهو ويتنزه ويفرح.

وعندما يدخل الطلاب الامتحان، نسأل السؤال: هل من العدل أن يتم إعلان النجاح لجميع الطلاب؟ بمعنىٰ أن كل من دخل الاختبار سواء ذاكر أو لم يذاكر، جاوب الأسئلة أم لم يجاوب، فجميع الطلاب ناجحون وكلهم حصلوا علىٰ مستوىٰ واحد من الدرجات، فالسؤال هل من العدل أن تتم المساواة بين الطالب الذي حرم نفسه من المتع واللذات واجتهد وسهر وكدّ من أجل التفوق وبين الطالب الذي قضىٰ فترة الشهرين في التلذذ والاستمتاع واللهو؟! بالتأكيد لا، يجب أن تضمن المؤسسة التعليمية الثواب للطالب المجتهد حسب جهده مع ضمان العقاب أيضًا للطالب الكسول غير المبالي حتىٰ تستقيم العملية التعليمية.

ولله المثل الأعلىٰ؛ فهذا يشبه وجود النار، فالله ﷻ أخبرنا أنَّه من عمل صالحًا فله الجنة، ومن عمل السيئات وأشرك بالله فله النار، ثم تفرق الناس في هذه الدنيا إلىٰ قسم ضحىٰ بنفسه وماله وأهله من أجل إرضاء الله ﷻ وحرم نفسه من الشهوات واللذات ابتغاء مرضاته - سبحانه -، وقسم آخر عاث في الأرض فسادًا وظلم وسفك الدماء ونهب الأموال واغتصب النساء وحاز علىٰ كل اللذات الدنيوية دون أي رادع، فهل يستقيم أن يعدل الله ﷻ بين هذا وذاك؟! هل يستقيم أن يكون ثواب المؤمن المجاهد في سبيل الله

الحافظ لدين الله كثواب الفاجر والقاتل والزاني والظالم؟! بالتأكيد لا، وإنَّما من العدل أن يكون هناك ثواب وعقاب حسب عمل كل إنسان حتىٰ يستقيم الاختبار، فسبحان من يدخل المؤمنين الجنة برحمته وعفوه وغفرانه ويدخل الكافرين النار بعدله وقهره وسلطانه.

الوجه الثاني: خلق النار ليس رغبة من الله في قذف البشر فيها، فعندما عرض الله ﷻ الأمانة علىٰ الإنسان قال له إن أطعت فلك الثواب، وإن عصيت عوقبت، فلم يكن خلق النار ابتداء رغبة في قذف الإنسان فيها، وإنَّما لتخويف الإنسان من تضييعه للأمانة.

ومثال ذلك أنَّنا إذا افترضنا أنَّ هناك طفلًا يحبو إلىٰ الشرفة فيتسلق السور ويكاد أن يقع فيموت، فنهره أبوه وحذره من تسلق السور، ولكن هذا الطفل عاود تسلق السور مرة أخرىٰ، فنهره أبوه مرة ثانية، وفي المرة الثالثة هدَّده أبوه بأنَّه سيضربه إذا تسلق السور مرة أخرىٰ!

السؤال هنا: هل الوالد هدَّد الطفل بضربه بسبب رغبة الوالد في ضرب الطفل فعلًا؟ بالتأكيد لا، ولكنَّه هدَّده بضربه؛ لأنَّه يخاف عليه، ويحرص علىٰ سلامته، فكان التهديد حُبًّا للطفل لا كرهًا له.

ولله المثل الأعلىٰ؛ فإنَّ آيات الترهيب من النار وتحذير الله لعباده من الكفر والمعاصي ليس لرغبة الله في قذف الناس في جهنم، وإنَّما من أجل حثهم علىٰ تأدية الأمانة والتكاليف الشرعية حتىٰ تستقيم حياة الإنسان في الدنيا والآخرة، فكما أنَّ بعض البشر يتم تحفيزهم في الحياة من خلال عرض الثواب والجائزة إذا أحسنوا؛ فإنَّ البعض الآخر لا يتم تحفيزهم إلَّا من خلال

التهديد بالعقاب إذا فرّطوا.

بعد هذا الحديث، تبقىٰ نقطة أخيرة في فهمنا لمسألة الشر.

(٣) الشر في الدنيا سبيل للخير الأكبر:

إنَّ الله ﷻ يتصف بصفات الكمال كلها، ومقتضىٰ كماله - تعالىٰ - يستلزم ألا يظن عاقل أنَّ هناك مخلوقًا خُلق بطريقة عبثية أو أن ثمة أمرًا حادثًا لا حكمة إلهية من وجوده ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩)، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ٢). فالله ﷻ منزه عن هذا وليس لامرئ أن يسأل الله علىٰ كل شيء وأن يرجوه أن يظهر حكمته من وجود الأشياء ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣)، فما دام المرء مؤمنًا فقد سلَّم نفسه وقلبه وعقله وجسده لله ﷻ تمام التسليم، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥)، مع الاعتراف بمشروعية القلق الوجودي كخاصية إنسانية.

وجوهر الإيمان هو التسليم، أمَّا الحوادث والأخبار التي يصعب علىٰ عقولنا إدراك الحكمة الربانية الكامنة فيها فقد يبصرنا الله ﷻ بالغاية من وجودها وقد لا يبصرنا، وهذا لمشيئته ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ﴾ (القصص: ٦٨)، وفي كلا الأمرين فما علىٰ المؤمن سوىٰ التسليم لله ﷻ سواء تبينت له العلل أم لم تتبين ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦).

فعندما نتحدث عن الإسلام؛ فإنَّنا نقول: إنَّ الآخرة هي الغاية النهائية لكل الأفعال الإنسانية، وهي محور التفكير لدىٰ الإنسان الذي يقيم حياته علىٰ أساسها، «فالإنسان خلق لغاية واحدة؛ هي طاعة أوامر الله - تعالىٰ - التكليفية باختيار مسئول. والتكليف الرباني هو أساس إنسانية الإنسان، وجوهر هذا التكليف هو الفعل الإنساني الأخلاقي، وهذا الفعل الإنساني الأخلاقي هو أساس الوظيفة الكونية للإنسان»[1].

لذلك فإنَّ البلاءات التي تمرُّ علىٰ الإنسان هي في حقيقتها خير أراده الله ﷻ للإنسان حتىٰ تستقيم آخرته، فالحياة الدنيا مهما عمَّر فيها الإنسان فهي دار فناء وليست دار بقاء، ومهما قيس الألم والمعاناة التي يلاقيها المرء في دنياه فهي لا شيء أمام عذاب جهنم والعياذ بالله؛ **ولهذا** يثيب الله الإنسان المؤمن بما لم يثب أحدًا من خلقه كونه - المؤمن - أحب إلىٰ الله من جميع خلقه حتىٰ الملائكة.

يقول النبي ﷺ: **«يُؤْتَىٰ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ! وَيُؤْتَىٰ بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ! مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»**[2].

---

(١) إسماعيل راجي الفاروقي، (التوحيد: مضامينه علىٰ الفكر والحياة)، مرجع سابق، ص (١٥).

(٢) رواه مسلم.

وبناءً علىٰ مركزية الآخرة في حياة الإنسان تصبح البلاءات ذاتها خيرًا للإنسان؛ لأنَّها تعيده إلىٰ اعتبار الغاية الأخلاقية التي خلق من أجلها، حتىٰ قيل إنَّ سبب تسمية الإنسان لأنَّه ينسىٰ ومن طبعه أن يتناسىٰ الرسالة التي يحملها، فالانشغال بالدنيا والتقلّب المستمر بين ألوان النعيم وحياة التّرف والّدعة تنسي الإنسان آخرته وتهوي به إلىٰ اتباع الهوىٰ وتفضيل الدنيا وعبادة المادة ونسيان الله ونسيان أوامره وتكاليفه ونواهيه كما يقول الله ﷻ: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ (فصلت: ٥١).

ولذا يقول سيدنا عبد الرحمن بن عوف: «ابتُلينا مع النبي ﷺ بالضراء فصبرنا، وابتلينا بعده بالسراء فلم نصبر»[١].

وبِناءً علىٰ هذا التصور العقدي تصبح البلاءات والفتن خير حقيقي للإنسان كونها تذكره بما نسي من لقاء الله ﷻ، كما تذكره بما خلقه الله له، ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ (الحشر: ١٩).

فحتىٰ لو انشغل العقل بالتقدم التقني والمادي وابتكر الاختراعات والإبداعات والاكتشافات العلمية المذهلة؛ فإنَّ هذا في حقيقة الأمر لا يساوي شيئًا في المنظور السوي للحياة الدنيا.

يقول إبراهيم السكران: «فقد أخبر الله ﷻ نبيه ﷺ عن القيمة المنحطة في ميزان الله لكل تلك المدنيات التي عاصرت بعثة النبي ﷺ ووصفها

(١) رواه الترمذي، وحسّنه الألباني.

القرآن بالضلال بكل ما تضمنته قوتهم وعلومهم ومدنيتهم وفنونهم، بل وأخبرنا تعالى أنَّه يبغضهم ويمقتهم ويكرههم جل جلاله، سواء كانوا أدباء العرب، أم فلاسفة أثينا، أم أطباء الصين، أم حكماء الهند، أم غيرهم، كما روىٰ الإمام مسلم في صحيحه من حديث عياض المجاشعي: أنَّ رسول الله ﷺ قال يومًا في خطبته: «**وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ**»[1].

لذا فإنَّ الله ﷻ أخبرنا عن هذا الصنف الذين ينشغلون انشغالًا شديدًا بالدنيا وعلوم الدنيا دون العبء بالآخرة: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَٓخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ (الروم: ٧).

بل إنَّ أسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن يغتر الإنسان بتفوقه المادي وبالتقدم التقني فينسب العلم إلىٰ قدرته وإلىٰ مركزيته لا إلىٰ الله ﷻ، وهو عين ما دفع قارون الذي كان يمتلك من الكنوز ما تنوء العصبة من حمل مفاتيح كنوزه، فقال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ (القصص: ٧٨)، ولعلَّ هذا ما يُميِّز الحضارة المادية المعاصرة؛ إذ توضح مدىٰ غرور الإنسان بنفسه، ونسيانه لخالقه وللغاية من خلقه في صورة نموذجية تكرر ما قاله قارون من قبل.

«فالإسلامُ يقول لا لتمركز الإنسان الأخلاقي حول نفسه، ولا يقيم وزنًا للقيم الشخصية، ما لم تكن أسبابًا يرجىٰ التزود بها من أجل الارتقاء بنوعية

---

(١) إبراهيم السكران، (مآلات الخطاب المدني)، مركز الفكر المعاصر، السعودية، (١٤٣٥هـ)، ص (٦٥)، والحديث في صحيح مسلم.

حياة الإنسان على الأرض، وبحركة التاريخ بالاتجاه الذي يتمشى مع إرادة الله تعالى»[1].

ونختم هذه الجزئية بهذا النقل لشيخ الإسلام ابن تيمية حيث يقول: **«مصيبة تقبل بها على الله خيرٌ لك من نعمة تنسيك ذكر الله»**[2].

وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمينَ[3].

* * *

---

(١) إسماعيل راجب الفاروقي، **(التوحيد: مضامينه على الفكر والحياة)**، مرجع سابق، ص (١١).

(٢) عبدالله بن علي الجعيثن، **(تحفة المريض)**، القصيم، ص (٢٣).

(٣) استفدت في هذا الفصل كثيرًا من كتاب د. سامي عامري **(مشكلة الشر ووجود الله)**، وأحسب أنه من الكتب القليلة التي تناولت هذه المسألة بشكل مفصّل، بل أقول: أني ما وجدت كتابًا في المكتبة العربية الحديثة تناول المسألة بهذا الشكل من العمق والتحقيق باللغة العربية غير هذا الكتاب، فمن أراد الاستزادة في المسألة فليطّلع عليه.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ:

الْإِسْلَامُ وَالْعَلْمَوِيَّةُ

الْفَصْلُ الثَّالِثُ: الْإِسْلَامُ وَالْعَلْمَوِيَّةُ...

في بداية هذا الفصل يجب التنبيه علىٰ القارئ الكريم بأن قضية التطور وفلسفة العلم من القضايا المعقدة والمركبة التي لا يمكن فهم تفصيلاتها بإيجاز، لذا فإني أعد القارئ أني سأحاول تبسيط الموضوع قدر الإمكان تبسيطًا لا يخلّ بالموضوع، ولكن سيظل الأمر متطلبًا لقدر من الجهد يبذله القارئ لفهم المسائل وإدراك أبعاد القضية، فالقضية أكبر من أن يتم شرحها في كتاب واحد فضلًا عن بعض الصفحات من كتاب واحد، ولكننا سنسعىٰ قدر الإمكان لتفكيك المسألة بشكل ميسّر والله المستعان.

من المهم أن نبدأ بتنبيه غاية في الأهمية؛ إنَّه لا يغيب علىٰ مسلمٍ أنَّ التدخل الإنساني في القرآن ذاته يساوي صفرًا مطلقًا، بمعنىٰ أنَّ القرآن الذي يقرأه المسلمون الآن هو عين القرآن الذي كان يقرأه الصحابة والتابعين ومَن تبعهم إلىٰ يوم الدين، وهو نفس الوحي الذي كان يقرأه جبريل عليه السلام علىٰ محمد ﷺ فيبلغه محمد إلىٰ صحابته، أي إنَّ القرآن يستمدُّ قدسيته من كونه مرسلًا من عند الله ﷻ فحسب وبشكل خالص؛ وبالتالي فإنَّ القرآن الكريم هو في حقيقته نصٌّ إلهي من أوله إلىٰ آخره، أي إنَّه آتٍ من مصدر متجاوز للمادة ومتعالٍ عنها بشكل كامل، فلا تتواجد في بنية النص ذاته أية عوامل

بشرية علىٰ الإطلاق.

لذا فإنَّ المسلمين يُؤمنون إيمانًا قاطعًا أنَّ القرآن هو «كلام الله المُنزل علىٰ محمد ﷺ المتعبد بتلاوته للإعجاز بسورة منه، المبدوء بسورة الفاتحة والمنتهي بسورة الناس»[1]، وكل مَن يقول: إنَّ القرآن هو كلام البشر، أو ينكر حرفًا واحدًا من القرآن، أو يضيف إليه حرفًا واحدًا؛ فهو كافرٌ خارج عن الملة، كما نقل العلماء علىٰ ذلك إجماع الأمة.

علىٰ هذا الأساس المتين كان إيمان المسلمين إيمانًا راسخًا بهيمنة الوحي علىٰ كافة الموجودات بما في ذلك الوحي السابق للإسلام: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٨)، فالوحي في التصور الإسلامي هو المركز الذي ننطلق منه في التعامل مع الوجود ومصادر المعرفة وفلسفة القيم، كما أنه يمدنا بماهية الغيب وكنهه، ومن منطلق النظر إلىٰ الوحي كالمصدر الوحيد المتجاوز لهذا العالم،كان كل ما دون الوحي هامش يُردّ إلىٰ الوحي وليس العكس.

لذا كانت منهجية تعامل المسلمين مع الوحي تختلف مع أية منهجية أخرىٰ؛ إذ إنَّ الوحي يظل المرجعية النهائية التي تُردّ إليها كافة المعارف والموجودات، فلا يمكن - من الناحية النظرية - تصوّر تقديم أي رأي عقلي، أو هوىٰ نفسي، أو افتراض علمي، علىٰ القرآن والسُّنَّة الصحيحة، وما نشأت البدع التي نخرت في جسد الإسلام إلَّا بسبب تقديم الأهواء والآراء علىٰ

---

(١) انظر: جلال الدين السيوطي، (التحبير في علم التفسير)، تحقيق: د. فتحي عبد القادر فريد، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، (١٩٨٢م)، ص (٣٩، ٤٠).

القرآن والسُّنَّة الصحيحة، ولا يخفىٰ علىٰ أحد أنَّ بدعة تقديس العقل واعتباره في منزلة فوق منزلة الوحي هي في جملتها أثرٌ من آثارٌ لوثات الفلسفة اليونانية التي تمَّت ترجمتها ونقلها إلىٰ ديار المسلمين، خصوصًا علىٰ يد الخليفة العباسي المأمون.

صحيح أنَّه يُمكننا التوصل إلىٰ بعض القضايا عن طريق النظر العقلي دون الحاجة إلىٰ الوحي، مثل قضية وجود الإله، ووحدانيته، وبعض صفاته، وإعجازية نشوء الكون والحياة، وضرورة النبوّات، وصدق النبي ﷺ، وصحة الرسالة القرآنية، ونحو ذلك؛ إلَّا أنَّ العقل بمجرد أن يصل إلىٰ هذه القضايا ويُسلِّم بصحتها؛ فإنَّه يعزل نفسه لأنَّه أدَّىٰ ما عليه، ثم يتولَّىٰ الوحي قيادة العقل وتوجيهه نحو ما فيه صلاح الدنيا والآخرة، «**كما قال بعض أهل الإيمان: يكفيك من العقل أن يعرفك صدق الرسول ومعاني كلامه، ثم يُخلِّي بينك وبينه. وقال آخر: العقل سلطان وَلَّىٰ الرسول، ثم عزل نفسه**»[1].

يأتي الخلل عندما يتمُّ رفع العقل إلىٰ مستوىٰ الإطلاق بدلًا من الوحي، ممَّا يؤول إلىٰ اعتبار العقل الأصل الذي تُردُّ إليه الإشكالات بما في ذلك إشكالات الوحي ذاته (أقصد ما يُفهم أنها إشكال)، هذه النزعة العقلية المعلولة كانت سببًا في كثير من المشاكل التي اعترت الفكر الإسلامي عبر العصور، ويورد ابن النديم نصًّا يوضح لنا بجلاء النزعة العقلية التي اعترت التصور الإسلامي، علىٰ ما فيها من مبالغة إلا أنها رمزية لا أكثر، يقول: «رأىٰ

---

(١) ابن القيم، **(الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة)**، تحقيق: علي بن محمد الدخيل، دار العاصمة، الرياض، (١٤٠٨هـ)، (٣/ ٨٠٧).

المأمون في منامه كأنَّ رجلًا أبيض اللون... جالسٌ علىٰ سريره، قال المأمون: وكأنِّي بين يديه قد ملئت له هيبة، فقلت: من أنت؟ قال: أنا أرسطوطاليس. فسررت به، وقلت: أيُّها الحكيم، أسألك! قال: سلْ. قال: ما الحسن؟ قال: ما حسن في العقل. قال: ثم ماذا؟ قال: ما حسن في الشرع. قال: ثم ماذا؟ قال: ما حسن في الجمهور. قال: ثم ماذا؟ قال: ثُمَّ لا ثُمَّ... **فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب [الفلسفية]**»[1].

وجدير بالذكر أنَّ دار الحكمة التي أنشأها المأمون لترجمة كتب الفلسفة اليونانية كان أغلب العاملين فيها من أهل الكتاب الذي كانوا يضمرون حقدًا علىٰ المسلمين نظرًا لاستيلائهم علىٰ ديارهم وفتحهم لبلادهم، «فقد لعب المسيحيون دورًا بارزًا في قيام بيت الحكمة، فكان أول مَن ترأس هذه المؤسسة مسيحي هو أبو زكريا يوحنا بن ماسويه، وتقلَّد رئاستها بعده حنين بن إسحق، وبين ألمع المترجمين كان جورجيس بختيشوع، وجبريل بن بختيشوع، ويوحنا بن البطريق، واسطفان بن باسيل، وإسحق بن حنين، وقسطا بن لوقا، وثابت بن قرة، وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي»[2].

لماذا نُورد هذه الإشكالية؟! لأنَّه إذا كان أمر تقديم العقل علىٰ النقل

---

(١) ابن النديم، (الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم)، تحقيق: رضا تجدد، ص (٣٠٣، ٣٠٤).

(٢) ألكسندر أغناتنكو، (بحثًا عن السعادة: الأفكار الاجتماعية السياسية في الفلسفة العربية الإسلامية)، دار التقدم، موسكو، (١٩٩٠م)، ص (٢١).

وتسرّب النزعة العقلية إلىٰ المسلمين عبر دار الحكمة وفكر المعتزلة ونحو ذلك، إذا كانت هذه الأمور قد اندثرت وطوىٰ التاريخ صفحاتها ومشاكلها؛ فإنَّ ذات الخلل يتكرَّر مرة أخرىٰ في صيغته المعاصرة عندما تتسرب النزعة العلموية إلىٰ العقلية المسلمة، فمثلما أنتج الغرب قديمًا المنطق الأرسطي الذي استورده المسلمون؛ بأفكار الأفلاك العشرة والعلل الأربعة والمنطق الصوري والهيولي وغير ذلك، فكان فيه منافع قليلة ومضار كثيرة للمسلمين، فقد تجاوز الغربيون المنطق الأرسطي وأنتجوا المنطق التجريبي/ الإمبريقي (الذي أسس بنيانه المسلمون، وليس هاهنا محل التفصيل)[1]، ثم استورده المسلمون أيضًا بذات المنافع القليلة والمضار الكثيرة، إلا أنه في هذه الآونة لم يكن لدىٰ المسلمين جهاز مناعي قويّ بشكل كافٍ حتىٰ يشكّل دفاعًا يمحّص هذه النزعة العلموية ويستخرج منها الصالح وينبذ الطالح، ففي خضم التقهقر الحضاري للمسلمين وتفكيك منظوماتهم الاجتماعية والسياسية والعقدية تم النظر إلىٰ الأفكار والعلوم الغربية ويكأنها المخلّص الذي سيحل أزمات الأمة الإسلامية، فتسربت هذه النزعة إلىٰ الأمة دون أن تدري الأمة بعللها ولا بتفصيلاتها! وسادت النزعة العلموية في كثيرٍ من طبقات الأمة، ولكن بدون رد فعل مقاوم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونقصد بالعلموية Scientism أي الاتجاه إلىٰ حصر مصادر المعرفة

---

(١) انظر: يمنىٰ طريف الخولي، (فلسفة العلم في القرن العشرين: الأصول، الحصاد، الآفاق المستقبلية)، مكتبة هنداوي، القاهرة، (٢٠١٤م)، ص (٤٢-٦٠).

وطرائق الاستدلال في المشاهدة والملاحظة والإدراك الحسّي والتجربة فحسب؛ فيصبح التجريب Empiricism هو باب المعرفة الوحيد والمقدّس الذي يتعالَىٰ علىٰ كافة الآراء بما في ذلك الوحي ذاته! وهذه النزعة العلموية ليست وليدة اليوم، بل هي نتاج سردية كبرىٰ منذ وضع أسسها فرنسيس بيكون في القرن السادس عشر، فتطوّرت في السياق التاريخي حتىٰ صارت هي المذهب الحاكم للأوساط العلمية في الغرب كونها الأصل الذي يتفرّع منه جميع النظريات والآراء العلمية والصراعات المزعومة مع الدين.

وتأتي نظرية التطور علىٰ رأس منتجات العلموية.

والعلموية أو المذهب الإمبريقي هو ما سنتناوله بالنقد عند عرض علاقة الإسلام بالعلم، دون الخوض كثيرًا في مخرجات هذا المذهب من نظريات وأبحاث وغير ذلك، فظنِّي أنَّ هذا الموضوع - العلاقة بين الإسلام والعلم وحثّ الإسلام علىٰ طلب العلم والنظر في الطبيعة ونحو ذلك - أمرٌ مستهلك، وقد كُتب حوله عشرات بل ربما مئات الكتب والأبحاث، ولسنا نضيف جديدًا علىٰ ما هو مكتوب بالفعل؛ لذا فقد فضلت هاهنا أن أتناول مسألة أكثر دقة، وهي العلاقة بين الإسلام وفلسفة العلم، لا مسائل العلم ذاته، وأقصد بفلسفة العلم أي الأصل الفلسفي المادي الذي ينبني عليه العلم المعاصر ابتداءً لا المخرجات (النظريات والحقائق) التي تفرزها تلك الفلسفة.

وسواء اندثرت - تاريخيًا - منهجيات فاسدة في التعامل مع النصوص الشرعية، كالمنهج الجهمي، والمنهج المعتزلي، وغير ذلك، أو ظهرت منهجيات جديدة كالمنهج العلموي في التعامل مع النصوص الشرعية، فإن

الحق يظل حقًا، والباطل يظل باطلًا.

فطريقة السلف في التعامل مع النصوص الشرعية تأتي بعد إيمان العقول بصحة الشرع وبثبوت النصوص وصدقها وقدسية مصدرها الإلهي، لذا فإن منهجية السلف ترتكز بالأساس علىٰ مبدأ التسليم للنص الشرعي، فهذه المنهجية لا تعارض الوحي بالعقل، ولا تقيس النص الشرعي الثابت علىٰ المعقول، **إذ إن الإيمان بالوحي لم يكن أصلًا إلا بتصديق العقل لدلائل الصدق الكامل للنبي ﷺ ومن ثمّ الانقياد التام لخبره**، وفي ذلك يقول ابن تيمية: «فالدليل [العقلي] الدالّ علىٰ صدق الرسول يقتضي ثبوت جميع ما أخبر به.. ويمنع ثبوت بعض أخباره دون بعض. فمن أقرّ ببعض ما أخبر به الرسول دون بعض، فقد أبطل الدليل العقلي الدالّ علىٰ صدق الرسول، وقد أبطل الشرع، فلم يبق معه لا عقل ولا شرع»[1].

كما أن هذه المنهجية لا تتصور تعارضًا أصلًا بين صحيح المعقول وصريح المنقول، يقول ابن تيمية تعليقًا علىٰ كلام الرازي في التعارض بين النقل والعقل: «ومنشأ الضلال قوله - أي الرازي -: (لو قدّرنا قيام الدليل القاطع العقلي علىٰ خلاف ما دلّ عليه الدليل السمعي) فإثبات هذا التقدير هو الذي أوقعكم في هذه المحاذير، فكان ينبغي لكم أن تعلموا أن هذا التقدير يجب نفيه قطعًا، وأنه يمتنع أن يقوم دليل قاطع عقلي مخالف للدليل السمعي»[2]، ويعلّق

---

(١) ابن تيمية، (درء تعارض النقل والعقل)، (١/ ٢٨١).

(٢) المرجع نفسه، (٥/ ٣٨٩).

الشيخ عبد الرحمن بن سعد الشهري قائلًا: «فالعلاقة بين النقل والعقل عند المتكلمين تقوم في أصلها علىٰ التعارض والتناقض لا علىٰ التلازم والتوافق، فهذه هي حقيقة التقابل بين النقل والعقل عندهم، ولهذا فرضوا إمكان التعارض بين العقل والنقل وبنوا عليه قانون التعارض، وإلا فلو كانت العلاقة عندهم تقوم علىٰ التلازم والتوافق لما احتاجوا إلىٰ هذا الفرض ولا إلىٰ قانون التعارض برمته. **فالقول بإمكان التعارض بين العقل والنقل يلزم منه القول بتعارض الحقائق وتناقضها، وأنه يمكن نقض الحق بما هو حق**، والقول بهذا فيه نفي لجميع الحقائق وعدم إمكان إثبات الحقائق بدليل يسلم عن معارض صحيح علىٰ زعمهم»[1].

أما المنهجية المستوردة الجديدة فهي المنهجية العلموية في التعامل مع النصوص الشرعية، وهي منهجية تتضمن التشكيك في كل شيء وعدم الإيمان اليقيني بأية فكرة علىٰ الإطلاق، يقول الأحيائي التطوري جيري كوين (Jerry Coyne): «لا يعني تراكم الأدلة وتقبل الناس للنظرية العلمية - أيًا ما كانت - أنها لا يمكن تخطئتها، فجميع النظريات العلمية مؤقتة، ومعرّضة للتغيير في ضوء الأدلة الجديدة. لا يوجد جرس منبه يضرب ليخبر العلماء أنهم قد توصلوا إلىٰ الحقيقة المطلقة والنهائية بشأن الطبيعة»[2]، وإن

---

(١) عبد الرحمن بن سعد الشهري، **(الدليل العقلي عند السلف)**، مركز التأصيل، السعودية، (٢٠١٥م)، ص (٧٣).

(2) Jerry Coyne, Why Evolution is true, Oxford University Press, USA, 2009, P. 16.

كان هذا المنهج الشكّي متفهّمًا في مجال العلوم الطبيعية، فإن المشكلة تأتي عندما تُطبق هذه المنهجية التشكيكية على النصوص الشرعية، فتغدو النصوص الشرعية قابلة لكل شيء ومفتوحة أمام أي تفسير على الإطلاق، وكأن النصوص المحُكمة قد زالت وأضحت النصوص جميعها متشابهة!

ومع كثرة التفسيرات والتأويلات وتحت ركام النظريات والجدالات هائلة العدد، «فإن كثرة العوارض والشبهات والإيرادات التي تأتي على قلب المسلم تضعف من درجة تسليمه للنص الشرعي من حيث يشعر أو لا يشعر، فيسهل عليه رفض حكم شرعي، أو تأويل نصّ ما، أو تضعيف حديث معيّن، نظرًا لعوامل كثيرة تضغط عليه فتؤثر في نتيجة فهمه للنص، وإن كان صادقًا في اتباع الدليل، فالخطأ في نفي النص أو تأويله لا يأتي فقط من المكذِّب للنص والمستخفّ به، بل يأتي ممن تكاثرت عليه الاعتراضات والشبهات فأصبح يقيّم النص بناء عليها، وهذا يستدعي ضرورة التأكيد على أهمية التسليم لله ولرسوله ﷺ، وإحياء هذه المعاني في النفس حتى يكون حضورها متمكنًا في قلب المسلم، فيكون حكمه أقرب إلى الحق وتضعف معه أثر العوارض عليه»[1].

كل هذا يدفعنا إلى السؤال التالي:

س: ما مدى توافق الإسلام مع فلسفة العلم الطبيعي المعاصر؟!

إنَّ أغلب المسلمين - وقل: البشر - يتخيَّلون أنَّ العلم التجريبي الذي

---

(١) فهد بن صالح العجلان، (التسليم للنص الشرعي والمعارضات الفكرية المعاصرة)، مركز التأصيل، السعودية، (٢٠١٥م)، ص (١٠).

يقدّمه الغرب هو قيمة مجرَّدة سامية و(حيادية) غير ممكن تحريفها أو تدليسها؛ لأنَّها تعتمد علىٰ التجارب والأبحاث العلمية (المعتمدة) النهائية، فكأنَّ العلم الذي يأتي من الغرب قد أضيفت له هالة من القداسة تمنعه من المسائلة أو التشكك أو وضعه في محل النقد والنظر؛ فقط لأنَّه (علم)، ففي اللحظة التي يشكّك فيها أحد في ماهية العلم ذاته، أو يقلّل من قيمة فلسفته أو منهجيته، حتىٰ تنهال عليه فورًا سيول الاتهامات والشتائم والأوصاف العجيبة من رجعية وجاهلية وظلامية... إلخ.

والحقيقة: إنَّ العلم التجريبي الذي يتم تصديره لنا - وللعالم - علىٰ أنَّه قمة العقلانية والحيادية والتنوير، وذروة النزاهة والموضوعية، هو في حقيقته معرفة إنسانية - كغيرها من المعارف - يمكن استيعابها داخل الأنساق المعرفية الغربية ككل التي تقوم علىٰ فلسفة وضعية تنتج ما تنتج من معارف وقيم ونحو ذلك، ويتأثر العلم في هذا النسق بالأهواء الشخصية، والتقلبات النفسية، والظروف السياسية، والأحوال الاقتصادية، وبتحكم اللوبيهات في أعيانه ومخرجاته ومؤسساته، شأنه كشأن أي نشاط بشري تاريخي؛ لذا «فإن التزوير في العلم يجب أن يتوقع ألا يكون أكثر أو أقل من التزوير في المجتمع بشكل عام»[1].

لذلك فإنَّ أي تصور يضع العلم التجريبي الغربي بشكل مستقلّ خارج سياقه الظرفي من حيث أصول النشأة والتكوين والأهداف فهو تصورٌ غلط

(1) William Broad and Nicholas Wade, Betrayers of the truth: Fraud and deceit in the Halls of Science, New York, Simon and Schuster, P. 86.

تمامًا، فنحن نستطيع أن نقسّم الأطوار العلمية الغربية إلىٰ ثلاثة مراحل:

١) مرحلة ما قبل النهضة (العصور اليونانية والكنسية).

٢) مرحلة النهضة (الفيزياء الكلاسيكية، الحتمية).

٣) المرحلة المعاصرة (اللاحتمية).

وفي كل مرحلة فإننا سنجد أن (العلم) كمعرفة إنسانية يختلف تعريفه، وموضوعاته، وإسقاطاته الدينية والسياسية، وأهدافه، ومناهجه، في كل مرحلة علىٰ حدة.

أما علم ما قبل النهضة فيكاد لا يُذكر له تأثير سوىٰ تعضيد الرؤىٰ الكونية، وثنية كانت أم كنسية أم مادية، إذ إن «العلم كان نشاطًا مشتتًا مبعثرًا، ملحقًا بالكهنوت الكنسي وبالاحتياجات العلمية في الحضارات القديمة، وبفلسفة الحضارتين الكلاسيكية والوسيطة، فلم يكن كيانًا متميزًا بذاته»[1].

أما مرحلة النهضة، «فقد قامت الفيزياء الكلاسيكية (Classical phyisics)، أي: علوم الميكانيك، والجاذبية، وحركة الأجسام ممثلة بقوانين نيوتن، وما تم استخراجه منها، بالإضافة إلىٰ علوم الحرارة، والانتقال الحراري، وعلوم الضوء والبصريات ممثلة بنظرية ماكسويل في الموجات الكهرومغناطيسية ومعادلاته التي انبثقت عنها علوم البصريات الحديثة، قامت هذه العلوم كلها فلسفيًا علىٰ نفس الأسس الفلسفية العامة لليونان والتي تشتمل علىٰ القول بالمبادئ التالية: قِدم العالم [الكون] من حيث إنَّه

---

(١) يمنىٰ طريف الخولي، (العلم والاغتراب والحرية: مقال في فلسفة العلم من الحتمية إلىٰ اللاحتمية)، الهيئة العامة للكتاب، مصر، (١٩٨٧م)، ص (٤٣).

لا بداية له في الزمان ولا نهاية، والاستمرارية في بنية الأشياء وتركيبها، والثبات والانتظام والحتمية في تصرف قوانين الطبيعة ووجود الزمان والمكان المطلقين»[1].

بل إنَّ الخطأ الشهير الذي ارتكبه أينشتاين بوضعه لحدٍّ (الثابت الكوني) إنَّما حصل لتتوافق معادلاته والرؤية العلمية السائدة آنذاك، والتي تقرر أنَّ النجوم والمجرات ثابتة لا تتغير، أي إنَّ الكون وفقًا لهذه الرؤية ساكنٌ وثابت وليس له بداية في الزمان ولا المكان، وهو هكذا قائمًا على الدوام، فتخيّل أينشتاين قوة تعاكس الجاذبية، وابتدع لها قانونًا رياضيًا حتى تتوافق نظريته النسبية مع البراديم - التصور الذهني - العلمي الذي كان سائدًا وقتها[2].

ومعنى هذا: أن بعض النظريات والفرضيات العلمية قد تتشكّل - وأحيانًا من الصفر - حتى تتوافق والنموذج المعرفي Paradigm العلموي السائد في زمنٍ ما، **وهذه هي أهمية دراسة فلسفة العلم قبل النظر في مسائل العلم ذاته**، وقد رأينا عدة أمثلة لذلك في الفصل الأول، كنظريات الحالة المستقرة والأكوان المتعددة، ونظريات التوالد التلقائي والتبذر الشامل، وكما سنرى بعد قليل إن شاء الله مع نظرية التطور.

وجدير بالذكر أنه بسبب سيادة مبدأ الحتمية Determinism الكوني في الفيزياء الكلاسيكية وتطبيقه على كافة العلوم الطبيعية والإنسانية، ويُقصد

---

(١) محمد راشد الطائي، (صيرورة الكون: مدارج العلم ومعارج الإيمان)، مرجع سابق، ص (١٣).

(٢) المرجع نفسه، ص (١٨٣).

بالحتمية «عمومية قوانين الطبيعة وثبوتها واطّرادها، فلا تخلف ولا مصادفة ولا جواز ولا إمكان.. فترتب أحداث الكون في اتجاه واحد من مطلق الماضي إلىٰ مطلق المستقبل.. مما يعني أن كل ما يحدث لا بد أن يحدث ويستحيل حدوث سواه»[1].

نقول: إنه بسبب هذه الحتمية اليقينية، اختفت الحرية الإنسانية وراء آلة الطبيعة القاسية التي تسير بشكل حتمي ميكانيكي أعمىٰ، فأضحىٰ الإنسان مجرّد ترس في هذه الماكينة الضخمة لا خيار له ولا قرار، وصارت الحرية «مرادفة للعفاريت؛ حيث لا وجود لها تحت النظام العقلي الموضوعي.. لذلك عمل هنري برجسون علىٰ أن يتحرّر هو نفسه من التصوّر العلمي الآلي قبل أن يعيّن لنا بعد ذلك طبيعة الحرية ومعنىٰ الفعل الحر.. فكان الخلاص من بلوىٰ العلم والعقلانية هو الخطوة السلبية الأولىٰ والأساسية لأي حديث عن الحرية الإيجابية»[2].

هنا نجد أن العلم Science في الحقبة الكلاسيكية قد تجاوز حقول التجارب وأوروقة المعامل بسبب فلسفته وتعريفه وموضوعاته، وصار مؤثّرًا في كافة المجالات الإنسانية ووصل الأمر إلىٰ إعادة تعريف العلم لمفهوم الإنسان ذاته، وأضحت له دلالات أنطولوجية (وجودية) وإبستمولوجية

---

(١) يمنىٰ طريف الخولي، **(فلسفة العلم في القرن العشرين: الأصول، الحصاد، الآفاق المستقبلية)**، مرجع سابق، ص (١٦).

(٢) يمنىٰ طريف الخولي، **(العلم والاعتراب والحرية: مقال في فلسفة العلم من الحتمية إلىٰ اللاحتمية)**، مرجع سابق، ص (١٦).

(معرفية) عميقة، ولعل هذه من خصائص العلم، كما يقول الفيزيائي هنري مارجينو (Henry Margenau): «فطبيعة الفيزياء أنها تحمل رسالة للفلسفة»[1]. ورغم أن الحديث عن هذا الأمر - الحرية الإنسانية - يصعب علينا تصّوره إلىٰ حدٍ ما، لأن النقاشات حوله قد قلّت كثيرًا، إلا أن السبب الرئيس في صعوبة تصورنا لمثل هذا السجال يكمن في أن باراديم العلم الذي نعيش في ظله في يومنا هذا مختلف بشكل كبير جدًا عن البارادايم العلمي السائد في عصر الفيزياء الكلاسيكية، «والعقل المتشكل تحت شرط نموذج معرفي ما Paradigm يعسر عليه تصور ما يتصوره عقل تشكل تحت ظروف نموذج معرفي آخر»[2].

أما مرحلة ما بعد النهضة، أي المرحلة المعاصرة، فإنه كما كان الحال في الفيزياء الكلاسيكية؛ فإنَّ الفلسفة أو المبادئ والأصول التي ينبني عليها العلم التجريبي المعاصر لها إسقاطات اجتماعية وسياسية وفلسفية كذلك، والشاهد الذي نريد أن نفصّل فيه: أن فلسفة العلم الطبيعي المعاصر ابتداءً محل نظر وشك كبيرين، تدفعنا إلىٰ القول بأن النزعة العلموية هي نزعة متناقضة في نفسها أولًا، ومتناقضة مع التصوّر الإسلامي ثانيًا.

فتاريخيًا، نشأ الاتجاه العلموي الغربي مع سيادة التوجه العلماني في أوروبا والسعي نحو مركزة الإنسان في الكون منذ حركة الإصلاح الديني «التي قضت تدريجيًا علىٰ إحساس العقل الغربي بباطنية الحقيقة

---

(1) Henry Margenau, The Nature of Physical Reality: A Philosophy of Modern Physics, McGrew-Hill Book Co., USA, 1950, P. v.

(٢) عبد الله الشهري، (ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان)، مرجع سابق، ص (١٠٦).

وثيوقراطيتها... فقد تزايدت معيارية الذات الإنسانية كمحدِّد وكمشرع وكطريقة مركزية لمعرفة الحقيقة وحسمها... بات العقل الغربي الحديث متحررًا من أي سلطة أعلىٰ، روحية أو إمبراطورية»[1].

ومنذ ذلك الوقت، وبعد مخاض أليم وسيرورة طويلة تخللها اكتشافات جغرافية واختراعات تقنية ونقاشات وكتابات ومحاورات وثورات وحروب وخلافه، تبلور العقل العلماني الغربي بنزعته المادية الصلبة التي تقيم كافة المعارف علىٰ أساس المادة، فالمادة - وفقًا للتصور العلماني الجزئي منه والشامل - تسبق كل شيء بما في ذلك التاريخ والإنسان نفسه، فعلىٰ سبيل المثال: قام جون لوك - أحد أعمدة الليبرالية والمذهب التجريبي - بتعريف العقل بأنَّه صفحة بيضاء تتراكم عليها المعطيات الحسية ولا وجود لأفكار فوق طبيعية أو أفكار فطرية في العقل، أي إنَّ العقل عنده عقل مادي محض لا يتمتع بأي استقلال عن المادة[2].

وثمّة عدة أطراف حاولت التخلّص من المادية الصلبة التي اعتنقها العقل الغربي، يتمثل طرفٌ منها في التيار العقلاني Rationalisml الذي يردّ المعارف إلىٰ الأفكار وكل ما سوىٰ الأفكار فيردّها إلىٰ العقل، وقد مثّل هذا الاتجاه رينيه ديكارت ومن جاء بعده، وقد مُني هذا التيار بالهزيمة أمام التيار المادي التجريبي Empiricism الجارف، وفُعل به كما فعل هو بفلاسفة

---

(١) ريتشارد تارنس، **(آلام العقل الغربي)**، تعريب: فاضل جتكر، دار العبيكان، السعودية، الطبعة الأولىٰ، (٢٠١٠)، ص (٢٨٩).

(٢) عبد الوهاب المسيري، **(الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان)**، مرجع سابق، ص (٨٠).

اليونـان مـن قبلـه[1]، كمـا ظهـر طـرفٌ آخـر أيـضًا سُـمّي بالتيـار الوجـودي Existentialism الذي شعر بالاغتراب في خضم المادية الجارفة التي طغت علىٰ الفكـر الغربـي، فـدعا إلـىٰ الانفكـاك عـن القفـص الحديـدي للعقلانيـة الموضوعية في مقابل التفرّد بخصوصية الإنسان والإحساس بتعالي جوهره عـن الطبيعـة الماديـة ونـادىٰ بعـدم قـدرة العلـوم الطبيعيـة علىٰ تفسير الـوعي والذاتية والحرية الإنسانية، وقد دُفن هذا التيار تحت ركـام التفـوق العلمـوي أيضًا[2]، والمحصّلة أن المذهب العلموي Scientism صار سائدًا وكامنًا لدىٰ أغلب الباحثين الغربيين والمؤسسات العلمية الغربية.

وجدير بالذكر أن العلموية ليست حزبًا سياسيًا مثلًا أو رأيًا معلنًا له خطاب محدّد، بل هي منطق تفكير ومنهجية استدلال كامنة لدىٰ الباحث، يقـول أستاذ العلوم النووية بجامعة MIT إيان هاتشينسون (Ian Hutchinson): «انتـشرت العلموية بشدة في آخر مائتي عـام، ونـادرًا مـا يـتم إعلانهـا بـصراحة، **الناس لا يقومون من النوم ليقولوا: أنا أعتقد أن العلم هو طريق المعرفة الوحيد. الناس لا يفعلون ذلك، لكـن مـا يفعلونـه غالبًـا أنهـم يعتنقـون العلمويـة كادّعـاء غيـر معلن**»[3].

تجلّت العلموية من خلال تفاعلات إنسانية طويلة تتجلىٰ في السجالات

---

(١) يوسـف كـرم، (تـاريخ الفلـسفة الحديثـة)، مؤسـسة هنـداوي، القـاهرة، (٢٠١٢م)، ص (١٥٩).

(2) See: http://plato.stanford.edu/entries/existentialism/

(٣) في مقابلة معه بعنوان: احتكار المعرفة: دحض العلموية:

https://www.youtube.com/watch?v=ZRxxcsNdqkk

الفكرية والمناظرات العلمية بين مختلف التيارات الفلسفية، حتىٰ استطاع الطرف المادي التجريبي أن ينتصر، وساد العقل الغربي منذ القرن التاسع عشر نزعة مادية صريحة تضع المادة في المركز وكل ما سواها في الهامش، بما في ذلك الإله والوحي وكل ما هو فوق الطبيعة بشكل عام، وبالطبع الإنسان نفسه، فالإنسان في النسق العلموي الغربي جزء من الطبيعة لا يتفوق عنها إلَّا في قدرته ككائن حي متطور علىٰ تحصيل التراكم المعلوماتي (المادي) فقط، أمَّا الروح والدين والأخلاق؛ فأمور غير عقلانية وغير (علمية)؛ لأنَّها لا تدرك بالحس ولا يمكن قياسها عبر التجريب، بل إن العلوم الإنسانية بأسرها (علم النفس، علم الاجتماع، علم التاريخ.. إلخ) خرجت وتأسست - في بداية تصنيفها كعلوم أصلًا - من رحم المذهب التجريبي، والذي يعدّ أعمدة المنهجية العلموية، «فالحتمية الفيزيائية هي المثل الأعلىٰ النظري لعلوم النفس والاجتماع والأنثروبولوجي أو لجملة الدراسات الإنسانية»[1]. ومن تجليّات ذلك - مثلًا - أن الفعل الأخلاقي - كما يرىٰ الفيلسوف جيرمي بنتام واصفًا العقل الغربي برمته - هو الفعل الذي يصحبه لذّة للإنسان لا أكثر ولا أقل، وهكذا تصبح الأخلاق واقعة في الصيرورة المادية لا تنفك عنها.

ومن النماذج التي يمكن إيرادها في هذا الموضوع كتمظهر للنزعة العلموية التي طغت علىٰ العقلية الغربي في ذلك الوقت، هو جواب الرياضي

---

(١) يمنىٰ طريف الخولي، (العلم والاغتراب والحرية: مقال في فلسفة العلم من الحتمية إلىٰ اللاحتمية)، مرجع سابق، ص (٢١١).

والفيزيائي الشهير بيير لابلاس علىٰ سؤال نابليون بونبارت له عن سبب عدم الإشارة إلىٰ وجود الله في كتاب لابلاس المعنون (ميكانيكا السماوات)، فقال له لابلاس: «يا سيدي إنَّ (الله) فرضية لـم أجد لها ضرورة في عملي هذا»![1] فمادام الإله - حاشاه - غير خاضع للحسّ والتجريب فلا مكان له في الكتب العلمية، تعالىٰ الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

ولم تكن النزعة العلموية طاغية بهذا الشكل حتىٰ في أوروبا نفسها، ففي عصور النهضة كانت الرؤية الكونية السائدة في أوروبا ترىٰ الكون والأرض والطبيعة كالكائنات الحية العاقلة التي تتفاعل كما تتفاعل الكائنات الواعية، أي إنَّها تتمتع باستقلالية عن المادية الصارمة، وذلك بسبب خلق الإله لها، ويعبّر ليوناردو دافنشي عن هذه النظرة الطبيعية للحياة، فيقول: «يمكننا القول بأنَّ الأرض لها روح مثمرة، وأنَّ لحمها هو اليابسة، وأنَّ عظامها هي الصخر... وأن تنفسها ونبضها هما المد والجزر للبحر»[2]، ولكن تلاشت هذه الرؤية الكونية بظهور الفلسفة المادية الشاملة، بعد ظهور كبلر الذي كان يهدف إلىٰ تفسير (الآلة الكونية)، وجاليليو الذي رأىٰ أنَّ الطبيعة هي «القوانين الرياضية الصلبة التي تحكم كل شيء»، ثم نيوتن الذي وصف الكون بأنَّه (ساعة) تعمل تلقائيًّا دون الحاجة إلىٰ تدخل من قوىٰ خارجية لضبطها، ومن ثَمَّ بدأت هذه الرؤية المادية الصارمة للكون تطغىٰ علىٰ العقل الغربي، خصوصًا مع توالي تفسيراتها الفيزيائية التي انتصرت علىٰ الرؤية

---

(١) محمد راشد الطائي، (صيرورة الكون)، مرجع سابق، ص (١٦).

(2) John Brooke, Science and religion: Sonc historical perspectives, Cambridge university press, 1991, P.120.

(الحية/ العضوية) القديمة للكون، ممَّا أدىٰ إلىٰ إضافة شرعية علمية لأفكار العلمنة المضادة لتسلط الكنائس واستبداد الملوك، وهو ما تُوِّج بانتصار هذه العقيدة المادية بشكل تام في حوالي القرن العشرين، ومن ثَمَّ فالكون إذن «ليس عضوية حية يضفىٰ عليها الهدف الغائي أشكالًا ويحركها، فبالاكتفاء بعقل الإنسان، اتضح أن الكون مؤلف من مواد ذرية بلا حياة، وأفضل فهم لمثل هذه المواد هو عن طريق المبادئ الميكانيكية، ولم يكن ادّعاء الإنسان رؤية أشكال وأغراض كامنة في الطبيعة إلَّا تأكيدًا لعقوق ميتافيزيقي... ومع ذلك؛ فإنَّ العالم بقىٰ ماديًّا راسخًا دون لبس»[1]. وقد بلغ الإيمان بالمنهجية العلموية حدّ أنها «تمّ رفعها فوق أي نقاش أو جدل، فاحتلّت في العلم منزلة التسليم بالوحي المنزل في الدين، فلا نقاش في هذا ولا جدال في ذاك»[2].

وكشأن كافَّة المعارف والقيم منذ ذلك الوقت، تموضع العلم التجريبي داخل هذا النسق المادي العلماني، ومن ثَمَّ فلم يكن العلم التجريبي الغربي يومًا - كما يظنُّ كثير من الناس - معرفة مجرَّدة لا هدف ولا أساس لها، بل إنَّ منطلقات وأهداف العلم التجرييبي المعاصر تأسست وسط صراع علماني ديني، يحاول كل طرف فيهما فرض رؤيته الكونية علىٰ الآخر؛ وعليه فإنَّ فلسفة العلم الطبيعي المعاصرة تقوم علىٰ أساس أنطولوجي (وجودي) يضع المادة في المركز، «كما أنَّ العصمة المنسوبة ذات يوم إلىٰ الكتاب المقدس أو

---

(١) ريتشارد تارناس، (آلام العقل الغربي)، مصدر سابق، ص (٣٣٣).

(٢) يمنىٰ طريف الخولي، (العلم والاغتراب والحرية: مقال في فلسفة العلم من الحتمية إلىٰ اللاحتمية)، مرجع سابق، ص (٤٥).

البابا الأعلىٰ وحده انتقلت الآن إلىٰ عقل الإنسان نفسه»[1]، وتقوم فلسفة العلم المعاصرة أيضًا علىٰ أساس معرفي يرفض كل ما هو متجاوز للطبيعة، ويرد كافة الموجودات إلىٰ المادة فحسب، وعلىٰ منظومة قيمية تقع داخل نطاق إرادة العقل الغربي المتعلمن - المنتصر علىٰ الكنيسة - في المحافظة علىٰ تفوقه علىٰ سائر أنواع الأجناس عن طريق فرض نموذجه السياسي/ القيمي علىٰ شعوب العالم، كما هو الواقع، وكما تذكر أدبياتهم الاستعمارية وما بعد الاستعمارية[2].

«يقول فيلسوف العلم بول فايراباند: العلم أيدولوجيا تتشكل بالكامل في أية لحظة زمنية وفقًا للسياق الثقافي والتاريخي حينئذ. فالعلم، كما يري فيلسوف العلم الشهير توماس كون، ليس هو التراكم الثابت في تحصيل المعرفة كما يُقدم في الكتب المدرسية، إنما هو سلسلة من الفترات السلمية تتخللها ثورات فكرية عنيفة، وخلال هذه الفترات، فإن العلماء يتم إرشادهم بواسطة مجموعة من النظريات والمعايير والمناهج التي يسميها توماس كون بـ(البارادايم)»[3].

---

(١) المصدر نفسه، ص (٣٣٤).

(٢) لتفكيك الخطاب الاستعماري وما بعد الاستعماري، انظر علىٰ سبيل المثال: **(الاستشراق)**، لإدوارد سعيد، و**(ما بعد الاستعمار في المغرب العربي: التاريخ والثقافة والسياسة)**، لمجموعة من المؤلفين من إصدار مركز دراسات الوحدة العربية، و**(الكولونيالية وما بعدها)**، لآنيا لومبا.

(3) William Broad and Nicholas Wade, Betrayers of the truth. P. 130-133.

وعليه: فإنَّ العلم الغربي المعاصر ليس منتجًا محايدًا كما يتوهم البعض، وإنَّما هو منتجٌ غربيٌ خالصٌ يتم توظيفه في إطار نموذج الحداثة العولمي، وما يلزم ذلك من مقتضيات فلسفية ودينية وإسقاطات سياسية واجتماعية.

ولنذكر بعض الأمثلة التي تدلّ علىٰ عدم الحيادية أو الموضوعية في مفهوم العلم المعاصر Science:

المثال الأول: يقوم العلم التجريبي المعاصر علىٰ عدد من المسلَّمات التي لا تقبل النقاش، وبالنظر إلىٰ هذه المُسلَّمات نجد أنَّ بعضها غير خاضع للمنهج العلموي، وإنَّما هي فرضيات لا يمكن إثباتها تجريبيًّا من الأساس، ولكن يُعمل بها دون تمحيص أو نظر حتىٰ يستطيع العلم إضفاء صفة القداسة عليه دون اضطراب!

فمثلًا، مبدأ (التماثلية) (Uniformitarianism) الذي يفترض ثبات قوانين الطبيعة علىٰ اختلاف الزمان والمكان هو مبدأ لا يمكن تجريبه من الأساس، ولكنَّه مبدأ يعمل به كمُسلَّمة في جميع الأبحاث العلمية!

«فمثلًا: استقراء الإنسان للمعدن أنه يتمدد بالحرارة بتجارب محددة، ثم يعمّم علىٰ المعادن هذا التمدد وتُستنتجُ قاعدة: المعادن تتمدد بالحرارة. وكل معدن - ولو لم يخضع للتجربة - داخل في القاعدة أيضا، ولكي يقوم العلم التجريبي لا بُدَّ من عقيدةٍ لا دليلَ عليها أيضا، تسمىٰ (اطّرادُ الحوادثِ) (Uniformitarianism)، وهي الإيمان بأنَ قانونًا مثلَ (المعادن تتمدد بالحرارة..) كان في الماضي هكذا كما هو الآن وكما هو آت.. والإيمان

بالجزء الخارج عن التجربة، أي باقي المعادن واطّراد الحوادث، هو دوجما التجربة التي يقوم عليها العلم، فهو اعتقاد براجماتي لا دليل عليه، تمامًا كما يتهم الملحدُ أهلَ الإيمان بأن لا دليل علىٰ وجود الله، وكانت صياغة ديفيد هيوم لهذه المشكلة مرعبة لكافة التجريبيين، رغم كونه تجريبيًا متطرفًا، مما جعل برتراند راسل يصف المشكلة بأنها من أكثر المشكلات الفلسفية صعوبة وإثارة للجدل»[1].

يقول الأحيائي ستيفين جولد (Stephen Gould) في مقالة له بعنوان **(هل التماثلية ضرورية)**: «بدون افتراض الثبات الزماني والمكاني ليس لدينا أي أساس للتعميم من المعلوم علىٰ المجهول، وليس هناك طريقة للوصول لاستنتاجات عامة من خلال عدد محدود من الملاحظات»[2]، ومعلومٌ أنَّ كل نظرية لا يمكن إثباتها تجريبيًّا؛ فهي (إيمان) يتطلب التسليم وليست (علم) يتطلب الدليل، كما ذكرنا في الفصل الأول.

وقد قام أحد الباحثين وهو روبرت شلدراك (Rupert Sheldrake) - الحاصل علىٰ درجة الدكتوراه في الكيمياء الحيوية من جامعة كامبردج - ببحث أحد الثوابت الطبيعية المثبتة في الأوساط العلمية، ألا وهو قانون ثابت سرعة الضوء، فوجد أنَّ القانون الثابت لسرعة الضوء الذي قد تم تحديده

---

(١) رضا زيدان، **(أسس العلم التجريبي)**، مجلة براهين، العدد الثالث، أغسطس ٢٠١٤م، ص (٨).

(٢) نقلًا عن: حسام الدين حامد، **(الإلحاد: وثوقية التوهم وخواء العدم)**، مركز نماء، بيروت، (٢٠١٥م)، ص (٤٩).

عمليًّا في الأعوام من (١٩٢٨م) إلىٰ (١٩٤٥م) قد انخفض بحوالي عشرين كيلومترًا في الثانية عمَّا قبل هذه الأعوام، ثم ارتفع مرة ثانية منذ عام (١٩٤٨م) إلىٰ ما هو عليه الآن! فتوجّه روبرت إلىٰ رئيس إحدىٰ الهيئات العلمية الرسمية البريطانية المختصة بتحديد الثوابت العلمية، وسأله عن سبب هذا التباين فيما يُفترض أنَّه ثابت علمي؟ فقال له: «لقد اكتشفت أكثر الفترات إحراجًا في تاريخنا العلمي!»، ثم سأله كيف تم تحديد المشكلة التي أدَّت لهذا الاختلاف وكيف تخلصوا منها؟ فرد عليه رئيس الهيئة قائلًا: «لقد قمنا بتثبيت سرعة الضوء علميًّا»، هكذا دون معالجة حقيقية لمشكلة ضخمة كهذه! وقد تكرر ذات الأمر في ثابت قوة الجاذبية[1].

يتساءل روبرت: لماذا تغير ثابت مهم كهذا الثابت في الأوساط العلمية؟ ثم يقول: إنَّ السبب لا يخرج عن فرضيتين: إمَّا أنَّ العلماء الطبيعيين قد أخطأوا في جل تجاربهم المحددة لسرعة الضوء، وإمَّا أنَّ ثابت الضوء ليس ثابتًا أصلًا كما هو متخيل، وإنَّما يتغيَّر بتغير الزمان والمكان، وفي كلا الحالتين فإنَّ أمرًا كهذا يُعدُّ كارثة في الوسط العلمي؛ لأنَّه لا يسقط النتائج المبنية علىٰ سرعة الضوء فحسب، وإنَّما يسقط الوحدات الثابتة لقياس المسافات من الأساس، لأنَّ هذه الوحدات تم تفريعها من سرعة الضوء ابتداءً! كل هذا دفع روبرت إلىٰ تأليف كتاب (وهم العلم) (The science delusion) الذي نقض فيه الثوابت النابعة من الفلسفة المادية التي يقوم عليها

---

(١) يُمكن مشاهدة عرض الكاتب لكتابه علىٰ منصة (TED) علىٰ الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=JKHUaNAxsTg

العلم الطبيعي المعاصر.

وقد ذكر ديفيد بيرلنسكي هذا الأمر في سياق اعتراضه على القائلين بعدم وجود الله، فقال: «قام الفلكي بجامعة كاليفورنيا جول بريماك بتوجيه سؤال مثير للاهتمام إلى الفيزيائي نيل توروك: (ما الذي يجعل الإلكترونات تستمر في اتباع القوانين؟!) فوجئ توروك بالسؤال، لقد أدرك قوته. يبدو أن هناك شيئا يدفع الأشياء الفيزيائية لطاعة قوانين الطبيعة، وما يجعل هذه الملاحظة غريبة هو أن لا الإلزام ولا الطاعة أفكار فيزيائية»[1].

ورغم أن مبدأ التماثلية هو مبدأ غير تجريبي، ولا يمكن اختباره تاريخيًا، إلا أنه يُعتبر أحد أعمدة العلم المعاصر، وما نريد أن نقوله هنا هو أن العلمويين يعارضون إدخال عناصر ميتافيزيقية إلى العلم بدعوى العلموية، رغم أن أحد أهم أصول مذهبهم هو أصل ميتافيزيقي أصلًا! فبالنسبة للعلمويين، فإن فكرة خلق الله للكائنات بطريقة مباشرة وإعجازية هي - بالنسبة للعلمويين - فكرة غير علمية لأنها «تتطلب إعادة تعريف العلم بما يُدخل فيه العامل الميتافيزيقي»[2]، أما مبدأ التماثلية فهو حقيقة مسلّم بها ولا تخضع للنقاش أصلًا، وننبه هاهنا أننا لسنا بصدد مناقشة صحة المبدأ من خطئه، وإنما نوضّح فقط أن المنهج العلموي القائل بالتجريب فحسب هو منهج قاصر ومتحيز ومتناقض من داخله؛ لأنه يؤمن بميتافيزيقيات معينة في صلب أصوله دون ميتافيزيقيات أخرى، وهو ما يوضح مختلف العوامل

(1) David Berlinski, The Devil's Delusion: Atheism and It's Scientific Pretensions, Basic Books, 2009, P. 132.
(2) Jerry Coyne, Seeing and Believing, The New Republic, February 4 2009.

الشخصية والسياسية والسوسيولوجية والسيكلوجية في الإيمان بميتافيزيقيات بذاتها دون غيرها.

المثال الثاني: هو التضليل المتعمد الذي يمارسه العلمويون عندما يستخدمون كلمة (إجماع) في دراساتهم، ممَّا يوحي للقارئ أنَّ هذه النظرية أو تلك هي نظرية نهائية، ولا يوجد خلاف حولها، وهذا خلاف الواقع، فكلمة (إجماع) التي تُستخدم في الأوساط العلمية الغربية تترجم إلىٰ (Consensus)، وهي لا تعني غياب الخلاف، وإنَّما تعني قول الأكثرية، ولكن المضللون يستخدمونها - بعلم وبغير علم - وكأنَّها حجة علىٰ غياب أي خلاف حول القضية، ومن ثَمَّ حسمها بشكل قطعي!

فمثلًا: يذكر المهتمون بقضية الاحتباس الحراري (إجماع) العلماء حول هذه القضية، بينما يُبيِّن الاستقراء العلمي للقضية أنَّ (٩٧٪) من العلماء يؤيد قضية الاحتباس الحراري، و(٣٪) فقط من العلماء يُنكرونها، ممَّا يعني أنَّ لفظ الإجماع ليس في حقيقته إجماعًا، وإنَّما هو أقرب لمصطلح (قول الجمهور) في الفقه الإسلامي، أي أكثرية العلماء، وهكذا يتبيَّن الفرق بين لفظ (Consensus) الذي يعني وجود بعض المخالفين، ولفظ (Unanimity) الذي يقتضي عدم وجود مخالف، ويتبيَّن التضليل الذي يمارسه مُدَّعو العلم حتىٰ يوهموا العوام أنَّه لا يوجد خلافٌ علميٌ معتبرٌ في قضية ما[1].

---

(١) للاستزادة حول التضليل المتعمد لكلمة (الإجماع)، والفرق بينها وبين (الإجماع الشرعي). [انظر: مقال (وأجمعوا)، لحسام الدين حامد].

يقول جورج باريو تحت عنوان **(العلم المبني علىٰ الإجماع ومراجعة الأقران)**: «إنَّني متأكد أنَّ معظمنا قد واجه مفهوم العلم الطبيعي المبني علىٰ الإجماع وعواقبه، في الحقيقة إنَّ مراجعي المقالات العلمية في المجلات والتقديم للمنح البحثية غالبًا ما يستعمل عبارة (هذا إجماع في المجال) كوسيلة لتسويغ الحجر علىٰ الأفكار التي لا توافق علىٰ ما يعتقدونه»[1].

وتنعكس تلك الإرادة غير المحايدة بتفوق بعض الآراء دون غيرها وحصولها علىٰ النشر والتمويل، وعدم الاعتراف بالأبحاث العلمية غير المتوافقة وتوجهات الأوساط العلمية الغربية، مرة أخرىٰ يتضح أنَّ العلم الغربي ليس معرفة مجردة، وإنَّما هو بالفعل جزء من نسق أيديولوجي يحمل رؤية كونية معينة يخضع فيها العلم لسياق مادي قُحّ؛ وما يعني ذلك من منطلقات وأهداف يؤمن بها العلمويون ويعملون علىٰ تحقيقها والتبشير بها، مهما ادّعوا الحياد والموضوعية.

المثال الثالث: النظريات العلمية الكثيرة جدًّا التي تم ابتداعها دون إثبات، لا لشيء إلَّا لتتوافق والعقلية المادية الغربية، ثم ما تلبث هذه النظريات أن تثبت خطأها، حتىٰ يلجأ العلمويون إلىٰ صياغة نظريات أخرىٰ بشكل تلقائي لإثبات وجهه نظرهم المادية، ثم تثبت هذه النظريات زيفها مرة أخرىٰ فيخترعون نظريات أخرىٰ... إلخ، والغريب أنَّ كثيرًا من هذه النظريات تتجاهل المعطيات الموجودة بالفعل وتتجه - كما رأينا في الفصل

---

(1) Barrio Jr, Consensus Science and Peer review. Mol Imaging Biol 2009, 11:293.

الأول - إلىٰ تفسيرات أشد تعقيدًا، بل ربما تصل إلىٰ مستوىٰ (الغيب) بشكل كامل، ورغم ذلك نجد أنها كانت تحظىٰ بـ(إجماع) علمي، حتىٰ يتم وَأْدها نهائيًّا، ثم تُعاد إنتاج نفس الدائرة مرة أخرىٰ بنفس الأخطاء!

يقول ألفن بلانتينجا الفيلسوف الأمريكي: «وبالطبع فنحن جميعًا نعلم عن النظريات العلمية التي حظيت في وقتٍ ما بإجماع ثم نُبذت، مثل نظرية السيَّال الحراري، والنظريات التساقطية في الكهرباء والمغناطيسية، والنظريات المتعلقة بوجود اللَّاهوب، والقوىٰ الحيوية في علم وظائف الأعضاء، ونظريات التولد التلقائي للحياة، والأثير الناقل للضوء... إلخ»[1].

فالنسق المادي العلموي الغربي يرفض الاعتراف بوجود الله، ومن ثَمَّ فإنَّه سيحاول تفسير كل شيء من خلال التجريب فحسب كمصدر أوحد للمعرفة، تقول أماندا جفتر: «العلم لا يتلخص في الاختيار بين تفسيرين بديلين، من الممكن دائمًا أن يكون كلاهما خطأ، ويتضح أن تفسيرًا ثالثًا أو رابعًا أو خامسًا هو الصحيح»[2]، فحتىٰ لو انعدمت كل السبل لتفسير نشأة الكون مثلًا بمنهجية مادية، فلن يجنح العلماء أبدًا للاعتراف بوجود الله كخالق للكون، وإنَّما سيعملون علىٰ طرح فرضيات مادية أخرىٰ، إلىٰ أن يتم تخطئتها، ثم يتم صياغة فرضيات جديدة إلىٰ أن يتم نقضها.. وهكذا. وقد رأينا في الفصل الأول كيف ابتدع العلماء نظريات الحالة المستقرة والأكوان

---

(1) Robert Pennock, Intelligent design creationism and its critics: Philosophical, Theologocial, and Scientific Perspectives, A Bradford Book, The MIT Press, USA, P. 785.

(2) Why it's not as simple as God vs the multiverse, New Scientist, 2685, P. 48, 6 December 2008.

المتعددة والتوالد التلقائي، لا لشيء إلا للتهرّب من فكرة وجود الله، وقد فصّلنا في هذه النقاط بما فيه الكفاية.

بعد استعراض هذه الأمثلة الثلاث حول عدم إطلاقية أو حيادية العلم الغربي وارتكازه بشكل أساس علىٰ الأهواء المتقلّبة دعمًا للفسلفة المادية وهيمنتها؛ فإنّ أحد أبرز التوجهات التي يعمل كثير من الغربيين والملاحدة علىٰ التبشير بها هي نظرية التطور، فما من علموي أو ملحد أو مبشّر بالنظرية إلّا ويصرح بكل ثقة أن قضية التطور ليست نظرية، وإنّما هي حقيقة واقعة لا تختلف عن القول بأنّ الواحد نصف الاثنين! بل وينسبون إلىٰ علماء الطبيعة جلهم أنّهم يؤمنون إيمانًا مطلقًا بفكرة التطور، ثم يقدمون النظرية علىٰ هيئة (إجماع) علمي، بل ويسفهون وينتقصون ممّن تسول له نفسه بالحديث عن فكرة الخلق المباشر ويطلقون عليه أوصاف التخلف والجهل والرجعية وغير ذلك![1].

ولست أدري من أين جاء هؤلاء الجهال بمثل هذه الثقة العمياء؛ إلّا أنّ تكون هوًىٰ متبعًا، ويكفيك أن تعلم أنّ هناك أكثر مَن ألف عالم طبيعي غربي

(١) للاطلاع حول حالة (الإلحاد الجديد)، الذي يتزعمه: ريتشارد دوكنز، وسام هاريس، وكريستيفور هيتشكنز، ودانيال دينيت، الذين لا يكتفون بالإلحاد، وإنّما شكّلوا ما يمكن وصفه بحركة اجتماعية تعمل علىٰ التبشير بالإلحاد بالإضافة إلىٰ مهاجمة الأديان بشكل عام، والإسلام بشكل خاص.

انظر: عبد الله العجيري، (**ميليشيا الإلحاد: مدخل لفهم الإلحاد الجديد**)، مركز تكوين.

تتراوح شهاداتهم العلمية بين الدكتوراه والماجيستير ومتخصصون في مجالات عدة (الكيمياء، الأحياء، الفيزياء، الفلك، الرياضيات، الأنثروبولوجي، الهندسة الكيميائية، الكيمياء الحيوية، الأحياء الجزيئية، الجيولوجيا.. وغير ذلك) جميعهم لا يؤمنون بنظرية التطور، ويشككون في صحتها، بل إنَّ بعضهم لا يعتبرون أنَّ نظرية التطور يمكن النظر إليها كنظرية علمية من الأساس![1].

لكن المشكلة التي تعتري ظهور هؤلاء العلماء إلىٰ العلن ترجع إلىٰ البروباجندا الإعلامية التي تعمل في صالح الملاحدة والدارونيين لا في صالح أنصار المؤمنين بالخلق المباشر، ولننظر إلىٰ مثالين للتدليل علىٰ التحيّز والسيطرة الواضحة لنظرية التطور في مختلف الأوساط الغربية:

فبالاستقراء في الأوساط الأكاديمية الغربية، سنجد أنه ثمة توجه ملحوظ لطرد الأساتذة من الجامعات الذين يصرّحون بإيمانهم بالخلق المباشر ويبدأون في تدريس ما يخالف نظرية التطور للطلاب في الجامعات، ففي اللحظة التي يعلنون فيها مخالفتهم لنظرية التطور، تتخذ المؤسسة الأكاديمية عدة إجراءات قمعية تنتهي بطرد الأساتذة من السلك الأكاديمي بالجامعة تمامًا، ومن هؤلاء المطرودين: ريتشارد سترنبرج الحاصل علىٰ شهادتي دكتوراه واحدة منهما في التطور الجزيئي، والذي طُرد بعد نشره لبحث مؤيد لنظرية الخلق المباشر بسبب إجباره علىٰ الاستقالة من منصبه الأكاديمي،

---

(١) وقَّع هؤلاء العلماء علىٰ وثيقة للتشكيك في صحة نظرية التطور، لمشاهدة القائمة كاملة:
http://www.dissentfromdarwin.org

وكارولين كروكر المحاضرة في علم الأحياء الخلوي، والتي ما إن بدأت في تدريس طلابها ما يناقض نظرية التطور توقف عملها في السلك الأكاديمي بشكل شبه نهائي، وغيرهما[1].

وفي إحدىٰ الحوادث، نشر الأحيائي وفيلسوف العلم ستيفن ماير (Stephen Meyer) مقالة علمية في إحدىٰ المجلات العلمية محكمة الأقران تنتهي إلىٰ القول بالخلق المباشر للكائنات عوضًا عن التطور التدريجي، فأثارت المقالة ضجة علمية هائلة وتم مهاجمته بعنف شديد وتجريده من (علميته) إلىٰ الحد الذي دفع أحد الكتاب إلىٰ وصفه - سخريةً - بالمتهرطق[2]، وبالطبع تم تهديد مهنة محرر المجلة الأحيائي التطوري ريتشارد ستينبيرج (Richard Sternberg) وسرعان ما تمّت إزالة المقال من المجلّة نهائيًا.

فهذان المثالان وغيرهما الكثير والكثير يتضح من خلالها الإرادة الغربية في فرض نظرية التطور فرضًا علىٰ الشعوب، وقد يتعدىٰ الأمر من مجرد التوجيه والاحتواء إلىٰ التزوير والتدليس المتعمد، فعندما نتحدث عن الخداع العلمي المتعمَّد؛ فحدِّث ولا حرج عن تزوير الدلائل والنتائج

---

(١) يُمكن مشاهدة وثائقي (Expelled: No Intelligence Allowed) للاطلاع حول التوجه الأكاديمي الأمريكي لقمع المؤمنين بنظرية التطور، وقد حقق الفيلم أرباحًا بملايين الدولارات وعُرض في أكثر من ألف دار عرض في الولايات المتحدة وحدها ممَّا أدخله قائمة أكثر الأفلام الوثائقية رواجًا في التاريخ:

https://www.youtube.com/watch?v=V5EPymcWp-g

(2) http://www.wsj.com/articles/SB110687499948738917

والإحصائيات حتىٰ تتوافق ونظرية التطور! وإليك بعض الأمثلة المعاصرة علىٰ زيف العلميين وتضليلهم المتعمّد(١):

(١) **فضيحة إنسان بلتداون (Piltdown man)**: حيث ادعىٰ الطبيب وعالم المتحجرات تشالز داوسون عام (١٩١٢م) أنَّه اكتشف جمجمة عمرها خمسمائة ألف سنة تعود لأحد أسلاف الإنسان المعاصر، حيث إنَّ لها فكًّا سُفليًّا يُشبِه القرود، أمَّا باقي الجمجمة فهي تُشبه الإنسان العادي، وظلَّت الجمجمة معروضة في المتحف البريطاني علىٰ مدار (٤٠ عامًا) علىٰ أنَّها الدليل القاطع علىٰ تطور الإنسان! بل كتبت العديد من الرسائل العلمية الداعمة للتطور بناءً علىٰ هذه الجمجمة وحُضرت فيها أكثر من ٥٠٠ رسالة دكتوراه!(٢) واستمر الحال علىٰ ذلك لعشرات السنوات، حتىٰ اكتشف كينيث أوكلي عام ١٩٤٩م أنَّ هذا الفك السفلي يعود لغوريلا دُفنت في الأرض لعدة سنوات فقط، وأنَّها لا تعود للجمجمة المزعومة التي يقدر عمرها بخمسمائة ألف سنة(٣)، وأنَّ عملية تزوير قد تمت لتركيب الفك علىٰ الجمجمة، فتم إعلان هذا التزوير للعامة عام ١٩٥٣م بتقرير مفصل، والغريب في الأمر أنَّ كشط الأسنان بأدوات معدنية لتركيب الفك علىٰ الجمجمة كان واضحًا

---

(١) الأمثلة نقلًا عن: محمد الروسي، **(مختصر تاريخ الحقيقة)**، دار ثري بي، القاهرة، (٢٠١٢م)، ص (٢١ - ٢٤).

(٢) محمد صالح الهبيلي، **(التطور: نظرة تاريخية وعلمية)**، مرجع سابق، ص (٧٣).

(3) http://news.bbc.co.uk/nol/shared/spl/hi/sci_nat/03/piltdown_man/html/

وللاستزادة حول إنسان بلتداون. **انظر:**

William Broad and Nicholas Wade, Betrayers of the truth, P. 83, P. 119.

بالعين المجردة؛ إلَّا أنَّ الكل تجاهل الأمر مندفعًا وراء دعم نظرية التطور. علىٰ أي حالٍ سحبت هذه العينة من المتحف البريطاني علىٰ عجل بعد هذه الفضيحة، وصرحت مجلة الدايلي ميرور أنَّ آلاف الكتب العلمية يجب مراجعتها بعد اكتشاف هذه الفضيحة(١).

(٢) فضيحة (إنسان نبراسكا): ففي عام ١٩٢٢م أعلن هنري أوزبورن مدير المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي أنَّه تم العثور علىٰ ضرس واحد، لكنَّه غريب الشكل يجمع بين صفات الإنسان والقرد، ثم زعموا أنَّ هذا الإنسان هو الحلقة المفقودة التي يبحث التطوريون عنها. وبدأ دعاة التطور في رسم الصور التخيلية لهذا الكائن بناءً علىٰ هذا الضرس، والعجيب أنَّه قد تم رسمه بالكامل هو وعائلته في سلوكهم اليومي لعدة سنوات، كل هذا بناء علىٰ ضرس واحد فقط! وعلىٰ أي حال فقد اكتُشف في النهاية أنَّ الضرس المزعوم ليس ضرسًا لإنسان ولا لقرد، وإنَّما هو ضرس لخنزير بري! ونشرت تفاصيل هذه المهزلة في **مجلة العلوم** (Science)، وبسرعة تم إزالة صور إنسان نبراسكا من النشرات العلمية.

(٣) فضيحة تطور الجنين البشري: قام التطوري الشهير أرنست هيكل - وهو أحيائي ألماني كان يودّ نشر التطور في ألمانيا - بعمليات رتوش وحذف في صور الأجنة لتتطابق ونظرية التلخيص (Recapition theory) التطورية(٢) التي تقول أنَّ مراحل تكون الجنين في بطن أمه هي تلخيص

---

(1) http://news.bbc.co.uk/2/hi/science/nature/3285163.stm

(٢) فتح الله كولن، (**حقيقة الخلق ونظرية التطور**)، دار النيل، مصر، (٢٠٠٦م)، ص (٨).

لتاريخه التطوري، بحيث تمثل كل مرحلة شكلًا لأحد الأسلاف، كادعائهم أنَّ للجنين في مراحله الأولىٰ خياشيم كالأسماك، وهو ليس في الحقيقة سوىٰ المراحل الأولية لتكون قناة الأذن الوسطىٰ والغدة الجاردرقية، أو ادعائهم أنَّ للجنين ذيلًا كالقرود وهو في الحقيقة العمود الفقري الذي يظهر كذيل؛ لأنَّه يتكون قبل ظهور الأقدام ليس إلَّا، ورغم هذا فقد عمد هيكل إلىٰ تزوير رسوم الأجنة لتؤيد فكرة السلف المشترك، وقد تم اكتشاف التزوير عام ١٨٨٠م، ولكن ظل الأمر معلّقًا حتىٰ اعترف هيكل بنفسه، وينقل فرنسيس هيتشنج - وهو أحيائي شهير - قوله: «كان عليَّ بعد الاعتراف بهذا التزوير أن أعد نفسي مدانًا ومنتهيًا، لولا أنَّني أجد العزاء في أن أرىٰ إلىٰ جانبي في قفص الاتهام مئات الجناة من علماء الأحياء المرموقين والباحثين الذين يحظون بأكبر قدر من الثقة»[1]. والعجيب أنه وبعد هذا الاعتراف استمرت هذه الرسومات في أغلب الكتب المدرسية بل والجامعية في كليات الطب، بالإضافة إلىٰ كتب في تخصصات التشريح والأجنة لأكثر من ١٠٠ عام، بل أن منها ما طُبع في عام ٢٠١٣م بذات التزوير الذي ارتكبه هيكل! ولعل هذه دلالة علىٰ دوجمائية المجتمع الغربي في فرض نظريته ولو اعترف صاحب النظرية نفسه ببطلانها[2].

---

(1) Francis Hitching, The Neck of the Giraffe: Where Darwin went wrong, Tichnor and fields, NewYork, 1982, P.204.

(٢) للتعرف علىٰ بعض المراجع التي مازالت تطبع فيها تلك الرسومات، انظر: محمد صالح الهبيلي، (التطور: نظرية تاريخية وعلمية)، مرجع سابق، ص (٥٨-٥٩).

(٤) **فضيحة أوتا بينغا (Ota Benga)**: التي تدمي القلب، وهو أحد أقزام أفريقيا المعاصرين - وهم موجودون ليومنا هذا في أفريقيا - الذي أُسر كحيوان ليتم تقديمه للشعب الأمريكي كانتصار لنظرية التطور باعتباره حلقة وسيطة بين القرد والإنسان، مع العلم بأنَّ أوتا بينغا كان متزوجًا ولديه أطفال، ولكن استجلبه الاستعماريون، ووضعوه في قفص علىٰ أساس أنَّه حلقة انتقالية بين الإنسان والقرد، وعرضوه كحلقة انتقالية بين القرد والإنسان، حتىٰ انتحر في النهاية[1].

هذا هو العلم الغربي الذي يزعم أنَّه علمٌ حياديٌ يجب اتباعه وكأنَّ الباطل لا يأتي من بين يديه ولا من خلفه، وينادي عبَّاده بالانتقال من الإيمان بالله والإيمان بالوحي إلىٰ الإيمان بالعلم وبالكهنوت العلمي الدوجمائي! فالعلم في تصوُّرهم هو الوثن المعصوم الذي ينبغي الانقياد له في كل أحوالنا. فتأمل!

إنَّ لويس باستور كان صادقًا عندما كان يدعو إلىٰ الاهتمام بالعلم الطبيعي كونه الديانة الجديدة التي سترتقي بالبشر إلىٰ أعلىٰ درجات الحكمة! يقول باستور: «يجب علىٰ السلطة أن تهتم بتلك المؤسسات المقدسة التي تسمىٰ المختبرات. كما أطلب أن يتم مضاعفة أعدادها؛ لأنَّها معابد الثروة والمستقبل، فهذه هي حيث الإنسانية تنمو وتصبح أفضل وأقوىٰ»[2]. فبالنسبة

---

(1) https://answersingenesis.org/charles-darwin/racism/ota-benga/
(2) Rene Dubos, Pasteur and modern science, Anchor books, New York, 1960, P. 146.

إلىٰ أولئك الذين يعتبرون العلم الطبيعي مثاليًّا، «فالعلماء بالنسبة إليهم مثال الموضوعية، حيث يتحرر العقل العلمي - عندهم - من القيود الطبيعية للأجسام والمشاعر والالتزامات الاجتماعية... إنَّهم يمتلكون علمًا رياضيًا شبه إلهي بالكون والزمان والمكان، بل حتىٰ بأكوان متعددة خارج كوننا... يُشكِّل العلماء سلطة كهنوتية تفوق سلطة الأديان، وتعمل علىٰ حفظ هيبتها وقوتها من خلال اللعب علىٰ جهل البشر وخوفهم... إنَّ العلماء - بطبيعة الحال - هم بشر يخضعون لقيود الشخصيات، والسياسة، وجماعات الضغط، والموضة، والحاجة إلىٰ التمويل»[1].

وهكذا صار العلم الغربي جزءًا من الحضارة المادية التي تمتلك رؤية كونية تفسر بها العالم وتفرض بها إرادتها علىٰ الشعوب فرضًا، فالعلم الطبيعي حاليًّا صار كالنسق الأيديولوجيْ المغلق حتىٰ تحول بالفعل إلىٰ ديانة لها طقوسها وكهانها ومقدساتها وتملي تعاليمها ونظرياتها علىٰ أتباعها، وترفض بشكل دوجمائي كل ما يخالفها، بل تقصي وتحارب كل ما سواها! وقد صرَّح مارتن هيدجر بذلك بكل وضوح عندما قال: «إنَّ العلم هو الدين الجديد». وكما يقول الفيلسوف الفرنسي ليكومت دي نوي: «إن ثقة الناس بعلماء الطبيعة اليوم هي ثقتهم بالكهنة في العهد القديم»[2].

---

(1) See: Rupert Sheldrake, The science delusion, Chapter 11: The illusions of objectivity.

(٢) ليكومت دي نوي، **(مصير الإنسان)**، ترجمة: خليل الجرّ، دار المنشورات العربية، لبنان، (١٩٦٧م)، ص (٢٧٥).

س: إذن فنظرية التطور جزءٌ من المنهج العلموي، فما هو موقف الإسلام من التطور والداروينية؟!

قبل الحديث عن هذه المسألة ينبغي التفريق هنا بين التطور كنظرية بيولوجية تقول بتنوع المخلوقات نتيجة للصراع علىٰ البقاء بينهم، ويحدث - أي: التطور - كنتيجة لحدوث طفرات في جينات الكائنات الحيّة (Genetic mutations) عبر تجمُّع أو جيل من الأجيال، فتؤدي إلىٰ تغيير بعض الصفات الوراثية لدىٰ الكائنات الحية عبر آلاف وملايين السنوات عن طريق عملية الانتخاب الطبيعي (Natural selection)، وبقاء الأصلح في صراع الحياة، ينبغي أن نفرق بين هذه النظرية وبين الداروينية كأيدولوجيا أو كفلسفة تحتوي علىٰ بُعد إبيستمولوجي وأنطولوجي يُمثّل منطق تفكير شامل، ويحتوي علىٰ عدد من الأوّليات القبلية تُسمىٰ بـ(ما قبل الأيديولوجيا)، أي المرجعية التي تعتبر المنطلق النظري لكافة الأفكار التطورية تصاغ علىٰ أساسها الرؤية الكونية الحاكمة للأيديولوجيا التطورية.

وللإجابة علىٰ علاقة الإسلام بنظرية التطور أو الداروينية، سنقسّم النظرية إلىٰ ثلاث مستويات: مستوىٰ الفلسفة المادية والأيدولوجيا التطورية، ومستوىٰ النظرية البيولوجية بشكل مجرّد، ومستوىٰ التطور بالنسبة للإنسان علىٰ وجه الخصوص، فنقول مستعينين بالله:

(١) التطور كأيديولوجيا مادية.

إنَّ الحديث عن التطور في صيغته الأيديولوجية ينقسم إلىٰ ثلاث مستويات:

المستوىٰ الأول: هو (ما قبل الأيديولوجيا)، أي منطق الفلسفة المادية التي يقوم عليها المذهب التطوري، التي تنزع عن الإنسان أية خاصية غير مادية، وترىٰ بأسبقية المادة علىٰ وجود الإنسان ذاته، ممَّا يُشكِّل الإنسان تشكيلًا ماديًّا صارمًا في منطلقاته ودوافعه وأهدافه في التأثير في حركة التاريخ بشكل مجمل، فلا يسعىٰ الإنسان وفقًا لهذا التصور المعلول إلَّا لتحصيل الرفاهية وتحقيق أكبر قدر ممكن من البقاء شأنه كشأن جميع الكائنات الحية، وبناء علىٰ ذلك يتم اعتناق هذه الفلسفة بشكل دوجمائي مسبق لتتحكم في كافة الأفعال والتوجهات الداعمة للعلمويين، وقد فصَّلنا في هذه المسألة بما فيه الكفاية في هذا الفصل، **ولا شكَّ أنَّ الفلسفة المادية هذه لا يوجد أي سبيل للوصول إلىٰ نقطة مشتركة بينها وبين الإسلام**[1].

وجدير بالذكر أنَّ الماديين «ليسوا علىٰ درجة واحدة في اعتناق المادية، فمنهم الصريح في اعتناق المادية والإيمان بمضامينها الأساسية، ومنهم الهجين الذي يؤمن بها مع مزيج ديني أو غيبي، وعلىٰ ذلك يمكن القول بأنَّ المادية منها ما هو شمولي ومنها ما هو جزئي، وكذلك من اعتنقها وآمن بها أو تأثر ببعض مفاهيمها ومنطلقاتها»[2].

المستوىٰ الثاني: هو (الأيديولوجيا) التطورية ذاتها التي تفترض عددًا من الافتراضات الظنية، ثم تزعم أنَّ هذه الافتراضات (حقائق) يجب الإيمان بها

---

(١) للاستزادة، انظر: عبد الوهاب المسيري، (**الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان**).

(٢) سعيد بن ناصر الغامدي، (**المرجعية: في المفهوم والمآلات**)، مركز صناعة الفكر، بيروت، (٢٠١٥م)، ص (٧٥).

بشكل نهائي صارم لا يقبل النقاش، فالأيديولوجيا - بشكل عام - لها عدة تعريفات يمكن إجمالها «بأنَّها نسق عقدي مغلق يمثل مجموعة من الأفكار ذات التوجه الحركي، وتتجلَّىٰ فيه رؤية كونية ما، ويدَّعي احتكار الحقيقة، ويرفض من خلال هذا الادعاء أن يتحمل الأفكار المعارضة أو المعتقدات الفاسدة، **أي إنَّ الأيديولوجيات أديان علمانية**»(١).

وبعد اعتناق هذا الإيمان الأيديولوجي التطوري يأخذ التطوريون في التنقيب عن الأدلة لصحة إيمانهم، ويهمّشون أو يتجاهلون أو يهاجمون أو حتىٰ يقمعون الأدلة المناقضة لإيمانهم، ولعلَّ هذا هو المنتشر في أغلب الأوساط العلمية والأكاديمية حول التطور، «**فالعلماء، مثلهم ككل المؤمنين، يميلون إلىٰ تفسير ما يرونه في العالم من ناحية ما يمليه عليه إيمانهم**»(٢)، وقد رأينا كيف أنَّ الجهات العلمية المؤيدة للتطور تقمع المعارضين لها، مع أن المفترض أنَّ البحث العلمي السليم يبحث عن الدليل، ثم يستنتج الحقائق بناءً علىٰ الأدلة المتوافرة، لا العكس. فمن يُقدِّم النتيجة علىٰ الدليل يقع في مغالطة تُسمَّىٰ مغالطة الدليل الدائري، بمعنىٰ أنَّ الرؤية التفسيرية التطورية (النتيجة المفترضة) يتم تقديمها علىٰ كافة الموجودات، ثم يتم البحث في المعطيات (الدليل المفترض) لاستنتاج ما يؤيد هذه النتيجة، فتكون النتيجة المراد إثباتها متواجدة في المقدمات ابتداءً.

---

(١) أندرو هيود، (مدخل إلىٰ الأيديولوجيات السياسية)، ترجمة: محمد صفار، المركز القومي للترجمة، مصر، (٢٠١٢م)، ص (١٩).

(2) William Broad & Nicholas Wade, Betrayers of the truth, P. 79.

وذلك عين ما يعبِّر عنه الدكتور ريتشارد ليونتن (Richard Lewontin) أستاذ الأحياء بجامعة هارفارد عندما يقول: «**إنَّ التطور ليس حقيقة، إنَّه فلسفة، يأتي المذهب المادي في المقام الأول كمقدمة بديهة، ومن ثَمَّ يتم تفسير الأدلة في ضوء هذا الالتزام الفلسفي غير القابل للتغيير**»[1].

وغنيٌّ عن القول: إنَّ هذا المستوىٰ لا يمكن قبوله علميًّا، فضلًا عن تضمينه في التصور العقدي الإسلامي.

وأختم هذه الجزئية بهذا الاقتباس النموذجي لذات البروفيسور ريتشارد ليونتن حيث يقول في صراحة شديدة: «إن استعدادنا لقبول المزاعم العلمية المنافرة للبداهة الفطرية هو المفتاح لفهم حقيقة الصراع الدائر بين العلم وما هو فوق طبيعي (غيبي أو ميتافيزيقي)، نحن نصطف مع العلم رغم السخافة الصريحة لبعض نماذجه، ورغم إخفاقه في الوفاء بكثير من وعوده الباذخة بشأن الصحة والحياة، ورغم التسامح الذي يبديه المجتمع العلمي تجاه القصص المقررة هكذا بلا أساس، **كل ذلك لأن لدينا التزامًا مسبقًا، ألا وهو الالتزام المسبق بالمادية**، فليس الأمر راجعًا إلىٰ أن طرائق ومؤسسات العلم تلجئنا بطريقة ما إلىٰ القبول بالتفسير المادي لظواهر العالم، وإنما بالعكس، وهو أننا مضطرون بولائنا المسبق للأسباب المادية لصناعة أداة بحثية وحزمة من المفاهيم التي من شأنها أن تنتج تفسيرات مادية، مهما كانت مصادمة للحدس، ومهما بدت ملغزة لغير المتمرس، وفق ذلك فالمادية مطلقة لا

---

(1) Phillip Johnson, Defeating Darwinism by Opening Minds, InterVarsity Press, Illinois, 1997, P. 81.

ريب فيها، إذ لا يمكن أن نسمح للقدم الإلهية بالولوج من هذا الباب»[1].

المستوىٰ الثالث: من التطور وهو الأخطر وأعني به تطبيق الأيديولوجيا التطورية - بعلم أو بدون علم - لا علىٰ علم الأحياء فحسب، وإنَّما علىٰ العلوم الإنسانية بأسرها، فمنذ أن أسّس أوجست كونت الفلسفة الوضعية المنطقية Logical positivism والتي تحصر وسائل الإدراك في التجريب العلمي وتخضع أية مقولة معرفية للقياس التجريبي ليتبين مدىٰ صحتها أم خطؤها، «فقد اتجه إلىٰ تطبيق منهج البحث في العلوم التجريبية علىٰ دراسة الظواهر الاجتماعية من تاريخ وسياسة واقتصاد وأخلاق»[2].

وبالنسبة للدين؛ فإنَّ أوجست كونت يرىٰ أنَّ العقلية الإنسانية مرَّت عبر التاريخ بثلاثة أطوار: (الفلسفة الدينية)، ويقصد بها تعليل ظواهر الكون بقوة خارجة عنها. ثم (الفلسفة التجريدية)، ويقصد بها تفسير الظواهر بمعانٍ وخصائص كامنة فيها كقوة النمو والحيوية والمرونة... إلخ. ثم (الفلسفة الواقعية)، أي الاكتفاء بتسجيل الحوادث كما هي، والربط بينها بغض النظر عن أسبابها وغاياتها، وهو آخر الأطوار في رأي كونت وأسماها. وعليه: فإنَّ التفكير الديني طبقًا لكونت يمثل الحالة البدائية التي تلهت بها الإنسانية في مرحلة طفولتها، فلما كبرت عن الطوق خلعتها لتستبدل بها ثوبًا وسطًا في دور مراهقتها، حتىٰ إذا بلغت أشدها واكتمل رشدها، أخذت حلتها الأخيرة من

---

(1) http://www.nybooks.com/articles/1997/01/09/billions-and-billions-of-demons/

(٢) كريمة دوز، (الأخلاق بين الأديان السماوية والفلسفة الغربية)، دار الكاتب، مصر، (٢٠١٦م)، ص (٢٦٢).

العلوم التجريبية! وهو عين ما ذهب إليه فولتير، وجان جاك روسو قائلين: إنَّ الدين فكرة اخترعها الدهاة الماكرون من القساوسة والكهان ليسيطروا علىٰ الحمقىٰ والسخفاء[1]، وما زال هذا القول بسذاجة وطفولية الإيمان بالأديان يردده كثيرٌ من الملاحدة والتطوريين علىٰ مستوىٰ العالم[2].

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلىٰ اللحظة النماذجية لتطبيق الأيديولوجيا التطورية علىٰ الوجود الإنساني بأسره؛ ألا وهي النموذجان النازي والماركسي، فلا يخفىٰ علىٰ أحد مدىٰ تمثل النازية والماركسية للداروينية بحق، ولسنا في مقام التفصيل لهذه المسألة، ويكفينا وصف علي عزت بيجوفيتش رحمه الله في عبارة رائعة تزاوج المادية التطورية والاشتراكية قائلًا: «إنَّ الاشتراكية باعتبارها نتيجة عملية واجتماعية للمادية لا تتعامل مع الإنسان، بل علىٰ الأرجح مع تنظيم حياة الحيوان الاجتماعي»[3].

تجلٍّ آخر من تجليات توسيع دائرة التطور لتشمل العلوم الإنسانية، هو الفلسفة (الداروينية الاجتماعية) التي تطبق مبدأ (البقاء للأقوىٰ/ للأصلح) علىٰ جميع الموجودات بما في ذلك الإنسان ذاته، «فقد وُظِّفت الداروينية الاجتماعية في الدفاع عن حق الدولة العلمانية المطلقة وفي تبرير المشروع

---

(١) محمد عبدالله دراز، **(الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان)**، دار ابن الجوزي، القاهرة، (٢٠١٣م)، ص (٧٧ - ٨٢).

(٢) للاطلاع علىٰ النظريات التطورية لنشأة الأديان، انظر: علي النشار، **(نشأة الدين: النظريات التطورية والمؤلهة)**، دار السلام، مصر، (٢٠٠٩م).

(٣) علي عزت بيجوفيتش، **(الإسلام بين الشرق والغرب)**، مرجع سابق، ص (٦٠).

الإمبريالي الغربي علىٰ صعيد العالم بأسره، فالفقراء في المجتمعات الغربية هم الذين أثبتوا أنَّ مقدرتهم علىٰ البقاء ليست مرتفعة؛ ولذا فهم يستحقون الفناء، أو علىٰ الأقل الخضوع للأثرياء ولشعوب أوروبا الأقوىٰ والأصلح»[1]، ولعلَّ الحيوانية الكامنة في الفلسفة الداروينية الاجتماعية تظهر بجلاء في استجلاب الجيوش الاستعمارية - عند رجوعها إلىٰ المستعمرة الأم - بعض الأفراد من الشعوب المستعمَرة، ثم يضعونهم في أقفاص حتىٰ يتنَّسىٰ للشعب الأوروبي الاستمتاع بمشاهدة هذه (الحيوانات) الآدمية الغريبة عن الجنس الأوروبي، كما كان زوار هذه الأقفاص يطعمون هؤلاء المساكين بأيديهم تمامًا كما يُفعل الآن في حدائق الحيوانات! وكانت هذه الأقفاص موضوعة في أماكن تُسمىٰ حدائق حيوانات البشر (Human zoos)[2]، والحديث عن الاستعمار وما بعد الاستعمار حديث ذو شجون ليس هنا محل تفصيله.

وأخيرًا: فإنَّ هناك (حركة) علموية معاصرة تجنح إلىٰ تفسير كافة السلوكيات بل والمشاعر والفنون والنزعات الدينية لدىٰ الإنسان عن طريق العناصر الكيميائية فحسب، فالداروينية الحديثة كونها نظرية وراثية التمركز (Gene - centered approach) فهي تختزل كل مظاهر الحياة وكل شيء في الكائن الحي علىٰ مستوىٰ الموروث فقط، وتنظر إلىٰ التاريخ باعتباره نتيجة التنافس بين هذه المورثات؛ ومن ثَمَّ يصبح الإنسان مجرد ماكينة تحكمه هذه

---

(١) عبد الوهاب المسيري، **(الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان)**، مرجع سابق، ص (٩٩).

(2) https://www.popularresistance.org/deep-racism-the-forgotten-history-of-human-zoos/

الموروثات فحسب، وهي التي تجبره علىٰ تكاثره واستمراره.

ولعلَّ أخطر ما في هذه الحركة أنَّها تترجم السلوكيات أيضًا إلىٰ عوامل جينية لا دخل للإنسان فيها، بما في ذلك الجرائم التي يتم ردُّها إلىٰ صفة وراثية كامنة في جزيء الـ(DNA) لدىٰ المجرم! وقد رأينا مؤخرًا كيف كانت جمعيات حقوق الشواذ جنسيًّا تطالب بحقها في الزواج المدني بدعوىٰ أنَّ الشذوذ إنَّما هو طبيعة جينية متأصلة في جسم الإنسان، ولمَّا أقرّت الولايات المتحدة الأمريكية قانونية زواج الشواذ جنسيًّا ظهر بعض البشر ممَّن يهوون التفاعل الجنسي مع الأطفال، أو مع المحارم، فبدؤوا ينادون بالمساواة مع الشواذ جنسيًّا بدعوىٰ أنَّ الانجذاب الجنسي نحو المحارم والأطفال إنَّما هي سلوكيات طبيعية ناتجة عن جينات طبيعية متأصلة في جسم الإنسان أيضًا![1] هذا المذهب المتصاعد حاليًّا يبيِّن بجلاء مدىٰ خطورة هذا الاتجاه التطوري المادي الذي ينكر أخلاقية الإنسان بالكلية، ويحصره في صيرورة المادة التي يستطيع من خلالها تبرير كل جرائمه وأفعاله من أجل البقاء وتحقيق أكبر قدر ممكن من رفاهيته الشخصية خلال معيشته.

ومن لوازم هذه الحتمية البيولوجية أنها توقع الإنسانية برمتها في أسر الجبرية الوراثية، أي إنَّ الذات الإنسانية وحرية الاختيار يختفيان بشكل كامل أمام الهيمنة الطاغية للسلوكيات الوراثية المزعومة، وما البشر إلَّا آلات تستجيب لعواملها الوراثية ميكانيكيًّا، وهو ما عبَّر عنه باتريك هاجرد عالِم

---

(1) http://www.sodahead.com/united-states/pedophiles-now-seeking-equal-rights-as-homosexuals/question-3829057/

المخ البريطاني قائلًا: «لا يوجد (أنا) يمكنها قول: أنا أريد أن أفعل غير ذلك»[1]؛ فالبشر - وفقًا لهذا المذهب - منتجٌ جبريٌ لعواملهم الوراثية، أي للمادة لا غير.

إنَّ كل هذه المذاهب والأفكار الفائتة نتجت عن توجه يعتمد علىٰ تعميم الأيديولوجيا التطورية علىٰ النشاط الإنساني ككل، كونه جزءًا من الطبيعة/ المادة فحسب، فهذه النزعة التطورية تعتقد أنَّ الإنسان يتحقق وجوده كما يتحقق وجود جميع الكائنات الأخرىٰ دون أي صفة خاصة تميز الإنسان؛ وبالتالي تسري عليه القوانين الطبيعية كما تسري علىٰ جميع الكائنات، ومشكلة هذا التوجه «أنَّ أنصاره جعلوا منه قانونًا يستوعب التاريخ كله في شرط واحد»[2]، ممَّا يُعتبر اختزالًا شديدًا لظاهرة الإنسان المركَّبة، ونموذجًا قاصرًا لفهم ماهية الإنسان ودوره في التاريخ[3].

ويعترف أحد الداروينيين، وهو جيري كوين، بأن هناك «ميل آخذ في التزايد بشكل مزعج من قبل علماء نفس وبيولوجيين وفلاسفة لدَرْوَنة كل جانب من الجوانب السلوكية للإنسان، لتتحول تلك الدراسات إلىٰ لعبة علمية جماعية. إن إعادة تشكيل الطرق التي يحتمل أن الأشياء تطورت من

(1) Chivers, T. Neuroscience, Free will and Determanism: «I'm just a machine», Daily Telegraph, 12 October 2010.

(٢) محمد عبد الله دراز، **(الدين)**، مرجع سابق، ص (٨٢).

(٣) للمزيد حول مدىٰ اختزالية النماذج الغربية لتفسير الإنسان، انظر: عبد الوهاب المسيري، **(دفاعًا عن الإنسان: دراسات نظرية وتطبيقية في النماذج المركبة)**، دار الشروق، مصر، (٢٠٠٦م).

خلالها اعتمادًا على الخيال الواسع ليست علمًا، إنها مجرد حكايات»[1].

وغنيٌّ عن القول إنَّ هذا التوجه لا علاقة له بالرؤية التوحيدية للإسلام لا من قريب ولا من بعيد.

العجيب في الأمر أنَّ الفلسفة المادية التطورية باتت تُدرس في الأوساط الأكاديمية وكأنَّها علم تجريبي محض، تارة بالجزم بأنَّ التطور حقيقة عشوائية وغير موجهة، وتارة بالتأكيد على أنَّ النظرة الداروينية للعالم تعني ليس فقط القبول بعملية التطور وإنَّما أيضًا بأنَّ التغير التطوري غير موجه لهدف أو حالة نهائية، وتارة بأنَّ صانع الساعات الأعمى لا دخل له بعملية التطور والكون بأكمله، وتارة بأنَّ نظرية التطور متبوعة بنظرية ماركس في الاجتماع والتاريخ، ونظرية فرويد في سلوك الإنسان، وغير ذلك ممَّا يشكل المذهب المادي الآلي، ونحو ذلك من جهود الداروينية الحديثة التي تهيمن على الوسط الأكاديمي الغربي[2].

(٢) التطور كعملية بيولوجية مجرَّدة.

بعد تفكيك المذهب التطوري إلى المستويات الثلاث التي لا تمثل مجرد آلية فحسب، وإنَّما منطق تفكير فلسفة مادية شاملة يرفضها الإسلام جملةً

(1) Jerry Coyne, Why Evolution is true, Oxford University Press, USA, 2009, P. 248.

(٢) للاطلاع على بعض الأمثلة التي تُدرس في الأوساط المدرسية والجامعية على أنها حقائق نهائية لا يمكن النقاش حول صحتها، انظر: جوناثان ويلز، (أيقونات التطور)، دار الكاتب، ص (٢٣٤).

وتفصيلًا، يمكننا الآن الحديث عن الفكرة المجرَّدة القائلة بتطور الكائنات الحية من سلف مشترك وموقف الإسلام منها، فنقول مستعينين بالله:

إنَّ الحكم علىٰ الشيء فرعٌ عن تصوره، ولست ممَّن يرون إطلاق القول إن الإسلام يخالف ما يطرحه التطور هكذا دون تروِّي، كما أنِّي لست من أنصار لوي عنق النصوص الشرعية من أجل موافقة التصورات التطورية، فقبل إصدار أية حكم - خصوصًا عندما يكون حكمًا شرعيًّا - يجب علينا معرفة الحال المراد إقامة الحكم عليه معرفة دقيقة، حتىٰ يتسنىٰ لنا إقامة حكم صحيح علىٰ المسألة، فالحكم علىٰ أية قضية لا بُدَّ أن ينبني علىٰ أصلين: معرفة الحال، ومعرفة حكم الله - تعالىٰ - في هذا الحال. وعليه فإنِّي فضلت تفكيك النظرية إلىٰ أجزاء عدة حتىٰ يتسنَّىٰ لنا إطلاق حكم مقبول عقلًا وشرعًا بدلًا من الاختزالات والتعميمات غير المجدية.

أوَّلًا: ذكرنا من قبل أنَّ الله ﷻ قد خلق الخلق وأودع فيه قانون السببية الذي هو أصل كل القوانين، فكما أنَّ الله ﷻ أخبرنا أنَّ الخلق كله طائعٌ له ومسخرٌ بأمره؛ فإنَّه - تعالىٰ - لم يخلق الكون والمجرات والنجوم والمخلوقات والبشر في لحظة مفردة واحدة، بل رأينا - حسب ما يقرره العلم الحديث - أنَّ عمر الكون يبلغ (١٣.٧ مليار سنة) حدث في بدايتها الانفجار العظيم أول ما حدث، ثُمَّ أخذت العناصر الكيميائية تتشكل والنجوم تنفجر إلىٰ أن تكوَّنت كتلة كوكب الأرض منذ (٤.٥ مليار سنة)، ثم أخذت طبقات الأرض في التصلب في حوالي (٧٠٠ مليون سنة)، ثم توالت البيئات

والكائنات والسنوات الطوال حتىٰ كانت الأرض مهيئة لاستقبالنا.

كما نرىٰ في القرآن آيات كثيرة تشير إلىٰ أن خلق الله وتصريفه - تعالىٰ - للكون يمرُّ عبر تراتبيات زمنية، وليس دائمًا عبر الإحداثات المباشرة؛ فمثلًا يخبرنا الله ﷻ أنَّه خلق السماوات والأرض في ستة أيام: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (الأعراف: ٥٤)، والراجح: أنَّ الأيام يُقصد بها فترات وليست أيامنا الأرضية، كما هو تعريف الكلمة في اللغة، كما يخبرنا - تعالىٰ - بمرور الجنين في بطن أمه عبر مراحل خلقية: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ (الزمر: ٦)، وغير ذلك من الآيات التي تخبرنا بمرحلية إنفاذ قدر الله في الكون، والمقصود: أنَّ الآيات تعلِّمنا أنَّه ثمة أسباب يسخرها الله ﷻ لخلق الخلق وتقدير القدر ولا تكون (آلية) الخلق والتقدير - دائمًا - هي الخلق الفوري من العدم.

فالمراد: أن مرحلية الخلق والتقدير أمرٌ ممكن؛ **وبالتالي** يصبح مبدأ التطور - كمبدأ يقول بالتدرج في تكوين المخلوقات - مبدأ مقبول عقلًا وشرعًا بشكل مجرّد وإجمالي.

ثانيًا: لا أعتقد أنَّ الصراع بين التطوريين والمؤمنين بالخلق المباشر أمرٌ من السهل حسمه، فكلا الفريقين يضمان علماء طبيعيين، وليس كما يتوهم البعض أن مناقضي التطور هم من العوام الجهَّال، هذا استعلاء وكبر وغرور لا معنىٰ له، وفي نفس الوقت؛ فإنَّ السجال العلمي شديدٌ بين الفريقين، كلٌّ منهما يدَّعي صحة ما عنده، ولكن حتىٰ لو افترضنا أنَّ الهيئات العلمية

هيمنت عليها النظرية التطورية (وهو الحاصل بالفعل نتيجة للقمع الأكاديمي لكل من يعارضها)، فليس هذا حجة علىٰ صحة التطور بأي شكل من الأشكال، حيث إنَّه لا يوجد اعتبار لِمَا يُسمَّىٰ (الإجماع) هنا - وقد بيَّنَّا أنَّ الإجماع في السياق العلموي الغربي يُقصد به الأكثرية -، لأنَّه لا قدسية للعلماء الطبيعيين لا عقلًا ولا شرعًا.

وما دام هناك صراع بين قضيتين علميتين؛ فلا أعتقد أنَّه من الصحيح أنَّ نزج بالآيات القرآنية في قضية خلافية كهذه، خصوصًا عندما يغيب نصٌّ شرعي قاطع واضح وصريح عنها، فما دام لا يتوفر لدينا نصٌّ صريحٌ حول موضوع تطور الكائنات الحية من سلف مشترك، إلَّا في جزئية معينة سنتعرض لها بعد قليل بإذن الله، فلا داعي لإقحام القرآن في سجال التطور، حتىٰ لا يتم تأويل القرآن بشكل معين، ثم يأتي الفريق الآخر فيعمل علىٰ نقض ودحض آراء الفريق الآخر، وربما مستشهدًا بالقرآن أيضًا، فيصبح كلا الفريقين المتعارضين يدَّعون صحة آراءهم ممَّا يُحوِّل القرآن إلىٰ ألعوبة بيدي كلا الفريقين، فتمحىٰ قدسيته من قلوب الناس، وهذا المنهج جدّ خطير في التعامل مع نصوص الوحي، وما أكثر المصائب التي تسبب فيها من يصدّعون أدمغتنا ليل نهار بقضية (الإعجاز العلمي) في القرآن، حيث يستشهدون بنصوص شرعية ثم يأولونها تأويلات أقل ما تقال أنها تأويلات سخيفة وشاذة، فيأتي أحدهم ليقول أن هذا الكلام علميًا غير صحيح، فتزول استدلالية النظرية بصحة القرآن، فتسقط هيبة القرآن والعلم معًا في قلوب العوام، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثالثًا: لا شكَّ أنَّ التطور يُقدِّم بالفعل في بعض الأحيان تفسيرًا معقولًا لربط الكائنات الحية بعضها ببعض، فالتطور الكبير (Macroevolution)[1] يمتلك قدرة تفسيرية تستطيع بالفعل ربط الظواهر والحفريات والكائنات الحية بعضها ببعض في تسلسل مقبول وممكن عقلًا بشكل مجرد أيضًا، فمثلًا: يزعم التطوريون أنَّ العظام الطرفية عند فرس النهر والحوت والوطواط هي دليل أنَّهم جميعًا منحدرون من سلف مشترك، هذا تفسيرٌ ممكنٌ عقلًا لربط الظواهر ببعضها، ولا يوجد تفسير مادي علمي مناوئ له يساويه في القدرة التفسيرية في إيجاد رابط مشترك للمخلوقات (أقول رابط وليس موجد أو محدث).

كما أنَّ التطور الكبير يفترض عدد من الافتراضات ليثبت صحته، فمثلًا: يقول التطوريون إنَّه إذا كان التطور حقيقة؛ فلا بُدَّ أنَّ الكائنات الحية التي عاشت في الماضي السحيق تختلف عن الكائنات الحية الموجودة حاليًّا، بحيث أننا نجد أبسط الكائنات في أقدم الطبقات الحفرية، والكائنات الأكثر تعقيدًا في الحفريات الأكثر حداثة.

لكن أخطر عيب يعتري فكرة التطور الكبير أنَّه لا يمكن إثباته معمليًا نظرًا لاحتياج ذلك إلىٰ مئات الآلاف من السنوات، حتىٰ يتم ملاحظة

---

(١) التطور الكبير هو التغير الأعلىٰ والأفضل في الجينات الذي يحدث عبر عملية الانتقال من نوع إلىٰ نوع آخر، أمَّا التطور الصغير (Microevolution)؛ فهو التطور الحادث علىٰ مستوىٰ النوع نفسه، كتطوير مقاومة نحو جسم غريب، أو تغيير لون الجلد، أو تغيير في حجم عضو معين من الجسم، أو نحو ذلك.

الطفرات والتغيرات التي تحدث خلال عملية الانتقال من نوع إلىٰ نوع آخر، «فطبيعة التطور البيولوجي أنَّها تسير دائمًا ببطء»[1]؛ **لذا** فكثير من الافتراضات ومحاولات الربط بين أنواع الكائنات المختلفة لا تعدو كونها افتراضات وتخمينات وليست حقائق أو حتىٰ نظريات، خصوصًا أنَّه لا يوجد تعريفٌ علميٌ موحد لكلمة التطور الصغير ولا التطور الكبير ولا حتىٰ النوع (Species)؛ **ولهذا** ظهرت مشكلة الأنواع (Species problem)، بسبب الاختلاف حول مفهوم الانتواع (Speciation) أي افتراق النوع إلىٰ نوعين، وقد بلغت مشكلة التعريفات هذه إلىٰ الحد الذي دفع التطوري إدوارد وايلي (Edward Wiley) إلىٰ القول بأن «عملية الانتواع قد قُتلت بحثًا، والحق أن إشكال (ما هو النوع؟) و(ما هو الانتواع؟) بعيد عن الحل»[2]. **ونظرًا لهذا الارتباك في تعريف المصطلحات** تضاربت أقوال العلماء الطبيعيين حول ماهية الكائنات الحية وشجرة التطور المفترضة، وهذا ديدن التطوريين دائمًا، **«فالغموض يولد مزيدًا من الغموض، ومع تعريف غامض أو حتىٰ بدون تعريفات محددة يستطيع التطوريون أن يزعموا وجود أدلة علىٰ صحة التطور كما يشاؤون دون أي قيود»**[3].

---

(1) Jackson, The Evolution Revolution. Quoting Robert Jastrow. «Evolution: Selection for perfection, Science Digest, 89 (11), P. 86.

(2) Edward Wiley, The Evolutionary Species concept Reconsidered, In: Mark Ereshefsky, The Units of Evolution: Essays on the Nature of Species, MIT Press, USA, 1922, P. 79.

(٣) هشام عزمي، (التطور الموجه بين الدين والعلم)، دار الكاتب، مصر، (٢٠١٦م)، ص (٥٥).

وحتىٰ إذا تجاوزنا مشكلة الحدود والتعريفات، فإنه وبسبب عدم قابلية التطور الكبير للاختبار أو التجريب أو التخطئة؛ فإنَّنا نجد أنفسنا وللمرة الثالثة - بعد نظريات إحداث الكون من العدم ونظريات نشأة الحياة - نعود لحقل (الإيمان) وليس (العلم).

فافتراض تطور ديناصور الـ(Pterosaurs) مثلًا وقدرته علىٰ الطيران يجب أن يخضع للتجربة من أجل التحقق من صحة الفرضية، ولكن كيف يمكننا التأكد من ذلك لنوع منقرض من الأساس؟! كما أنَّ التطور الكبير يحدث في اتجاه واحد فقط، فلا يمكن أن نرجع طائرًا إلىٰ سلفه السابق أو إلىٰ ديناصور لنتأكد من صحة النظرية؛ لذلك يقول التطوري ثيودوسيس دوبزانسكي (Theodosius Dobzhansky): «الأحداث التطورية أحداث وحيدة منفردة غير متكررة وغير معكوسة، فمن المستحيل تحويل فقاري أرضي إلىٰ سمكة كما أنَّه من المستحيل الإتيان بالتحول المعاكس»[1].

وقد علّق الأحيائي آلان لينتون (Alan Linton) - أستاذ علم الجراثيم بجامعة بريستول البريطانية - علىٰ هذه المشكلة التي لن يمكن أبدًا للعلم أن يرصدها قائلًا: «ولكن أين هو الدليل التجريبي؟ لا يوجد ادّعاء في الأدبيات العلمية أن نوعًا من الكائنات الحية قد تطور إلىٰ آخر. البكتريا، وهي أبسط صور الحياة المستقلة، تُعتبر مثالية لهذه الدراسة؛ فهي تنتج أجيالًا كل ٢٠ إلىٰ ٣٠ دقيقة وتمثل مجاميع كل ١٨ ساعة. **ولكن طوال ١٥٠ عامًا من علم**

---

(1) Theodosius Dobzhansky, «On Methods of Evolutionary Biology and Anthropology.» American Scientist 46 (December 1957): 388.

الجراثيم، لا يوجد دليل واحد أن نوعًا من البكتريا قد تغير إلىٰ آخر. . وبما أنه لا يوجد دليل علىٰ تغيرات الأنواع بين أبسط صور الحياة وحيدة الخلية، فإنه ليس من العجيب حينئذ عدم وجود دليل علىٰ التطور من الكائنات الحية بدائية النواة إلىٰ حقيقية النواة، ناهيك عن جميع الكائنات الحية الأعلىٰ المتعددة الخلايا»[1].

لذا فإنَّ التطور الكبير - الذي هو أصل التنوع المزعوم بين الكائنات الحية - لا يمكن وضعه في خانة العلم، وإنَّما في خانة الإيمان، وعليه فلا يُمكن أبدًا الجزم بصحة أي افتراض بخصوص التطور الكبير، فإذا كان التطور الكبير غيبًا لا يمكن تجربته أو إثباته، فكيف يمكننا ادِّعاء صحته؟!

وقد اعترف الكيميائي جيمس تور (James Tour) المتخصص في تكنولوجيا النانو وأستاذ الكيمياء بجامعة رايس بالولايات المتحدة، بفشل التطوريين في فهم التطور الكبير، فقال: «أنا ببساطة لا أفهم كيميائيًا كيف حدث التطور الكبير»، وقال أيضًا في إحدىٰ محاضراته: **«أنا لا أفهم التطور وأعترف لكم بهذا... دعني أخبركم بما يحدث في الغرف المغلقة للعلوم مع العلماء الأعضاء في الأكاديمية الوطنية ومع الحائزين علىٰ جائزة نوبل، ففي كل مرة أسألهم: (هل تعلم كيف حدث التطور؟)، يجيبون: (لا)، أحيانًا لا يجاوبون، ولا يجرأون علىٰ قول (نعم)، فيكتفون بالصمت»**[2].

---

(1) Alan Linton, «Scant Search for the Maker,» The Times Higher Education Supplement (April 20, 2001), Book Section, P. 29.

(2) http://www.uncommondescent.com/intelligent-design/a-world-famous-chemist-tells-the-truth-theres-no-scientist-alive-today-who-understands-macroevolution/

وانظر: https://www.youtube.com/watch?v=JB7t2_Ph-ck

أمّا التطور الصغير (Microevolution) أي التغيّرات التي تحدث داخل النوع الواحد، فيمكن رصده وملاحظته بسهولة من خلال التغيُّرات الحادثة في الجينات نتيجة للتكيُّف (Adaptation)، أو التهجين (Hybridization)، أو الطفرات الجينية العشوائية (Genetic mutations)، أو غير ذلك من الأسباب التي تُغيِّر من البنية الوظيفية داخل النوع الواحد من الكائن الحي «كتفعيل وظائف فسيولوجية معينة عند التعرض لظروف بيئية معينة، أو تطوير مقاومة نحو جسم معين إذا حدث هجوم من أحد الكائنات الأجنبية، أو تغيير لون العين أو بشرة الجلد أو توزيع الشعر أو شكل عضو معين... إلخ»، أمّا الانتقال من نوع إلىٰ نوع آخر: «كالانتقال من السمك إلىٰ الإنسان، أو من الزواحف إلىٰ الطيور... إلخ»، فهذا لا يمكن رصده بحال، وهو مختلف تمام الاختلاف عن التكيُّف والتهجين، وقياس التطور الصغير (الذي يمكن ملاحظته) علىٰ التطور الكبير (الذي لا يمكن ملاحظته) يعتبر أمرًا غير علمي وغير نزيه، «فبغضِّ النظر عما يحدث من تركيبات؛ فإنَّ النوع الإنساني يظل إنسانيًّا، ونوع الكلب يظل كلبًا... **ومن الأخطاء الشائعة في الاستدلال العلمي - للأسف - هو استخدام التكيُّفات الملحوظة في التطور الصغير لافتراض صحة التطور الكبير والانتقال من نوع إلىٰ نوع آخر**»[1].

فمثلًا قام موقع Talkorigins التطوري الشهير بزعم أنه يقدّم عدة أبحاث علمية لاحظت نشوء تغيير علىٰ المستوىٰ الكبير Macro، وهذه

(1) Nicholas Comninellis & Joe White, Darwin's Demise: Why Evolution Can't Take the Heat, P. 11 - 13.

التغييرات لها قيمة حقيقية لدىٰ الكائنات، وبهذا فإن هذه الأبحاث تُعدّ دليلًا دامغًا علىٰ إثبات التطور الكبير Macroevolution معمليًا، وإمكان رصد عملية الانتواع تجريبيًا، ولكن بالتحقيق وبالنظر في الأبحاث المنشورة يتبيّن أنه ليس هناك مثال واحد فقط مذكور في هذه الأبحاث يرصد بالفعل تغيّرا من نوع إلىٰ نوع آخر، وجلّ هذه التغيّرات حدثت داخل النوع الواحد من الكائنات، ولم يكن هناك سوىٰ بحث واحد فقط وثّق عملية وراثية ربّما تقترب من مفهوم الانتواع، إلا أن دراسات لاحقة عكست نتيجة هذا البحث ودحضت نتائجه[1].

لذا فقد كتب مجموعة من الأحيائيين: «قد يكون علم الوراثة كافيًا لشرح التطور الصغير، لكن لا تصل التغيرات التطورية الصغيرة في تواتر الموروثات لحد تطور الزواحف إلىٰ ثدييات أو تحول السمك إلىٰ برمئيات. يؤدي التطور الصغير إلىٰ التكيف مع البيئة بما يعني البقاء للأصلح وليس ظهور الأصلح»[2].

وعلىٰ أية حال؛ فإنَّ التطوريين يدَّعون صحَّة قفزتهم الإيمانية Leap of faith من التطور الصغير إلىٰ التطور الكبير من خلال عدة (أدلة)، أهمها

---

(١) كيسي لسكين، (الانتواع الخادع: خرافة ملاحظة التغير التطوري علىٰ نطاق واسع)، ترجمة: سلام المجذوب، ومحمد القاضي، دار الكاتب، مصر، (٢٠١٦م)، ص (٩).

(2) Scott F. Gilbert, John M. Opitz, & Rudolf A. Raff, Resynthesizing Evolutionary and Developmental Biology, Developmental Biology 173, 1996, P. 357 - 372.

التشابه الشكلي، ويمكن مقاربته عبر علم الأجنة (Embryology) والسجلات الأحفورية (Fossil records)، والتشريح المقارن (Comparative anatomy).. وغير ذلك، والتشابة الجيني عبر مقارنة الأحماض النووية (DNA comparisons)، **ولننظر إلىٰ مدىٰ (علمية) هذه المقاربات:**

(١) السجلات الأحفورية: يقع التطوريون دومًا لإثبات صحة مزاعهم في مغالطة الدليل الدائري، **أي إنَّهم** يفترضون صحة التطور فيضعون الاستنتاج مسبقًا، وهو أنَّ (الكائنات الحية لها سلف مشترك تطوروا عنه)، ثم يبدأون في البحث لتقديم الأدلة الداعمة لذلك الاستنتاج؛ **وبالتالي فإذا** تم اكتشاف - مثلًا - أحفورة معينة، فما علىٰ التطوريين إلَّا أن ينسجوا القصة المناسبة التي تربط تلك الأحفورة مع غيرها من الأحافير، بل ويرسمون شكل ذلك الكائن الحي بكل تفاصيله المتخيلة اعتمادًا علىٰ أحفورة بسيطة للغاية، حتىٰ يتم تقديم تلك الأحفورة علىٰ أنَّها دليل دامغ علىٰ صحة نظرية التطور! **فالاستدلال الدائري فاسدٌ منطقيًا لأن النتيجة المطلوب إثباتها مفترضة في إحدىٰ المقدّمات، وهو علىٰ الشكل التالي:**

أ - التطور حقيقة.

ب - السجلات الأحفورية دليل علىٰ حقيقة التطور.

فالحقيقة أنَّ قصتهم وتخيلهم للشكل التاريخي الذي ظهرت فيه تلك الأحفورة لا يوجد دليلٌ فعليٌّ عليه؛ لأنَّ الأحفورة هذه مجرد معطىٰ بسيط لا يحمل أي دلالة، ويحتمل عشرات التفاسير غير تفسيرهم، ولكن يختار

التطوريون دومًا تقديم تفسيرهم التاريخي على الشاهد، وكأنّه التفسير الوحيد النهائي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه! وفي ذلك يقول الأحيائي إرنست ماير (Ernst Mayr) أحد أشهر التطوريين بجامعة هارفارد: «لا غنىٰ عن معرفة التاريخ لتفسير كل جوانب العالم الحي الذي يتضمن البعد التاريخي، ويقدم علمُ الأحياء التطورية منهجها الخاص للحصول على إجابات وتفسيرات - وخصوصًا في الحالات التي يتعذر فيها إجراء التجارب -، **إنَّها الروايات التاريخية أو السيناريوهات المؤقتة**»[1]. وقد اعترف رونالد ويست (Ronald West) بهذه المغالطة المنطقية التي يقع فيها التطوريون، فيقول: «علىٰ عكس ما يكتبه معظم العلماء، فان سجل الأحافير لا يدعم نظرية داروين؛ لأنَّنا نستخدم تلك النظرية لتفسير السجلات الحفرية، **ولذلك نحن مذنبون بالوقوع في الاستدلال الدائري حين نقول إنَّ السجل الأحفوري يدعم هذه النظرية**»[2].

بالإضافة إلىٰ ذلك فإنه ثمّة نقد خطير يعتري فكرة التطور ومقاربتها عبر السجلات الأحفورية؛ وهو قضية الانفجار الكامبري (Cambrian Explosion)، وهي مجموعة ضخمة من الحفريات تعود عمرها إلىٰ حوالي ٥٥٠ مليون سنة مضت في حقبة جيولوجية تسمىٰ بالحقبة الكامبرية (Cambrian Period) وتمتدّ لحوالي ٦٥ مليون سنة، ومثّلت هذه الحفريات

(1) Ernst Mayr, What Makes Biology Unique? Considerations on the Autonomy of a Scientific Discipline, Cambridge University Press, Cambridge, 2004, P. 24 - 25.

(2) Ronald West, Paleontology and Uniformitarianism, Compass, vol. 45, May, 1968, P. 216.

هزة عنيفة لنظرية التطور؛ إذ إن العصر ما قبل الكامبري تندر فيه شعب الحيوانات متعددة الخلايا بشدة، في حين أن الانفجار الكامبري ظهرت فيه فجأة الكائنات معقدة التركيب دون أي أثر متدرج لظهورها، ثم في مدة لا تقل عن ١٠ ملايين سنة - وهذا عمر قصير جدًا قياسًا بالأزمنة المفترضة للتطور - وبعض العلماء يقدّرونها بـ ٥ ملايين سنة فقط[1]، تفرّعت معظم الشعب الحيوانية الحية اليوم، بالإضافة إلىٰ بعض الشعب المنقرضة، وتدلّ الحفريات علىٰ أكثر من ٤١ شعبة من شعب الحيوانات، لكل شعبة أسلوب بناء أو مخطط جسدي فريد[2]، وهو ما يصيب نظرية التطور في مقتل، إذ إن النظرية تفترض تدرج التطور في الكائنات منذ ظهور الخلية الأولىٰ، منذ حوالي ٤ مليارات سنة، ولو كان هذ الكلام صحيحًا لرأينا تدرجًا في الحفريات كذلك؛ بحيث تبدأ بعدد قليل وبأشكال حياة بدائية، ثم تزداد تعقيدًا وتركيبًا مع مرور الزمن، إلا أن ذلك غير حاصل، بل المشاهد أن حفريات الشعب الحيوانية ما قبل العصر الكامبري تكاد لا تذكر، ثم فجأة ظهرت الكائنات المعقدة والمتطورة بشكل شامل ومتنوع.

ويعلّق أستاذ الأحياء بجامعة سان فرناسيسكو بول شاين (Paul Chien) علىٰ أمل التطوريين في اكتشاف حفريات لحيوانات معقدة تسبق العصر الكامبري قائلًا: «بعض الناس لا يزالون يعتقدون أنه إذا استمرّ البحث بجهد كافٍ فسوف نجد الحفريات الوسيطة في النهاية، لكني أعتقد أن معظم علماء

---

(١) جوناثان ويلز، **(أيقونات التطور: علم أم خرافة؟)**، مرجع سابق، ص (٦٠).

(2) Stephen Mayer, P.A. Nelson, & Paul Chien, The Cambrian Explosion: Biology's Big Bang, 2001, P. 2.

الحفريات الذين كنت علىٰ تواصل معهم لا يضعون أملًا كبيرًا علىٰ ذلك الاحتمال، فهم ببساطة يشعرون أننا بحثنا كثيرًا وبجدّ كافٍ، إنها غير موجودة»[1].

لذلك لما اكتشف عالم الحفريات الأمريكي التطوّري تشارلز والكوت (Charles Walcott) أكثر من ٦٠٠٠٠ حفرية لكائنات حيّة تنتمي للعصر الكامبري خلال عمله عدة سنوات بدءًا من عام ١٩٠٩م، وبدلًا من إعلان تبعات هذا الاكتشاف العظيم الذي يضرب نظرية داروين في مقتل حتىٰ يتم مناقشته في كافة الأوساط العلمية وتقديمه للمختصين والعلماء، قام والكوت وزملاؤه بتقديم شروحات بسيطة جدًا عن اكتشافاتهم وكأنه تمّ إعادة دفن الحفريّات، ولكن هذه المرة في أدراج مكتبه ومعامله بدلًا من فحصها والبحث في دلالتها العلمية، ويعلّق الفيزيائي جيرالد شرودر قائلًا: «لو أراد والكوت لجاء بجيش من الخريجين لدراسة الحفريات، ولكنه فضّل عدم إغراق سفينة التطور»[2]، حتىٰ تم إعادة النظر مرة أخرىٰ في هذه الحفريات في الثمانينات، ليتضح أن هذا الاكتشاف له تبعات تنقض نظرية التطور بشكل أعمق مما وضّحه والكوت خلال فترة عمله.

وقد اعترف كثيرٌ من التطوريين والملاحدة بهذه المعضلة – معضلة العصر الكامبري –، وعلىٰ رأسهم ريتشارد دوكنز الذي قال: «علىٰ سبيل

---

(١) نقلًا عن وثائقي: معضلة دارون: لغز الانفجار الكامبري.

https://www.youtube.com/watch?v=b0Lx63Ew5jE

(2) Joseph Seckbach & Richard Gordon, Divine Action and Natural Selecection: Science, Faith and Evolution, World Sceintific Publishing Co., New Jersey, 2009, P. 317.

المثال، تعتبر طبقات الصخور الكامبرية... أقدم الطبقات التي وجدنا فيها معظم مجموعات اللافقاريات الأساسية.. ولقد عثرنا على العديد منها في شكل متقدم من التطور في أول مرة ظهرت فيها.. ويبدو الأمر وكأنها زُرعت لتوها هناك دون أن تمر بأي تاريخ تطوري.. التطوريون من كل الأطياف يؤمنون أن هذا يمثّل بحق ثغرة كبيرة جدًا في التاريخ الأحفوري»(1).

(٢) التشريح المقارن وعلم الأجنة المقارنة: في الحقيقة فإن هاتين المقاربتين مثلهما كمثل السجلات الأحفورية لا يقدمان دليلًا دامغًا على تطور الكائنات الحية من سلف مشترك، فالتشابهات المورفولوجية الشكلية للكائنات الحية لا تدلّ على شيء بذاتها، وإنما التفسير أو الحكاية التي تُعطى للتشابهات هي التي تضفي إلى التشابه المورفولوجي قيمته.

ومن الطرائف أنَّ الأحيائي تيم بيرا استخدم صورًا لعدة موديلات من سيارات (كورفيت) من أجل دحض انتقادات وُجهت لنظرية التطور الداروني، فقال: «إذا أجرينا مقارنة بين سيارة الكورفيت موديل عام (١٩٥٣م) وبين موديل (١٩٥٤م)، ثم بين موديل عام (١٩٥٥م).. وهكذا، فسنحصل على سلسلة من النشوء والارتقاء شديدة الوضوح»(2)، لكن كلنا يعلم أنَّ التشابه في سيارات الكورفيت لا يعني تطورهم من سلف مشترك عن طريق الانتخاب الطبيعي بالتأكيد، وإنَّما يعني وحدة المصمّم

(1) Richard Dawkins, The Blind Watchmaker: Why The Evidence of Evolution Reveals A Universe Without Design, W.W. Norton & Co., New York, 1996, P. 229.

(2) Tim Berra, Evolution and the Myth of Creationism, Stanford University Press, California, 1990, P. 117-119.

العاقل الذي أنتجهم؛ ولكنها نفس مغالطة الدليل الدائري التي تقدم النتيجة علىٰ المعطيات في تدليس علمي مقصود.

ومن الأمثلة التي استخدم فيها التطوريون مغالطة الدليل الدائري بشكل فجٍّ هو موضوع الأحماض النووية الخردة (Junk DNA)، فبعد اكتشاف شريط الحمض النووي في ١٩٥٣م انكبّ العلماء علىٰ دراسته، وخلال فترة السبعينات كان سائدًا أن الجينات التي تشفِّر البروتينات علىٰ الأحماض النووية لدىٰ البشر هي (٢٪) فقط من كل الـDNA، ممّا يعني أنَّ (٩٨٪) من الـ(DNA) كان غير معلوم الوظيفة حينئذ، وبدلًا من أن يتم الاعتراف بجهلنا العميق بماهية ووظيفة الأحماض النووية، سارع التطوريون منذ سبعينات القرن الماضي بتقديم نتيجتهم المفترضة علىٰ المعطيات الموجودة، فقالوا إنَّ (٩٨٪) من أحماضنا النووية لا فائدة لها، حيث أنَّها مخلفات من عملية تطورنا؛ وبالتالي فهي ليست ذات فائدة، وأطلقوا عليها اسم (الأحماض النووية الخردة)، ومازال هذا الأمر ساريًا عند بعض الداروينيين[1].

ولكن بالتحقيق يظهر أن شريط الـDNA يمكن تقسيمه إلىٰ ثلاثة مناطق: المنطقة الأولىٰ هي منطقة الجينات وتحتوي علىٰ كودات لنسخ البروتينات تسمىٰ بالإكسونات (Exons) وكودات لا تنسخ البروتينات ولكنها تلعب دورًا مهمًا في عملية التعبير الجيني وتسمىٰ بالإنترونات (Introns) وتغطي

---

(١) انظر مثلًا:

Richard Dawkins, A Devil's Chaplain: Reflections on Hope, Lies, Science, and Love, Mariner Books, New York, 2004.
Douglas J. Futuyma, Evolution (Sunderland, MA: Sinauer Associates, 2005).

هذه المنطقة حوالي ٢٧٪ من إجمالي شريط الحمض النووي. أما المنطقة الثانية فهي منطقة متكررة غير مشفرة للبروتينات لها وظائف عدة، منها حفظ النمو الطبيعي للجنين واستجابة الخلية للمخاطر الحرارية والكيميائية وغير ذلك، وتبلغ هذه المنطقة حوالي ٥٠٪ من مجمل شريط الـDNA. أما المنطقة الأخيرة فهي منطقة غير مشفرة للبروتينات تم اكتشاف بعض الوظائف الكيموحيوية التي لا يمكن للخلية أن تعيش إلا بها[1].

وجدير بالذكر أنه بعد تفعيل مشروع (ENCODE)[2] بواسطة المعهد القومي الأمريكي لأبحاث الجينوم البشري، تم إعلان أنَّ حوالي (٨٠٪) من أحماضنا النووية لها فائدة كيموحيوية، بل يمكن أن تصل النسبة إلىٰ (١٠٠٪) من بنية الأحماض النووية بالكامل![3].

(٣) مقارنة الجينات[4]: علىٰ الرغم من أنَّ التطوريين يدَّعون بشكل دوجمائي مطلق أنَّ التشابه في الجينات لدىٰ الإنسان والشمبانزي هو دليلٌ مقدسٌ علىٰ انحدارهما من سلف مشترك؛ إلَّا أنَّ هذه الحقيقة ليست إلَّا حلقة أخرىٰ من حلقات الدوجمائية التطورية التي تؤمن بغيبيات غير موضوعية، والتي لا نعلم من أين جاء التطوريون بهذا الكمِّ الهائل من الثقة في طرحها، فلا يوجد تحديد دقيق لنسبة الجينات المتشابهة أصلًا بين الشمبانزي

---

(1) See: Jonathan Wells, The Myth of Junk DNA, Discovery Institute Press, Seattle, 2011.

(2) Encyclopedia of DNA Elements.

(3) The ENCODE Project, National Human Genome Research Institute, Bethesda, MD (December 28, 2009).

(٤) الفقرة مستفادة من: عمرو عبد العزيز، **(الداروينية المتأسلمة: أزمة منهج)**، الطبعة الثانية، ص (٦٣ - ٧١).

والإنسان، هل هو (١٠٠٪)، كما يقول د. عمرو شريف، أم هو نسبة تتراوح بين (٩٥٪ - ٩٩٪)، كما يقول تود بروس، أم هو (٦٦٪) في كروموسوم (X)، و(٤٣٪) في كروموسوم (Y)، كما يقول جيفري تومكينز، أما هو ماذا بالضبط؟! بل إن بعض الأبحاث تشير إلىٰ أن نسبة الاختلاف في البروتينات بين الشمبانزي والإنسان تصل إلىٰ ٨٠٪!(١).

ثم نقول: وهل أصلًا التشابه في الجينات أو في الأحماض النووية يعتبر حجّة علىٰ السلف المشترك؟! إنَّ الكانجارو يتشابه كثيرًا مع الإنسان عندما نتحدث عن الجينات، بل إنَّ الفئران يبلغ تشابهها الجيني مع الإنسان بقدر يصل إلىٰ (٩٧.٥٪)، هل معنىٰ ذلك أنَّ الكانجارو والفئران ينضمان معنا كالشمبانزي في الجدّ المشترك؟!

تخبطات وأوهام لا مفرَّ من الإقرار بعجز التطوريين عن تقديمها كـ(دليل) علىٰ وجود السلف المشترك يُلخِّصها فيليب بول (Philip Ball)، الحاصل علىٰ الدكتوراه من جامعة بريستول والكاتب العلمي لمدة أكثر من عشرين عامًا في (مجلة الطبيعة) المشهورة علميًا، فيقول: «**برغم مرور ستين عامًا، لا زال النقاش حول تعريف الجينوم نفسه في حالة جدال حاد، فنحن لا نعرف ماذا يفعل أغلب الـ(DNA) الخاص بنا، أو كيفية عمله أصلًا، أو إلىٰ أي مدىٰ يتحكم في الصفات، أو بمعنىٰ آخر: نحن لا نعرف جيدًا كيف يعمل التطور علىٰ المستوىٰ الجزيئي**»(٢).

---

(1) http://www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/15716009

(2) Philip Ball, 25 April 2013, «DNA: Celebrate the unknown», Nature 496.

وللاستزادة حول نقد هذه المقاربات لإثبات التطور، انظر: جوناثان ويلز، (**أيقونات التطور**).

بناء علىٰ كل ما سبق؛ فإنَّ أسس الاستدلال تسقط بالكلية كما رأينا في هذه الاستدلالات الثلاثة، بل إن الدكتور عمرو شريف - وهو أحد المؤمنين بالتطور الموجَّه - يعترف بعدم حجية الأدلة المزعومة لإثبات التطور، فيقول: «ينبغي التأكيد علىٰ أنَّ هذه الأدلة - أي أدلة التطور - ليست قطعية الدلالة حول حدوث التطور، لكنَّها مرجَّحة يؤازر بعضها بعضًا، ويعتبر القول بالتطور أفضل التفسيرات لوجودها»[1].

ولولا خشية الإطالة لأوردنا عشرات الأمثلة الأخرىٰ، ولكن حسبنا ما ذكرناه لنستخرج الشاهد: إن نظرية التطور تدور في فلك الافتراض والتخمين، ولا يمكن النظر إليها باعتبارها نظرية علمية، فضلًا عن العوار الضخم الذي يصيب النظرية في تفسير بعض المشاهدات والنقد الكبير الموجه إليها في كثير من الجوانب، ومن الجوانب النقدية المهمة التي توجه إلىٰ النظرية هو غياب حفريات الحلقات الوسيطة التي تتوسط الانتقال من نوع إلىٰ آخر، فلو كانت نظرية التطور صحيحة لكان هناك ملايين الحفريات الوسيطة التي لم تدم طويلًا في صراع الطبيعة، ولكن ثمّة غياب مريب لهذه الحفريات بما يشكك بشكل كبير في صحة النظرية، يقول داروين نفسه موضحًا هذه الفكرة: «إذا كانت الأنواع قد انحدرت من أنواع أخرىٰ عن طريق التسلسل الدقيق، فلماذا لا نرىٰ في كل مكان أعدادًا لا حصر لها من الأشكال الانتقالية؟ لماذا لا تكون الطبيعة كلها في حالة اختلاط بدلا من أن

---

(١) عمرو شريف، (**خرافة الإلحاد**)، مكتبة الشروق الدولية، مصر، (٢٠١٤م)، ص (١٨١).

تكون الأنواع كما نراها محددة تحديدًا واضحًا؟ ولكن وفقًا لما ورد في هذه النظرية، ينبغي أن يكون هناك عدد لانهائي من الأشكال الانتقالية... لماذا إذن لا نعثر عليها مطمورة بأعداد لا تعدّ ولا تحصىٰ في قشرة الأرض؟ لماذا لا نجد الآن في المنطقة المتوسطة، التي تتسم بظروف حياتية متوسطة، أنواع متوسطة تربط بصفة دقيقة الأشكال البدائية بالأشكال المتقدمة؟... لقد حيّرتني هذه الصعوبة منذ فترة طويلة من الوقت»[1].

وحتىٰ الآن وبعد مرور أكثر من ١٥٠ عامًا علىٰ ظهور النظرية، لم تُكتشف الحلقات الوسيطة ولم تظهر الحفريات الانتقالية، وهو ما يعترف به التطوري الدكتور عمرو شريف، ناقلًا عن عالم الحفريات البريطاني كولن باترسون (Colin Patterson) الذي يقول: «لا توجد حفرية انتقالية Transitional واحدة تصلح كأصل لكائن متطور آخر، وما يتحدث عنه الداروينيون باعتباره حفريات انتقالية مثل الأركيوبتيركس ما هو إلا حفريات وسطىٰ Intermediate بين كائنين، أي أنها تتمتع بصفات وسط بين كائنين (أ) و(ب) دون (أدلة) أنه قد نتج من (أ) وأنه سلف لـ(ب) كما ينبغي أن يكون في الكائنات الانتقالية، بل إن العلم حتىٰ الآن ليس لديه الآليات لتحديد هذه العلاقة»[2]، ويدافع التطوريون عن أنفسهم قائلين أن الوقت سيكشف لنا مزيدًا من الحفريات الانتقالية (لاحظ تطور الفجوات!)، إلا أن الواقع عكس

---

(1) Charles Darwin, On The Origin of Species, London, John Murray, Albemarle Street, 1859, P. 172, 280.

(٢) عمرو شريف، (خرافة الإلحاد)، مرجع سابق، ص (١٩٠).

ذلك ولا يؤيد ذلك «الحدس»، كما يقول الأحيائي جيري بيرجمان (Jerry Bergman): «فالتفسير الأكثر شيوعًا للغياب التام لأدلّة تطور الأسماك الأحفورية هو أن عددًا قليلًا من الحفريات الانتقالية هو ما تم الحفاظ عليه. وهذا الاستنتاج غير صحيح؛ لأن كل أنواع الأسماك الرئيسية المعروفة اليوم قد تمّ توثيقها في السجل الأحفوري، مما يدلّ علىٰ اكتمال السجل الأحفوري المعروف»(1).

وكما قرّرنا، فإنَّه يستحيل علميًّا تجريب التطور لإثباته؛ إذ إنَّ التطور المطلوب رصده يحتاج إلىٰ آلاف وربما ملايين السنوات من أجل ملاحظته، وهو أمرٌ غير ممكن، لذا لن يمكن أبدًا إثبات التطور علميًّا، ويُؤكِّد ذلك الفيزيائي التطوري روبرت ميليكان (Robert Millikan) الحائز علىٰ جائزة نوبل، فيقول: «الشيء المثير للشفقة هو أنَّه يوجد علماء يحاولون إثبات التطور، الذي لا يمكن لأي عالِم كان إثباته أبدًا»(2).

وعليه: فإنَّ الأدلة المزعومة لنظرية التطور ليست في الحقيقة أدلة، وإنَّما مجرد معطيات مجرَّدة يتم حشرها داخل النسق الداروينى لتنتج مجموعة من الخيالات والافتراضات التي تزعم العلمية والحيادية، في حين أنَّ هذه المعطيات ليست أدلة علىٰ أية نتيجة علىٰ الإطلاق! ويعبِّر ألبرت فليشمان (Albert Fleischman) أستاذ التشريح المقارن في جامعة إرلنجن الألمانية

---

(1) Jerry Bergman, The Search for Evidence Concerning the Origin of Fish, CRSQ, vol. 47, 2011, P. 291.
(2) SBS Vital Topics, David B. Loughran, April 1996, Stewarton Bible School, Stewarton, Scotland.

عن ذلك، فيقول: «إنَّ النظرية الداروينية للتطور لا يوجد حقيقة واحدة لتؤكدها في عالم الطبيعة. إنَّها ليست نتيجة الأبحاث العلمية، وإنَّما نتيجة الخيال بشكل خالص»[1].

لذلك يقول جوناثان ويلز: «إذن، التطور الصغير حقيقة، مؤيدة بأدلة عظيمة، لكن يظل التطور الكبير مجرّد افتراض، موضح بأيقونات تحرّف الدليل أو تعتمد على الدليل الدائري. الأيقونات ليست علم، إنها أسطورة»[2].

وجدير بالذكر أنَّ داروين عندما تعرُّض لتفسير تنوع الكائنات وانتقال الصفات الوراثية بين الأجيال لم يكن يعلم في وقته ماهية الجينات ولا شريط الحمض النووي، إذ أنه لم يكن الـDNA قد أُكتشف بعد، ومن ثمّ لم يكن أمامه سوى التفسير المورفولوجي للربط بين الكائنات الحية، فقال أن علم الأجنة هو أفضل دليل على صحة نظريته للتطور[3]، والتطور يجري عبر عملية الانتخاب الطبيعي، أي قدرة الأنواع الأكثر ملائمة للبقاء على الاستمرار في التناسل بينما تفنى الكائنات غير القادرة على التكيّف في الصراع الطبيعي، وقد اعترف داروين نفسه في إحدى رسائله بفشل الانتخاب الطبيعي وحده في تفسير التحولات من نوع إلى آخر، وما زالت الرسالة محفوظة بالمكتبة الوطنية الإنجليزية، ويقول فيها: «أؤمن بالانتخاب الطبيعي، ليس لأنَّني

(1) Wallace Johnson, The Death of Evolution, TAN Books, California, 2000, P. 5.
(2) See: Jonathan Wells, The Myth of Junk DNA, Discovery Institute Press, Seattle, 2011, Chapter 1.
(3) Charles Darwin, «Letter to Asa Gray, September 10, 1860,» in Francis Darwin (editor), The Life and Letters of Charles Darwin (London: John Murray, 1887), Vol. II, P. 338.

أستطيع إثبات أنَّ كل الحالات تغيرت من نوع إلىٰ آخر، ولكن لأنَّها تشرح جيدًا بالنسبة لي العديد من الحقائق في التصنيف، المورفولجي، علم الأجنة، الأعضاء البدائية، والجيلوجيا»[1].

وعندما فشل داروين في تفسير كيفية حدوث التنوعات، وبعد اكتشاف شريط الـDNA وماهية الجينات بالضبط، جاء أنصاره من بعده فقاموا بعملية إنقاذ للنظرية التطورية وسمّوها بالنظرية التركيبية الحديثة للتطور (Modern synthesis theory)، التي قالت أنَّ الآلية التي تظهر بسببها صفات جديدة هي الطفرات الجينية (Genetic mutations)، والتي تعني حدوث تغييرات تلقائية في بعض الجينات المتواجدة في الأحماض النووية بسبب أخطاء في نسخ الأكواد الجينية، فأصبحت الطفرات الجينية - بالنسبة للداروينيين - «هي المورد غير المحدود لكل التباين الموروثي؛ وبالتالي فهي أساس التطور»[2].

ولكن من المعلوم أنَّ الطفرات التي تحدث في شريط الحمض النووي تنتج في أغلبها خللًا يضرّ بالكائنات، فأغلب الطفرات تُولِّد قططًا لا تسمع، وفئرانًا عمياء، وأزهارًا لا تثمر، وفراشات لا تطير، وسلاحف معاقة.. ونحو ذلك، فالطفرات تنتج الأمراض أو التشوهات الخلقية أو العيوب الوراثية، ونسبة الطفرات النافعة إلىٰ الطفرات المضرة لا تكاد تقارن من الأساس؛

---

(١) نقلًا عن د. موريس بوكاي في وثائقي:
La raisonne :https://www.youtube.com/watch?v=W8hfWcxTbw4

(٢) جوناثان ويلز، (**أيقونات التطور: علم أم خرافة**)، دار الكاتب، مصر، (٢٠١٤م)، ص (٢١٨).

قدّرها أحد الباحثين بأكثر من ٨ طفرات ضارة إلىٰ طفرة واحدة فقط محايدة أو مفيدة(١)، لذلك يقول جون روستاند الأحيائي الفرنسي: «إنَّ الطفرات الوراثية هي مصدر الشرّ في علم البيولوجيا»(٢)؛ فالأدلة العلمية لا تثبت أنَّ غالبية الطفرات ليست ضارة فحسب، وإنَّما مميتة في كثير من الأحيان(٣).

وقد عمل عالِمَا الوراثة الألمانيان كريستيان فولهارد (Christiane Volhard) وإريك فيشاوس (Eric Wieschaus) علىٰ البحث عن كل طفرة ممكنة الدخل في النمو الجنيني لذبابة الفاكهة، واكتشفا العشرات من الطفرات التي تؤثر علىٰ هذا النمو عند مراحل مختلفة، وأنتجوا مجموعة من التشوهات، وربحت جهودهم الجبارة جائزة نوبل - بالمشاركة مع لويس -، لكنَّهم لم يصلوا إلىٰ طفرة مورفولوجية واحدة يمكنها أن تفيد الذبابة في البرية(٤).

وحتىٰ إذا حدثت طفرات مفيدة للكائن الحي؛ فإنَّها مفيدة في التطور الصغير وليس التطور الكبير، ولا تعتبر دليلًا بأي شكل من الأشكال لتطور الأنواع، كما يؤكد لي سبنتر: «لم تُلاحظ قطُّ الطفرات المطلوبة للتطور الكبير، ذلك أنَّ الطفرات العشوائية التي تمت دراستها علىٰ المستوىٰ الجزيئي - والتي يمكن أن تمثل الطفرات المطلوبة من قبل النظرية الداروينية

---

(1) http://tbiomed.biomedcentral.com/articles/10.1186/1742-4682-4-47
(2) Jean Rostand: Le destin biologique de l'Homme, Tiers - Monde, 1963, Volume 4, Issue 13, P. 6 - 23.
(3) Nicholas Comninellis & Joe White, Darwin's Demise: Why Evolution Can't Take the Heat, P. 37.
(٤) جوناثان ويلز، (**أيقونات التطور**)، دار الكاتب، ص (٢١٩).

الجديدة - لـم تضف أي معلومات. والسؤال الذي أتناوله هو: هـل الطفـرات التي تمت ملاحظتها من النوع الذي تحتاجه نظرية التطـور لـدعمها؟ ويتـضح في النهاية أن الإجابة هي: كلا»[1].

لذلك فإن كيث ورد (Keith Ward) يرىٰ أن الاعتقاد بأن التطور حـدث من خلال الطفرات والانتخاب الطبيعي وحدهما هو «قفزة إيمانيـة Leap of faith»[2]؛ أي اعتقاد لا يدعمه أي دليل تجريبي أو برهان عقلي.

هكذا إذن وبالتحقيق تسقط أغلب أسس الاستدلال بصحة نظرية التطور علميًّا، وقد يسأل أحدهم: إذا كان منطق الاستدلال بالطفرات والأحفوريـات أو التشريحات أو الجينات معلول بهذه الطريقة، فلماذا يُصـرُّ التطوريون علىٰ الترويج لطرائق الاستدلال هذه، بل وادّعاء الوثوقيـة المطلقـة فيهـا؟! فنقـول: «لأنَّ الأمر ليس بهذه السهولة، إنكار التطور هو إثبات للخلق المباشـر، وهـذا مستحيل!»[3]، فالتطور هو: «النظرية العلمية الوحيدة التي يمكن أن تؤدي إلـىٰ الإلحاد؛ لكونها تدعي القيام بتفسير الكون والحياة دون الحاجة إلىٰ خالق»[4]، والبديل الوحيد لإنكار التطور هو الاعتراف بالخلق المباشر، أي بوجـود الله، ممَّا يرفضه الملاحدة رفضًا دوجمائيًّا، ويعترف عالـم الحيوان التطوري ديفيد

(1) Dr. Lee Spetner - «Lee Spetner/Edward Max Dialogue: Continuing an exchange with Dr. Edward E. Max,» 2001 - www.trueorigin.org/spetner2.asp.

(2) Keith Ward, The Big Questions in science and religion, Templeton Foundation Press, West Conshohocken, 2008, P.68.

(٣) عمرو عبد العزيز، (الداروينية المتأسلمة)، مرجع سابق.

(٤) فتح الله كولن، (حقيقة الخلق ونظرية التطور)، مرجع سابق، ص (١١).

واطسون بذلك، فيقول: «إنَّ نظرية التطور مقبولة دوليًا، لا لأنَّها يمكن إثبات صحتها بأدلة منطقية متماسكة، ولكن لأنَّ البديل الوحيد لها - أي الخلق المباشر - هو أمرٌ لا يصدق بوضوح»[1].

(٣) موقف الإسلام من خلق سيدنا آدم ﵇.

بعد عرضنا لمفهومي الداروينية والتطور تأتي أهم نقطة في رأيي حول التطور وهي «المشكلة الشرعية الكبرىٰ... وهي مدار المعركة كلها بالفعل»[2]، وأقصد بها موقف الإسلام من خلق الإنسان تحديدًا.

فما أؤمن به يقينًا: أنَّ الإسلام يُقدِّم لنا بنصِّي القرآن والسُّنَّة مفهومًا جليًّا لا يقبل أي نوع من أنواع الشكِّ أو النظر أنَّ سيدنا آدم ﵇ قد خلقه الله - تعالىٰ - بطريقة إعجازية مباشرة، وليس عن طريق تطور من مخلوق سابق، أو ولادة من أب وأم سابقين؛ ومن ثَمَّ فلا أعتقد بأي شكل من الأشكال أنَّ هناك أية مساحة مقبولة من الخلاف السائغ حول هذه المسألة، وكل من يُقرِّر أنَّ آدم قد وُلد من أبٍ وأمٍ أو أنَّه ﵇ قد انحدر من سلف مشترك مع كائنٍ ما كان، فقد أتىٰ ببدعة مغلظة تخالف نصوص القرآن والسنة بشكل صريح والعياذ بالله.

وأحد أوضح الأدلة القرآنية علىٰ ذلك هو قول الله - تعالىٰ -: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩)،

---

(1) D.M.S. Watson, «Adaptation,» Nature, Vol. 123 [sic Vol. 124] (1929), p. 233.

(٢) عمرو عبد العزيز، (الداروينية المتأسلمة)، مرجع سابق، ص (٢٢).

فكما أنَّ الله ﷻ خلق سيدنا عيسىٰ بشكل إعجازي بدون أب في رحم السيدة مريم بطريقة مباشرة فورية غير تطورية؛ فإنَّ وجه الشبه في الآية يفيد بأنَّ سيدنا آدم كذلك خلقه الله ﷻ بطريقة إعجازية دون أب ولا أم ولا تطور ولا ولادة ولا طفولة، فوُجد آدم عليه السلام كما وُجد عيسىٰ عليه السلام، يقول ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في قدرة الله - تعالىٰ - حيث خلقه من غير أب: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾؛ فإنَّ الله - تعالىٰ - خلقه من غير أب ولا أم، بل ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، والذي خلق آدم قادر علىٰ خلق عيسىٰ بطريق الأولىٰ والأحرىٰ»[1].

وفي الصحيحين أنَّ النبي ﷺ أخبرنا أنَّ جميع الخلق سيقولون لسيدنا آدم يوم القيامة: «**يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ**»[2]، فآدم هو أول البشر ولا بشر قبله، ومن الطريف أن بعض المؤمنين بالتطور الموجه يحاولون التفرقة لغويًّا واصطلاحًا بين (البشر) و(الإنسان)، ولعلَّه من البدهيات أنَّ مثل هذا الخلاف غير سائغ علىٰ الإطلاق، فلا أظنُّ أنَّ هناك داعٍ للرد علىٰ هذ السفسطة.

وروي في الصحيحين أيضًا قول النبي ﷺ: «**خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَىٰ أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ**

---

(١) ابن كثير، (تفسير القرآن العظيم)، (٢/ ٤٩).

(٢) متفقٌ عليه.

الْمَلَائِكَةِ... الحديث»[1]، والشاهد هنا في الحديث: أنَّ الله - تعالىٰ - خلق سيدنا آدم خلقًا مباشرًا، فلم يمرَّ بأطوار الولادة والرضاعة والطفولة والشباب... إلخ، وإنَّما كان خلقه مباشرًا، فكان طوله ستون ذراعًا مباشرة، ولم يكن ثمة تطور، ولا انحدار من أب ولا أم ولا غيره، ممَّا ينكر بجلاء تطور الإنسان من أي سلف مشترك، يقول الإمام النووي رحمه الله في شرح الحديث: «والمرادُ: أنَّ الله خلق آدم في أول نشأته علىٰ صورته التي كان عليها في الأرض، وتُوفي عليها، وهي طوله ستون ذراعًا، ولم ينتقل أطوارًا كذريته، وكانت صورته في الجنة هي صورته في الأرض لم تتغير»[2].

فهذه ثلاث أدلة قطعية الثبوت وقطعية الدلالة في أن أول البشر سيدنا آدم عليه السلام لم يمر عبر أطوار مرحلية في خلقه، بل كان خلقه مستقلًا ومباشرًا بقدرة الله - تعالىٰ -، والأدلة في ذلك كثيرة، ولكن حسبنا ما ذكرناه.

وبعدُ؛ فإنَّ خلاصة الأمر أنَّ التطوريين لم يستطيعوا تقديم تفسير عقلاني واحد لنشوء الخلق، وكذلك لم يُقدِّموا تفسيرًا واحدًا مقبولًا لظهور الحياة، بل واعترف كثيرٌ منهم بأنَّه من غير الممكن الوصول علميًّا لنظرية تُفسِّر هاتين النقطتين، ومع ذلك تمسَّك التطوريون بالفلسفة المادية وأسبقية المادة علىٰ كل شيء بما في ذلك الإنسان والحياة، ثم قَدَّم التطوريون - هكذا - افتراضًا لا

---

(١) متفقٌ عليه.

(٢) النووي، (المنهاج)، (١٧/ ١٧٨).

يرتقي لدرجة النظرية العلمية في كثير من الأحيان، وزوَّروا وكذبوا ودلَّسوا وقمعوا من أجل إثبات افتراضهم، وبعد كل ذلك يأتي أحدهم ليقول: إنَّ العلم هو المقدس الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه! والمصيبة أنَّك تجد من المسلمين من يُردِّد هذه المزاعم دون أدنىٰ دراية منه لا بالدين الإسلامي ولا بنظرية التطور، والأنكىٰ مَن يحاول أن يلوي عنق النصوص الشرعية من أجل الانصياع لسلطة الثقافة الغالبة[1]، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونختم برأي أرجحه في مسألة التطور وموقف الإسلام منها، فقد رأينا بالتحقيق أنَّ نظرية التطور «رغم قدرتها التفسيرية، إلا أنها من العمق لدرجة لا يمكن إثباتها أو دحضها بطريقة مباشرة»[2]، وقد رأينا أن كثيرًا من الأدلة المزعومة لإثبات صحة النظرية تقع في حقل الغيب الذي يحتاج إلىٰ إيمان، وليس العلم الذي يمكن إثباته أو تجريبه،ونظرًا لعدم وجود دليل كافٍ لا في التصور الإسلامي ولا في التصور العلموي الغربي علىٰ مسألة التطور في الكائنات الحية (باستثناء الإنسان الذي قطع الإسلام بخلقه بطريقة إعجازية كما وضحنا)؛ أضف إلىٰ ذلك أن الخلاف (العلمي - العلمي) بين المؤيدين للنظرية والمناهضين لها خلاف شديد جدًا وتتجدد مسائله يومًا وراء يوم.

هذان العاملان (الأدلة العلمية - غياب الدليل التجريبي المباشر) ربما يتساويان لدىٰ الفريقين في الظاهر، ولكن النقد الموجه إلىٰ نظرية التطور ومحاولة معتنقيها المستميتة لملء فجواتها وقص ولزق جزئياتها يدفعنا

---

(١) وهو عنوان كتاب لإبراهيم السكران.

(2) William Broad & Nicholas Wade, Betrayers of the truth, P. 17.

للتشكيك بشكل كبير جدًا في صحة النظرية بالكلية، وبغض النظر عن كل ذلك فإنَّه ثمة عامل آخر مهم، فالتسليم بصحة تفسير الغيب في الرؤية التطورية يستلزم قبلها التسليم بصحة المنهجية العلموية الغربية ككل، فكما تقول يوجيني سكوت: «إنَّ مشكلة الحقائق الغيبية أنَّ المرء لا بُدَّ أن يتقبل الرؤية الكونية لدىٰ المتكلم حتىٰ يتقبل الخبر الغيبي»[1]، وبما أنَّنا نرفض الرؤية الكونية الغربية ابتداءً (كما وضحنا آنفًا) وما يتفرّع عنها من أيدولوجيات وفلسفات؛ فلا يوجد مبرّر - بالنسبة للمسلم - لقبول الخبر الغيبي الدارويني إذا تساوت الكفتان.

وبناء علىٰ كل ما سبق، فإني أجد أنَّه من الأولىٰ للمسلم أن يؤمن بالرأي التقليدي بخلق الله - تعالىٰ - لجميع الكائنات الحيّة علىٰ حدة، بشكل فوري ومباشر وبطريقة إعجازية، إما ذلك وإما أن يبحث المسلم في النظرية وينظر: فيتوقف في مسألة خلق جميع الكائنات الحية بشكل مباشر ولا يحكم بها بحكم قطعيّ حتىٰ يجتهد في تحقيق المسألة ويقطع فيها علميًا، إذ إنه من العسير تبسيط المسألة لكونها تشمل عدة مجالات علمية في ذات الوقت، فيسع المسلم أن يتوقف في المسألة دون أن يتبنىٰ رأيًا معينًا فيها، ولكن بشرط الإيمان بالخلق المباشر والمعجز لأول البشر آدم ﵇، وللخلية الأولىٰ للحياة، ثم يسعه النظر قدر استطاعته.

والحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ.

***

---

(1) Eugenie C. Scott, Evolution VS Creationism: An introduction, P. 4.

خاتمةٌ...

وبعدُ؛ فهذه بعض القضايا التي ينبغي للمسلم المعاصر أن يعيها جيدًا، وسط الأمواج المتلاطمة من بحار الشكوك والتساؤلات التي ما عاد يُجدي معها الصمت أو التسكين بإجابات ساذجة، نظرًا لتداولها وطرحها بشكل مُكثَّف في الأوساط الاجتماعية والشبابية منها خصوصًا، ممَّا يدفعنا إلىٰ اعتبار هذه القضايا ضمن المسائل التي لا يسع المسلم جهلها، فما أكثر تلك العواصف المتعاقبة والهجمات المتوالية علىٰ أغلىٰ ما يمتلك المرء في هذه الدنيا، **أعني**: عقيدته.

إنَّ القلق الوجودي الذي يُميِّزُ الجنس الإنساني عن غيره من الأجناس يدفع بالإنسان إلىٰ التساؤل والتفكر، وكلما ازداد انشغال الإنسان بوجوده ازدادت إنسانيته، وفي اللحظة التي تنسد أمامها السبل، ويقف فيها الإنسان حائرًا، تتنزل المعية الإلهية، وتتجلَّىٰ قيُّوميَّة الله - تعالىٰ - في إرسال الرسل، وإنزال الوحي، حتىٰ يهتدي الإنسان إلىٰ الصراط المستقيم، ويحقق قيمة وجوده الأخلاقية.

وكان ختام الله لرسالاته للبشر، ببعثته للنبي ﷺ وإنزاله - تعالىٰ - للقرآن، بعدما تهيأت البشرية لاستقبال هذا الإرشاد الإلهي العظيم، فوعد الله

- تعالىٰ - بحفظه من أيِّ عامل إنساني علىٰ الإطلاق؛ ليبقىٰ القرآن منذ نزوله من فوق سبع سماوات إلىٰ قيام الساعة بطبيعته متجاوزًا للمادة، ويصبح نصًّا حاكمًا مُقدَّسًا إلهيًّا ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ (الجن: ٢).

وقد رأينا كيف يتَّسِقُ المسلم مع إسلامه ومع رؤيته الكونية المستقيمة للوجود والوحي والإله، دون أن يقع المسلم في فخِّ التعارض بين المنقول والمعقول، أي الوحي والطبيعي، فالمصدر واحد والمدبر واحد لكلاهما، وبذا يستحيل التناقض، كما يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «الأدلة العقلية الصريحة توافق ما جاءت به الرسل، وصريح المعقول لا يناقض صحيح المنقول، وإنَّما يقع التناقض بين ما يدخل في السمع وليس منه، وما يدخل في العقل وليس منه»[1].

وينعكس هذا الاتساق العقلي في العقيدة التوحيدية الخالصة التي يؤمن بها المسلمون، وفي المفهوم الإسلامي لمساحات عمل العقل الإنساني، فالمسلم يعرف جيدًا حدود العقل فلا يتجاوزها، ويفهم كذلك معنىٰ الغيب فيؤمن به يقينًا بأدلته العقلية والنقلية، ولا يطمع المسلم في المحال، أعني: قياس ما هو غيبي علىٰ ما هو مشهود، فذاك ضربٌ من التوهُّم الذي لا طائل من ورائه إلَّا وقوع صاحبه في الضلال والعياذ بالله.

لكن عبَّاد العلم من دون الله يغترون بدينهم العلمي الدوجمائي، فيتهمون الإسلام بما ليس فيه، ويصدون عن القرآن وهم له كارهون، ويغرّهم

---

(١) ابن تيمية، (درء التعارض بين النقل والعقل)، (١/ ٢٣١، ٢٣٢).

بـالله الغـرور، ويـصنعون لأنفـسهم ديـانتهم الخاصـة، ومعابـدهم الخاصـة، وعقائـدهم الخاصـة، بـل وغيبيـاتهم الخاصـة! فقـد رأينـا طـول أملهـم بـأنَّهم سيجدون نظرية (كل شيء)، وسيكتـشفون كيـف نـشأت الحيـاة، وسيفـسرون كيـف نـشأت المفـردة مـن العـدم، وسيتوصـلون إلىٰ الحلقـات المفقـودة في سلسلة التطور، ويظنون أنَّ المسألة كلها مسألة وقت!

والحقيقة: أنَّ هذا الإيمان الغيبي يـدعو للعجـب بالفعـل، لـيس لوثوقيتـه المفرطة الغارقة في ظلمات التوهم فحسب، وإنَّما أيضًا لإيمانهم اليقيني بهـذا الغيب مع جهلهم التام بحقيقة الكون الذي نعيش فيه مـن الأسـاس! فكـل مـا نعرفه عن الكون من أجرام وقوانين ومادة وطاقة لا يـشكل سـوىٰ (٤٪) فقـط من الكون، أمَّا بقية الـ (٩٦٪) فغير معلومة لنا بالكلية![1] فليـت شـعري كيـف يأتون بكل هذا الغرور والكبر الذي يدفعهم إلىٰ رفض الإله والـوحي والـدين رغم أنَّهم لـم يدروا إلَّا حفنة يسيرة لا تكاد تُذكر من الكون الذي نعيش فيه؟!

إنَّ المسلمين في أمسِّ الحاجة إلىٰ إعادة اعتبار حقيقة الإشـكاليات التـي يواجهونها، بدلًا من الدوران في فلك الأسـئلة الخاطئـة والإجابـات المختزلـة التي ما عادت تسمن ولا تغني من جوع.

والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

* * *

---

(1) National geographic, Collectors edition, Space: The once & future frontier, January 2009.

قائمة المراجع...

- **أولًا: القرآن الكريم.**
- **ثانيًا: مراجع باللغة العربية.**

(١) إبراهيم السكران، **(مآلات الخطاب المدني)**، مركز الفكر المعاصر، السعودية، (١٤٣٥هـ).

(٢) ابن القيم، **(إعلام الموقعين عن رب العالمين)**، دار ابن الجوزي، السعودية، (١٤٣٢هـ).

(٣) ابن القيم، **(إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)**، تحقيق: محمد عزيز شمس، جدة، دار علم الفوائد، (٢٠١١م).

(٤) ابن القيم، **(الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة)**، تحقيق: علي بن محمد الدخيل، دار العاصمة، الرياض، (١٤٠٨هـ).

(٥) ابن القيم، **(شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل)**، دار التراث، القاهرة.

(٦) ابن القيم، **(مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين)**، دار الكتاب العربي، بيروت، (١٩٩٦م).

(٧) ابن النديم، **(الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم)**، تحقيق: رضا تجدد.

(٨) تيمية، **(التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع)**، تحقيق: محمد بن عودة السعوي، مكتبة العبيكان، الرياض، (٢٠٠٠م).

(٩) تيمية، **(درء التعارض بين النقل والعقل)**، جامعة الإمام محمد بن سعود، (١٩٩١م).

(١٠) تيمية، **(مجموع الفتاوىٰ)**، مجمع الملك فهد، السعودية (٢٠٠٤م).

(١١) ابن حجر العسقلاني، **(فتح الباري شرح صحيح البخاري)**، الرياض، دار طيبة، (٢٠٠٥م).

(١٢) ابن حزم، **(الفِصَل في الملل والأهواء والنحل)**، دار الجيل، بيروت، (١٩٩٦م).

(١٣) ابن خلدون، **(المقدمة)**، تحقيق: عبد السلام الشدادي، بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، (٢٠٠٥م).

(١٤) ابن رجب، **(فضل علم السلف علىٰ الخلف)**، المطبعة المنيرية، القاهرة،(١٣٤٧هـ).

(١٥) رشد، **(الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة)**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (١٩٩٨م).

(١٦) رشد، **(تهافت التهافت)**، تحقيق: سليمان الدنيا، دار المعارف، القاهرة، (١٩٧٣م).

(١٧) ابن عبد البر، **(التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)**، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، (١٣٨٧هـ).

(١٨) ابن كثير، **(تفسير القرآن الكريم)**، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، (١٩٩٩م).

(١٩) أبوحامد الغزالي، **(المنقذ من الضلال)**، تحقيق: سعد الكريم الفقي، دار ابن خلدون، الإسكندرية.

(٢٠) أحمد بن عوض الله، **(الماتريدية دراسة وتقويمًا)**، دار العاصمة، الرياض، (١٤١٣هـ).

(٢١) أحمد داود أوغلو، **(الفلسفة السياسية)**، ترجمة: د. إبراهيم البيومي غانم، مصر، دار الشروق، (٢٠٠٦م).

(٢٢) إسماعيل راجي الفاروقي، **(التوحيد: مضامينه علىٰ الفكر والحياة)**، ترجمة: السيد عمر، نسخة الكترونية.

(٢٣) ألفن بلانتنجا، **(هل الإلحاد لا عقلاني؟)**، مركز براهين، نسخة الكترونية، (٢٠١٤م).

(٢٤) ألكسندر أغناتنكو، **(بحثًا عن السعادة: الأفكار الاجتماعية السياسية في الفلسفة العربية الإسلامية)**، دار التقدم، موسكو، (١٩٩٠م).

(٢٥) إلياس بلكا، **(الغيب والعقل: دراسة في حدود المعرفة البشرية)**، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (٢٠٠٨م).

(٢٦) أندرو هيود، **(مدخل إلىٰ الأيديولوجيات السياسية)**، ترجمة: محمد صفار، المركز القومي للترجمة، مصر، (٢٠١٢م).

(٢٧) بول ديفيز، **(الجائزة الكونية الكبرىٰ: لماذا الكون مناسب للحياة؟)**، ترجمة: سعد الدين خرفان، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، (٢٠١١م).

(٢٨) الجاحظ، **(كتاب الحيوان)**، تحقيق: عبدالسلام هارون، القاهرة، مكتبة مصطفىٰ الحلبي، (١٩٦٧م).

(٢٩) جعفر شيخ إدريس، (**الفيزياء ووجود الخالق: مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين**)، مجلة البيان، السعودية، (٢٠٠١م).

(٣٠) جلال الدين السيوطي، (**التحبير في علم التفسير**)، تحقيق: د. فتحي عبدالقادر فريد، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، (١٩٨٢م).

(٣١) جون كلوفر مونسما، (**الله يتجلىٰ في عصر العلم**)، ترجمة: الدمرداش سرحان، دار القلم، بيروت.

(٣٢) جوناثان ويلز، (**أيقونات التطور: علم أم خرافة؟**)، ترجمة: موسىٰ إدريس - أحمد ماحي - محمد القاضي، دار الكاتب، مصر، (٢٠١٤م).

(٣٣) جيفري لانج، (**حتىٰ الملائكة تسأل!**)، ترجمة: منذر العبسي، دار الفكر، سورية، (٢٠٠١م).

(٣٤) حسام الدين حامد، (**الإلحاد: وثوقية التوهم وخواء العدم**)، مركز نماء، بيروت، (٢٠١٥م).

(٣٥) ريتشارد تارنس، (**آلام العقل الغربي**)، تعريب: فاضل جتكر، دار العبيكان، السعودية، الطبعة الأولىٰ، (٢٠١٠).

(٣٦) سامي عامري، (**فمن خلق الله: نقد الشبهة الإلحادية: «إذا كان لكل مخلوق خالق، فمن إذن خلق الله؟!» في ضوء التحقيق الفلسفي والنقد الكوسمولوجي**)، مركز تكوين، لندن، (٢٠١٦م).

(٣٧) سامي عامري، (**مشكلة الشر ووجود الله: الرد علىٰ أبرز شبهات الملاحدة**)، مركز تكوين، لندن، (٢٠١٦م).

(٣٨) ستيفن هوكنج، (**الكون في قشرة جوز: شكل جديد للكون**)، ترجمة: مصطفىٰ فهمي، الكويت، عالم المعرفة، (٢٠٠٣م).

(٣٩) ستيفين واينبرغ، (**أحلام الفيزيائيين بالحصول علىٰ نظرية نهائية**)، ترجمة: أدهم السمان، دار طلاس، دمشق، (٢٠٠٦م).

(٤٠) سعيد بن ناصر الغامدي، (**المرجعية: في المفهوم والمآلات**)، مركز صناعة الفكر، بيروت، (٢٠١٥م).

(٤١) الشاطبي، (**الاعتصام**)، تحقيق: مشهور آل سلمان، مكتبة التوحيد، البحرين، (١٤٢١هـ).

(٤٢) عبد الرحمن الزنيدي، (**مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي**)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتبة المؤيد، الرياض، الطبعة الأولىٰ، (١٩٩٢م).

(٤٣) عبد الرحمن السعدي، (**شرح القصيدة التائية**)، مكتبة أضواء السلف، الرياض، (١٩٩٨م).

(٤٤) عبد الرحمن بن سعد الشهري، (**الدليل العقلي عند السلف**)، مركز التأصيل، السعودية، (٢٠١٥م).

(٤٥) عبد الكريم الشهرستاني، (**نهاية الإقدام في علم الكلام**)، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، (٢٠٠٩م).

(٤٦) عبد الله العجيري، (**ميليشا الإلحاد: مدخل لفهم الإلحاد الجديد**)، مركز تكوين، لندن، (٢٠١٤م).

(٤٧) عبد الله القرني، (**المعرفة في الإسلام مصادرها ومجالاتها**)، مركز تأصيل للدراسات والبحوث، جدة، الطبعة الثانية، (٢٠٠٨م).

(٤٨) عبد الله بن سعيد الشهري، **(ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان)**، مركز نماء، بيروت، (٢٠١٤م).

(٤٩) عبد الله بن صالح العجيري، **(شموع النهار: إطلالة على الجدل الديني الإلحادي المعاصر في مسألة الوجود الإلهي)**، مركز تكوين، لندن، (٢٠١٦م).

(٥٠) عبد الله بن صالح العجيري، **(ينبوع الغواية الفكرية: غلبة المزاج الليبرالي وأثره في تشكيل الفكر والتصورات)**، مجلة البيان، الرياض، (١٤٣٤هـ)،

(٥١) عبد المعطي بيومي، **(أثر التيارات المادية في التصورات اليهودية والمسيحية)**، حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية لجامعة قطر، (٣: ١٩٨٤م).

(٥٢) عبد الوهاب المسيري، **(الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان)**، دمشق، دار الفكر، (٢٠٠٢م).

(٥٣) عبد الوهاب المسيري، **(دفاعًا عن الإنسان: دراسات نظرية وتطبيقية في النماذج المركبة)**، دار الشروق، مصر، (٢٠٠٦م).

(٥٤) عبدالله بن جار، **(إتحاف الخلق بمعرفة الخالق)**، الرباض، (١٤١٢هـ).

(٥٥) عبدالله بن علي الجعيثن، **(تحفة المريض)**، القصيم، نسخة مجانية.

(٥٦) علاء الدين البخاري، **(كشف الأسرار عن أصول فخر الدين البزدوي)**، بيروت، دار الكتب العلمية،)١٩٩٧م)

(٥٧) علي النشار، **(نشأة الدين: النظريات التطورية والمؤلهة)**، دار السلام، مصر، (٢٠٠٩م).

(٥٨) علي عبد الرحيم، (أصحاب الحق: دراسة في نقد التنظيمات الإسلامية)، مركز الجزيرة للدراسات، قطر، الطبعة الأولىٰ، (٢٠١٤م).

(٥٩) علي عزت بيجوفيتش، (الإسلام بين الشرق والغرب)، دار الشروق، مصر، (٢٠١٣م).

(٦٠) عمرو بسيوني، (الأسس اللَّا عقلية للإلحاد)، مركز براهين، نسخة الكترونية.

(٦١) عمرو شريف، (خرافة الإلحاد)، مكتبة الشروق، مصر، (٢٠١٤م).

(٦٢) عمرو شريف، (رحلة عقل)، مكتبة الشروق، القاهرة، (٢٠١١م).

(٦٣) عمرو عبد العزيز، (الداروينية المتأسلمة: أزمة منهج)، الطبعة الثانية، نسخة الكترونية.

(٦٤) فتح الله كولن، (حقيقة الخلق ونظرية التطور)، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، مصر، (٢٠٠٦م).

(٦٥) فخر الدين الرازي، (محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين)، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

(٦٦) فهد بن صالح العجلان، (التسليم للنص الشرعي والمعارضات الفكرية المعاصرة)، مركز التأصيل، السعودية، (٢٠١٥م).

(٦٧) القرطبي، (الجامع لأحكام القرآن)، تحقيق: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت،(٢٠٠٦م).

(٦٨) القرطبي، (المفهم لِمَا أُشكِل من تلخيص كتاب مسلم)، دارابن كثير، دارالكلم الطيب، بيروت، (١٩٩٦م).

(٦٩) قطب الدين الرازي، (**تحرير القواعد المنطقية في شرح الرسالة الشمسية**)، مطبعة مصطفى السبابي الحلبي، مصر، (١٩٤٨م).

(٧٠) كاملة الكواري، (**قدم العالم وتسلسل الحوادث بين ابن تيمية والفلاسفة**)، دار أسامة، عمان، (٢٠٠١م).

(٧١) كريمة دوز، (**الأخلاق بين الأديان السماوية والفلسفة الغربية**)، دار الكاتب، مصر، (٢٠١٦م).

(٧٢) كيسي لسكين، (**الانتواع الخادع: خرافة ملاحظة التغير التطوري على نطاق واسع**)، ترجمة: سلام المجذوب - محمد القاضي، دار الكاتب، مصر، (٢٠١٦م).

(٧٣) لكومت دي نوي، (مصير الإنسان)، ترجمة: خليل الجرّ، دار المنشورات العربية، لبنان، (١٩٦٧م).

(٧٤) مجموعة من المؤلفين، (**أطلس الفلسفة**)، المكتبة الشرقية، بيروت، (٢٠٠٧م).

(٧٥) محمد الروسي، (**مختصر تاريخ الحقيقة**)، دار ثري بي، القاهرة، (٢٠١٢م).

(٧٦) محمد الصادقي، (**حوار بين الإلهيين والماديين**)، دار التراث الإسلامي، بيروت.

(٧٧) محمد باسل الطائي، (**صيرورة الكون: مدارج العلم، ومعارج الإيمان**)، عالَم الكتب الحديث، الأردن، (٢٠١٠م).

(٧٨) محمد جمال الدين القاسمي، (**دلائل التوحيد**)، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٧٩) محمد رشيد رضا، (**تفسير المنار**)، مصر، طبعة المنار، (١٣٦٦هـ).

(٨٠) محمد صالح الهبيلي، **(التطور: نظرة تاريخية وعلمية، وقفات من ذاكرة نشأة التطور وإلىٰ اليوم)**، مركز دلائل، الرياض، (١٤٣٧هـ).

(٨١) محمد عبدالله دراز، **(الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان)**، دار ابن الجوزي، القاهرة، (٢٠١٣م).

(٨٢) مشاري الإبراهيم، **(أربعة عقود من اليأس)**، نسخة الكترونية، (٢٠١٥م).

(٨٣) مصطفىٰ صبري، **(موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين)**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٩٨١م).

(٨٤) موريس بوكاي، **(القرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل، والعلم)**، دار المعارف، القاهرة، (١٩٦٤م).

(٨٥) نديم الجسر، **(قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن)**، لبنان.

(٨٦) النووي، **(المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)**، بيروت، دار المعرفة، (١٩٩٤م).

(٨٧) هشام عزمي، **(التطور الموجه بين الدين والعلم)**، دار الكاتب، مصر، (٢٠١٦م).

(٨٨) يمنىٰ طريف الخولي، **(العلم والاغتراب والحرية: مقال في فلسفة العلم من الحتمية إلىٰ اللاحتمية)**، الهيئة العامة للكتاب، مصر، (١٩٨٧م).

(٨٩) يمنىٰ طريف الخولي، **(فلسفة العلم في القرن العشرين: الأصول، الحصاد، الآفاق المستقبلية)**، مكتبة هنداوي، القاهرة، (٢٠١٤م).

(٩٠) يوسف كرم، **(تاريخ الفلسفة الحديثة)**، مؤسسة هنداوي، القاهرة، (٢٠١٢م).

- ثالثًا: مراجع باللغة الأجنبية:

(91) Alexander Vilenkin, Many Worlds in One: The Search for Other Universes, New York, Hill and Wang, 2006.

(92) Ali Demirsoy, Kalitim ve Evrim (Inheritance and Evolution), Ankara, Meteksan Yayinlari, 1984.

(93) Brian Greene, The Elegant Universe: Super - strings, Hidden Dimensions and the Quest for the Ultimate Theory, Vintage Books, New York, 1999.

(94) Carl Sagan, The Demon - Haunted World, Headline book publishing, London, 1997.

(95) Charles Darwin, On The Origin of Species, London, John Murray, Albemarle Street, 1859.

(96) Charles Thaxton & Walter Bradley, The mystery of life's origin, Texas, Lewis and Stanley, 1992.

(97) David Berlinski: The Devil's Delusion: Atheism and It's Scientific Pretensions, Basic Books, 2009.

(98) Emile Borel, Probabilities and Life, Dover, New York, 1962.

(99) Eugiene Scott, Evolution VS Creationism: An Introduction, Greenwood Press, London, 2009.

(100) Francis Hitching, The Neck of the Giraffe: Where Darwin went wrong, Tichnor and fields, NewYork, 1982.

(101) Fred Hoyle & Chandra Wickramasinghe, Evolution from space, New york, Simon & Schuster, 1984.

(102) Heinz Pagels, Perfect Symmetry: The Search for The Beginning of Time, New York, Bantam Books, 1985.

(103) Henry Margenau, The Nature of Physical Reality: A Philosophy of Modern Physics, McGrew-Hill Book Co., USA, 1950.

(104) Jerry Coyne, Why Evolution is true, Oxford University Press, USA, 2009.

(105) John Brooke, Science and religion: Sone historical perspectives, Cambridge university press, 1991.

(106) John Hick, Evil and the God of love, Palgrave Macmillian, London, 1977.

(107) John Polkinghorne, One World: The interaction of Science and Theology, Templeton Foundation Press, USA, 2007.

(108) Jonathan Sarfati, The greatest hoax on Earth: Refuting Dawkins on evolution, Creation Book Publishers, Georgia, USA, 2010.

(109) Jonathan Wells, Icons of evolution: Science or myth?, Regnery Publishing, Washington, 2002.

(110) Jonathan Wells, The Myth of Junk DNA, Discovery Institute Press, Seattle, 2011.

(111) Joseph Seckbach & Richard Gordon, Divine Action and Natural Selecetion: Science, Faith and Evolution, World Sceintific Publishing Co., New Jersey, 2009.

(112) Keith Ward, The Big Questions in science and religion, Templeton Foundation Press, West Conshohocken, 2008.

(113) Louis Narens, Theories of Meaningfulness, Lawrence Erlbaum Associates, New Jersey, 2002.

(114) Mark Eastman & Chuck Missler, The Creator Beyond Space and Time, Word For Today, USA, 1996.

(115) Michael Pitman, Adam and evolution, Rider & Company, London, 1984.

(116) Nafeez Ahmed, Behind the war on terror: Western Secret Strategy and the Struggle for Iraq, Clairview Books, UK, 2003.

(117) Nicholas Comninellis & Joe White, Darwin's Demise: Why Evolution Can't Take the Heat, Master Books, USA, 2002.

(118) Paul Davies, The Mind of God: The Scientific Basis for a Rational World, Simon&Schuster, New York, 1993

(119) Peter Wilberg, The science delusion: Why God is real and science is religious myth, New Gnosis Publications, London, 2008.

(120) Phillip Johnson, Defeating Darwinism by Opening Minds, InterVarsity Press, Illinois, 1997.

(121) Ravi Zacharias, The End of Reason: A response to the new atheists, Grand Rapids, Mich: Zondervn, 2009.

(122) Rene Dubos, Pasteur and modern science, Anchor books, New York, 1960.

(123) Richard Dawkins, River Out of Eden: A Darwinian View of Life, Basic Books, 1995.

(124) Richard Dawkins, The Greatest Show on Earth: The evidence for evolution, Free Press, New York, 2009.

(125) Richard Dawkins, The Blind Watchmaker: Why The Evidence of Evolution Reveals A Universe Without Design, W.W. Norton & Co., New York, 1996.

(126) Richard Swinburne, The existence of God, Oxford university press, USA, 2004.

(127) Robert Pennock, Intelligent design creationism and its critics: Philosophical, Theologocial, and Scientific Perspectives, A Bradford Book, The MIT Press, USA.

(128) Roger Lewin, In the Age of Mankind, Smithsonian Books, Washington D.C, 1988.

(129) Rupert Sheldrake, The science delusion: Freeing the spirit of enquiry, Hodder&Stoughton, London, 2012.

(130) Simon Singh, Big bang: The Origin of the Universe, Fourth estate, London, 2004.

(131) Stephen Hawking, A brief history of time, Bantame press, London, 1988.

(132) Stephen Hawking & Leonard Mlodinow, The Grand Design.

(133) Stephen Mayer, P.A. Nelson, & Paul Chien, The Cambrian Explosion: Biology's Big Bang, 2001.

(134) Tim Berra, Evolution and the Myth of Creationism, Stanford University Press, California, 1990.

(135) Thomas Nagel, Mind and Cosmos: Why the Materialist Neo - Darwinian Conception of Nature Is Almost Certainly False, Oxford University Press, USA, 2012.

(136) Wallace Johnson, The Death of Evolution, TAN Books, California, 2000.

(137) William Broad & Nicholas Wade, Betrayers of the truth: Fraud and Deceit in the Halls of science, Simon and Schuster, New York, 1982.

(138) William Craig, Kalam Cosmological Argument, Macmillan Press, London, 1979.

(139) Wiiliam Craig & Quentin Smith, Theism, Atheism, And Big Bang Cosmology, New York, Oxford University Press, 1993.

(140) William Dembski, The Design Inference: Eliminating Chance Through Small Probabilities, Cambridge University Press, USA, 1998.

(141) William Dembski, Intelligent Design: The Bridge Between Science & Theology, InterVarsity Press, Illinois, 1999.

- رابعًا: مراجع الكترونية:

(١٤٢) (صفحة: الباحثون المسلمون):

https://www.facebook.com/The.Muslim.researchers/

(١٤٣) (مدونة: مكافحة الإلحاد):

http://antishobhat.blogspot.com

(١٤٤) (مدونة: نظرية التطور وحقيقة الخلق):

http://creationoevolution.blogspot.de/

(١٤٥) (منتدى التوحيد):

http://www.eltwhed.com/vb/

(١٤٦) (موقع: أرابوست):

http://www.araposts.com/

* * *